



السَّالطَانَتَانَ السَّالطَانَتَانَ الْسَّالطَانَتَانَ الْسَّالطَانَتَانَ الْسَالِمُ وَمِهِ وَمِهِ وَمِهِ وَمَهِ وَمِهِ وَمَهِ وَمِهِ وَمِهِ وَمِهِ وَمِهِ وَمِهِ وَمِهِ وَمَهِ وَمِهِ وَهِ وَمِهِ وَمِهُ وَمِهُ وَمِهِ وَهِ مِنْ وَمِهِ وَمِهِ



جَانْ أَلْبِجُووَنْج ﴿إِلْوَالنَّيْلِانَ

## السَّنْ الطَّانَّانَ الْسَّنَاطَانَتَانَ السَّنْ الطَّانَةَ النَّانَ السَّنْ الطَّانِ وَسَيْلَتُ السَّنْ الطَّانُونِ وسَيْلَتْ الطَّانُ وَالْمُنْ الْمُنْ الطَّانُ وَالْمُنْ الطَّانُ وَالْمُنْ الطَّانُ وَالْمُنْ الْمُنْ اللَّهُ الْمُنْ الْمُنْ الْمُنْ الْمُنْ الْمُنْ الْمُنْ الْمُنْ اللَّهُ اللَّهُ الْمُنْ الْمُنْ الْمُنْ الْمُنْ الْمُنْ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُنْ الْمُنْمُ الْمُنْ الْمُ

لقد كانت الهواية المفضّلة لدى النساء العثمانيّات هي الأعمالُ والأنشطة الخيريّة، فلقد ضربتِ السلطاناتُ العثمانيّاتُ أروعَ الأمثلة في القيامِ بأعمالِ الخير ومدّ يد العون إلى الفقراء والمحتاجين، حتى أصبحتِ الأعمالُ الخيريّة مَيدانَ سباقٍ ومنافسةٍ فيما بينهنّ، بل إنّهنّ جعَلْنَ الأعمالُ الخيريَّة مَنهجَ حياة يسِرْنَ عليه، ويبذلْنَ لِضمانِ استمراريّته الغالي والنفيس، فلقد قُمْنَ بتشييدِ العديدِ من الجوامع والمدارسِ والأوقافِ والمستشفيات والحمّامات وسُبُلِ المياه، إلى جانب العديدِ من الأنشِطةِ الخيريّة الأخرى...

وبناءً على ما سَبَق: فإنّ السلطانة "خرّم" وابنتَها السلطانة "مهرماه" كانتا سيدتينِ محبتَينِ للخيرِ، مسارعتينِ إلى بذلِ الجهودِ وإنفاقِ الأموالِ لتحقيق ذلك...

وهذا بخلافٍ ما عمَدَ إليه أعداءُ الدولة العثمانيّة من تزييفٍ للوقائع وتزوير للحقائق، ضمنَ سلسلةٍ من المحاولات لتشويهِ صورةِ هاتين السيدتين الخيرتين...

لقد حافظَتْ مجموعةٌ من الأوقاف والأعمال الخيريّةِ على صفةِ العطاء والبذلِ وخدمةِ الناس إلى يومِنا هذا حتى رأيناها بأمّ أعْيُنِنَا، ونرجو من الله أن تبقَى هذه الأوقافُ شامخةً حتى تراها الأجيال المتعاقبةُ من بعدِنا إلى الأبد...





# المستلطانتان المستلطانتان خشر و مهر و مهر و مهر و مهر و مهر و مهر و مهام و مهر و مهام و مهر و مهام و مهام



#### السلطانتان خُرّم ومِهْرِمَاهُ

#### هُريئَة القانوني وسَلِيلَته Copyright©2014 Dar al-Nile

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي حزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسليلة، سلواء أكانت الكرونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الهوتوغرافي أو التسليحيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تحرير

إسماعيل كايار

مراجعة

يوكسل جلبنار

تصحيع

سليمان أحمد شيخ سليمان

تصعيم

أحمد على شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6183-28-5

رقم النشر

1011

#### دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة، 22 حـــ حنوب الأكاديمية- التسمين الشمالي - خلف سيتي بنك - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com هركز التولايع: ٧ ش الوامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

القاصرة - 2014م

## المُتُنَاطَانَتَانِنَا فِي المُتُنَاطِقَانِنَا فِي المُتَنَالِكَا فَي المُتَالِكَا فَي المُتَالِقَانِ وَالْمِي المُتَالِقَانِونِي وسليلت، وتينذا لقانوني وسليلت،

تأليف جَانُ ٱلْبِجُونْج (Can Alpgüvenç)

ترجمة د. وليد عبد الله القط



#### سيرة ذاتية للمؤلف

ولد جَانُ أَلْبُحُونُج (Can Alpgüvenç) في إسطنبول عام (١٩٥٤م)، وتخرج في كلية الاقتصاد بجامعة إسطنبول، عمل في إدارة إحدى الصحف القومية بين عامي (١٩٧٠ و١٩٨٤م). بعد ذلك عمل رئيسًا للتحرير في العديد من المجلات كان في مقدمتها "مجلة سور"، وقدم العديد من البرامج الإذاعية والتليفيزيونية، وفي الوقت الحالي يتابع الكاتب أبحاثه التاريخية، وهو متزوج ولديه ابنة واحدة.

هناك العديد من الأعمال التاريخية المنشورة لهذا الكاتب، وهذه طائفة من أسماء تلك الكتب:

- موت فرعون
- السلطانات المتسابقات في الخيرات
  - من أعلام العثمانيين
- السلطان عبد العزيز والباشاوات المتمردون
  - العدالة الصامتة
  - البستان وروضة الورود
  - إسطنبول العثمانية وآثارها

## فهرس

۱۳.	مقدمة
۲۳.	السُّلطانة "خُرُم"
۲٦.	البنت اللطيفة أسمها "خُرَّم"
۲۸.	اللوحات المُجَسِّدة لصورة "خُرُم"
۲۸.	لم يكن السلطان القانوني مُولعًا بالنساء
٣١.	السلطانة الوالدة
٣١.	فرحتا السلطان
٣٤.	"لا أُنكِرُ شعوري بالأسف لما أصاب هذا الكافر"
۳٥.	مِنْ مسؤول الجناح الخاصّ إلى منصب الصدر الأعظم
	مجمع السلطانة الوالدة حفصة
٣٨.	زفاف لیس له مثیل!
٤٠,	إلهي لا تخذل أمُّةً محمد المسلمة!
٤٣.	كَلَامُكَ حُلْوٌ ورِجِهُكَ رَجْه يوسف
٤٦.	نَصَرَكَ الله على الكافرين
	حصار فيينًا
01.	وفاةُ السلطانةِ الأمّ "حَفْصَة"

استسلام بغداد بدون مقاومة ٤٥
إن شَعرةً من شاربِكم المُبارك أغلى عندي
مقتل "إبراهيم باشا" ٥٥
ما ننب "خُرُم"؟ ٦٥
البحرُ الأحمرُ يصبحُ بحيرةً تركيّةً
أرجو من الحق تعالى أن
حنثٌ أليم: وفاة ولى العهد محمد
ثلاثٌ وخمسون رسالة أُرْسِلَتُ إلى ملك بولندا
سيروا بأمر الله
هل "السلطانة خُرُم" هي المخطئة أيضًا!
ادعاءاتً واتهاماتً لا سَنَدَ لها
مجموعة هدايا بقيمة عشرة آلاف ليرة
فليُخسَفْ بهِ كما خُسِفَ بـآقارون "
السلطانةُ تتقلُ المعلوماتِ إلى السلطان:
شائعات حول "القانونيّ"٥٨
<del>-</del>
سقوط الأمير في الفَخِّ ٨٧
أيهما ينتصرُ: عاطفة الأبوَّةِ أم الحرصُ على سلامةِ الدولةِ وبقائها؟. ٨٨
لقد اختار بقاء الدولة
فَقَدَ السلطان ولديه في شهرٍ واحدٍ٩٠
إتهامات ظالمةُ في حقُّ "القانونيِّ" وزوجتِهِ
هل كان القانونيُّ متيّمًا بـ"السلطانة خُرَّم"؟

رجلُ دولةٍ عاشقُ للعدالة
آهٍ يا سليمان، لقد نجوتَ بنفسِكَ وأمّا نحنُ؟!
الأبناءُ الذين يتمرَّدُونَ على الآباءِ
أينَ هي الرسائلُ المُزَوَرَةُ؟
وفاةُ "السلطانة خُرُم" عن عمرٍ يناهزُ السادسةَ والستينَ
الضريحُ الذي منحَ الحياةَ لحديقةِ الربيع
حكاياتٌ ملفّقةٌ من نسج الخيال
هدفُهم معاداةُ الدولةِ العثمانيّةِ١١٣
أعمال "السُّلطانة خُرَّم" الخيرية
أفضل الأعمال الخيريّةِ هو تأسيسُ وقفٍ
المجمع الذي بُني مكان سوق "أَوْرَتْ (Avrat)"
كلمة "محمد" بالخط الكوفي
هل المعماري "سِنَان" هو من أنشأ الجامع؟
اللوحاتُ الخَرْفَيَّةُ المفقودةُ١٣٠
المدرسةُ تَحوَّلت إلى ملجأ
لا يليق بالإنسان اللجوء إلى (الواسطة)
دار "خَاصَكِي" لإطعام المساكين إحدى روائع "سنان" المميّزةِ ١٣٩
اثنان وثلاثون كيلو جرامًا من اللحم يوميًّا
التعليمُ الدينيُ في مدارس الصَّبْيان
حديقةُ العابِ للأطفال
سبيلُ الماء

مشفى "خَاصَكِي" الأثر الوحيد من ميراث القرن السادس عشر ١٤٩
فِنَاء المشفى ذو الحوض
الكلمةُ الفظَّةُ تَوجِعُ المريض
العلاج يُمنح أيضًا خارج نطاق المستشفى
كان مشفى الوقف مركزاً علاجيًّا
خمسةً وثلاثون عامًا في إدارة الشؤونِ الدينيَّةِ
حمامُ "خَاصَكِي" الكائنُ في منطقةِ السلطانِ أحمد
نوافيرُ على شكلِ الحِيتان
حمامُ تحوَّلَ إلى خزانٍ للبنزين
دار "خَاصَكِي" لإطعامِ المحتاجينَ في القدسِ الشريف
الطعامُ كان يوزَّعُ على المسيحيِّين أيضًا
'السلطانة مِهْرِمَاهْ''
قُملة تَشْكُل المستقبل
صدراً أعظمَ في سنِّ التاسعةِ والثلاثين
عزاء لملك بولندا "زيجموند"
تكفي يدُّ واحدةٌ ولا داعيَ أن تمدُّ الأخرى
"بيازيد" لا يأبَهُ بالنصيحة
نهاية "بيازيد" الحزينة
مساعدتها في تجهيز حملة "مالطه"
كلُّ شيءٍ خاضعٌ لقدرةٍ إلهيّةٍ
191 (5.14.1.311.1.11.514.

۱۹۳	أعمال "السلطانة مِهْرِمَاهُ" الخيرية
۱۹۳	"السلطانة مِهْرِمَاهْ" نُتَافِسُ الآخرين على نيل الثواب والأجرِ
	مجمّع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في "أسكودار "
197	براعةُ المعماريِّ "سِنَان" في هذا الأثرِ
۲٠١	الساعةُ الشمسيَّةُ الموضوعةُ في القسمِ الجنوبيِّ
۲.٥	بساطةً تليقُ ببنتِ السلطانِ
۲۱.	بابٌ منقطعُ النظيرِ في الزخرفة
411	ضريحانِ بلا تاريخِ أو كتابةٍ عليهما
	خمسُ قِطْعٍ من النقودِ الفضّيّةِ للطالبِ المجتهد
	السبيل العام الذي تم تأجيره
418	القصرُ العظيمُ المُشَيِّد على هضبةِ السلطانِ
414	النزلُ الكبيرُ الذي تمَّ تفجيره بالديناميت
419	دارُ إعدادِ الطعامِ التي هُدِمَتْ بحجَّةِ شق الطريقِ
***	مجمّع "السلطانة مِهْرِمَاهُ" في "أَبِرُنّه قَابِي"
777	جامعٌ مضيئٌ وواسعٌ
**	ترميمُ الجامعِ بدأ في عهدِ "مَنْدَرَس"
۲۳.	ضريحُ "سميز أحمد باشا"
777	الحمامُ المزدوجُ الذي تحوَّلَ إلى ورشةٍ لتصنيعِ الخيوطِ
770	قناةً للمياهِ تحتُ الأرضِ بتكلفةِ خمسين مليون في مكة
777	وقفُ قراءةِ القرآنِ على روح الرسول 娄
711	المصادرا

#### مقدمة

كانت مراعاة الدولة العثمانية للإنسانية مراعاة عظيمة وغير مسبوقة، فقد اتسمت الدولة العثمانية بالتسامح مع مختلف الأديان والمعتقدات، إلى جانب سعيها الحثيث نحو ضمان الحقوق وحريات الشعوب، وقد استمرت على تلك الحال قرابة ستة قرون، استطاعت خلالها تكوين قوة عظمى تهيمن على العالم، وكانت هذه السمات بمثابة الركائز الأساسية التي جعلت الدولة العثمانية تعتلي مكانة مرموقة على رأس دول العالم، بحيث يمكننا أن نقول: إن هذه المكانة ستظل آثارُها باقية إلى أن يشاء الله.

. . .

فعلى سبيل المثال، إذا نظرنا إلى المهندس المعماري الكبير "سنان" المذي عاش في العصر الذهبي للدولة العثمانية، نجده يعمل بكلّ جهد وعزم، ويتجوّل في الأماكن والبلدان الأخرى فيُلاحِظ ويُسجِّل مُشاهَدَاتِهِ، كالبَرْجُل الذي نرى إحدى ساقيه ثابتة ومستقرة في مكانها وساقه الأخرى تتحرّك هنا وهناك، لقد استطاع هذا المهندس المعماري أن ينحت اسمَه في تاريخ الهندسة المعماريّة العالميّة بحروفٍ من ذهب، وأن يحقّق نجاحًا باهرًا يظهرُ جليًا في نحو أربعمائة تُحفّة معمارية؛ منها مائة وستة وثلاثون مسجدًا في ربوع الإمبراطورية العثمانية، وسبعة وخمسون مدرسة، والعشرات من الأضرِحة، ودور تحفيظ القرآن، والمَشافي،

١٤ ---- [خُرَم ومِهْرِمَاهُ]

وقنوات المياه، ومياه السبيل، والحمامات، والجسور، والأقبية، والنُزُل(''، والقصور، ودور إطعام المساكين.

وتحكي لنا "ديل (Diehl)" الخبيرة في تاريخ بيزنطة، وهي مُنْبَهِرة بتُحفة "السُّلَيْمَانية" التي بناها "سنان"، فتقول:

"إنها أَكْثَرُ رَوْعةً وجلالًا من كاتدرائية جستنيان (Jüstinyen) (أياصوفيا)".

وفيما يتعلق بمسجد "السَّلِيمِية" الذي نجح المعماري الفذ "سنان" في تغطية مساحة كبيرة منه بقُبَّة واحدة، وأخرجه تحفة معماريَّة فائقة الدقّة والجمال فيقول:

"لقد كان أساطينُ المِعمار في الغرب يزعمون أنهم قد انتصروا على المسلمين؛ لعدم تمكنهم من بناء قبة واحدة في الدولة الإسلامية تُضَاهِي قُبّة (أياصوفيا)، وكانت حجّتهم في ذلك أنه من الصعب على المسلمين إنشاء قبّة كبيرة بهذا الحجم كتلك الموجودة في "أيا صوفيا"، فلقد أَدْمَتْ هذه الكلماتُ قلبي، وبعثت في داخلي روح المنافسة".

فما كان من ذلك المعماري الفذّ إلا أن اجتهدَ بكلّ ما أُوتِيَ من قوةٍ ومهارة، حتى استطاع أن يُخَلِّفُ لنا في تاريخ العمارة تحفة "السَّلِيمِيّةِ" الرائعة، التي فاقت في روعتها وجمالِها ودقّةٍ بنائِها (أياصوفيا).

...

وعلى مستوى آخر، فإننا إذا عقدنا مقارنةً بين الوضع الذي كانت عليه مدرسة الفاتح، والوضع الذي كانت عليه جامعة ً "فرانكفورت (Frankfurt)" أو "السوربون (Sorbonne)" في بدايات القرن السادس عشر، فسنلحظ تلك النتائج المُبهِرة:

<sup>(</sup>١) النُّزْلُ: بمعنى المنزل، وهي تطلق قديمًا على أماكن الإقامة العامة، مثل الفنادق حديثًا. (المترجم)

وهي أنه في الوقت الذي كانت جامعة "السوربون" تشتمل على أَحَدَ عَشَرَ كتابًا في الطبِّ، وجامعة "فرانكفورت" اثني عشر كتابًا، كانت مدرسة الفاتح تشتمل على تسعمائة وستة عشرين كتابًا في الطبّ.

بل إن سبعة من الكتب الموجودة في جامعة "السوربون" و"فرانكفورت" كانت عبارة عن ترجمات للعالمينن "البيروني" و"ابن سينا"، فهذه المميزات التي امتازت بها مدرسة الفاتح عن غيرها من الجامعات، نجدها تزداد ازدهارًا بحلول منتصف القرن السادس عشر.

لقد كان عصرُ السلطان القانوني يُمثِّل حِقْبةً فريدةً قامت على أيدي فنانين مبدعين، حيث ظهرت في تلك الفترة أعمالً فنيّة بلغت الغاية والندروة في الروعة والإبداع؛ كتلك التي نراها في مجالات العمارة العثمانية والفنّ والخطِّ والشعر والأدب والتذهيب" والزخرفة والتطريز والمشغولات الخشبيّة.

كما بَرَزَ في تلك المرحلة شعراء عظامٌ كُثُر، يكاد يكون على رأسهم السلطان سليمان نفسه بمَخْلَصه الشعري "مُحِتي" الذي فتح الباب أمام ظهور رواثِعَ أخرى تأثّرت بها بعد ذلك، هذا إلى جانب إبداعات شعراء ظهور رواثِعَ أخرى تأثّرت بها بعد ذلك، هذا إلى جانب إبداعات شعراء آخرين؛ مشل: "فضولي" و"باقي" وغيرهما، كما لَمَعَ في ذلك العصر أيضًا الفنان "قرَاحِصَارِي (Karahisari)" الذي بَرَعَ في فن الخطّ وأمتع الأمّة بكتاباته الفنيّة الجميلة، أما في علم القانون فقد ظهر رجالٌ أفذاذ مشل: "زَمْبِيلِي علي أَفْدُدِي (Zembilli Ali Efendi)"، و"ابن كمال أفندي"، و"أبو السعود أفندي"، وفي التاريخ نجد علماء أَكْفَاءً؛ كأمثال: "سَالَانِيكِي و"أبو السعود أفندي"، و" رَمَضَان زَادَه (Ramazanzâde)"، وفي الجغرافيا نجد: "بيري رئيس (Pîrî Reis)"، و"سيدي علي رئيس (Seydi Ali Reis)"،

<sup>(</sup>٢) التذهيب: هو فن التزيين بماء الذهب والألوان. (المترجم)

١٦ ------ [خُرَم ويهفرمَاهُ]

وأما فيما يتعلَّقُ بأساطينِ البحر فإننا نجدُ عمالقةً في هذا المجال منهم: "بارباروس (Barbaros)"، و"بِيَالَه باشا (Piyale Paşa)"، و"تُورْغُوتْ رئيس (Turgut Reis)".

وفي الآونة الأخيرة، نرى ثُلَّة من الكتاب -من غير الأتراك - ممن يحمِلون الجنسية التركية اسمًا فقط، لكنهم ينتسبون في الحقيقة إلى هُويات أخرى، وقد تَجَاسَرَ هؤلاء الكتاب وتجرّؤوا، فأخذوا يوجهون أكاذيبَ وافتراءاتٍ مثيرةً للاشمئزاز، في حق الدولة العلية العثمانية وحكّامها الأبطالِ أحيانًا، وأحيانًا أخرى في حقّ نساء القصر اللواتي كنّ يعشنَ في الجناح الخاصّ بالحريم.

كان هـؤلاء الكُتَّاب المُدَّعونَ الذين يعملون لصالح جهات وأجِنْداتٍ خارجيّةٍ مختلفة، يُرَدِّدون ادعاءاتٍ باطلةً لا أساسَ لها من الصحّة، منبَعُها كُتَّاب ومؤرِّخون أجانب يُناصِبون الدولةَ العثمانيةَ العَدَاء؛ في مُحاوَلةٍ منهم إلى تقليصٍ وتحجيمٍ دور تلك الحضارة الفريدة التي أثْرَتْ العالمَ لعدةٍ قرون مُدَّعِينَ أنها حضارة الدم والسيف ويقول أحد الذين اتّخذوا لأنفسهم اسمًا تركيًّا -مع أنه غيرُ تركيٍّ أصلًا- وهو يتحدّث عن السلطانِ سليمان ووليّ عهدِه الأميرِ مصطفى:

"ولقد أمرَ سليمان جنوده المقرّبين بخنق ابنه وولي عهده (مصطفى)...وجلسَ داخلَ خيمةٍ مجاورةٍ يستمعُ إلى أنينِ ابنه ووليّ عهده وليّ عهده -الذي كان يقبّله ويشمه عندما كان صغيرًا- وقد شرع الجلادونَ يخنقونَهُ بصمتٍ خبيث.. ياللُعجب..! أترى هذا حسنًا!؟".

وهكذا نرى هذا الكاتب يمدُّ يدَ الافتراءِ على هذا الحاكم العادل الذي كان قلبُه عامرًا بالرحمة والمحبة، والذي كان يراقب نفسَه ويخشى ربَّه في معاملته لرعاياه حتى في أبسط الحقوق. لكننا إذا أمعنا النظر والتدقيق في هذه الحادثة نجد أنَّ الأمير مصطفى قد انخدع بالفعل، وحاول القيام بشورة على الدولة وعلى والده، أما السلطان سليمان القانوني فقد قام من جانبه بتقصّي الحقائق والتأكد من صحّة هذه الادِّعاءات عن ابنه، واعتمد في هذا الصدد على مصادر مختلفة وحاسمة ودقيقة تُمِدُّه بالمعلومات، حتى توصَّل في نهاية عملية البحثِ والتحرّي إلى أن ابنه مصطفى كان يسعى بالفعل إلى التمرّد عليه؛ كي يستولى على الحكم.

كان السلطان القانوني يهتم بالشرعية ويولي الدولة أهميّة فوق كلّ شيء، فكان يحرِص أشدَّ الحرص على عدم إتاحة المجالِ أمام أيّ فرصة قد تؤدّي إلى إلحاق الأذى بالشعب، أو إلى نُشُوب حربٍ أهلية تُرَاقُ فيها الدماء، لقد كان حرصه على الدولة فوق أيّ ضعفٍ أو عاطفة إنسانيّة، فلولا تصدّيه لاستمرار ابنه في الانحراف عن جادَّة الطريق، ولولا أنه من اقترافِ الأعمال المؤدّية إلى نشوبِ الصراعات بين الإخوة من أجل الوصول إلى الحكم؛ لولا ذلك كلّه لكانت النتيجة الحتميّة هي تقتّت الدولة وانهيارُها.

لقد كان شغله الشاغل مُنصَبًا في المقام الأوّل على حماية وَحُدَة الدولة ونظامِها وقوانينها، واستحوذَ شعورُ الحفاظ على الدولة وكيانِها على كاملِ عقلِه ووجدانِهِ، بحيث صار مُقدَّمًا على ما سواه من مشاعرِ الشفقةِ والأبوّةِ.

إن الادِّعاءَ بأن سليمان القانوني كان يُتابِع عمليةً إعدامِ ابنه من الغرفةِ المجاورةِ، لَهو مَحْضُ ادِّعاءٍ ملفَّتِ وافتراءٍ زائفٍ وعارٍ تمامًا مِن الصحة، ولا يعدو كونه تزييفًا للحقائق. ۱۸ ----- [خُرْم وبهْرمَاه]

فقد رُوِيَ أن السلطان سليمانَ أراد أن يَوُم المصلّين في صلاة الجنازة على جُثمانِ ولده، إلا أنه اضطرّ إلى الخروج من الصلاة وعدم إكمالها بسبب البكاء الشديد الذي سيطر عليه رغمًا عنه.

هـل من السـهل علـى أبٍ أن يضحّيَ بفلْـذَةِ كبده، ويقتـلَ ابنَهُ الأكبرَ الشجاع!

لقـد تَردَّد كثيرًا بيـن "بقاء الدولة" و"عاطفة الأَبّوة "، حاسِـمًا أَمْرُه في النهاية باختيار طريق التضحية بعواطفِه من أجل بقاء وسلامةِ الدولةِ.

وإذا كان البعض يحاولُ استغلالَ الشعُور بالشفقةِ تجاهَ الأمير مصطفى، فلا يفوتنا أن نتذكّر أنه كانت هناك حروبٌ طاحنةٌ بين السلطانينِ "بايزيد (Bayezid)" و " جَم (Cem)"، وكلاهما من أبناء السلطان "الفاتح"، وقد قُتِل مِن جَرَّاء تلك الحروب مثاتُ الجنود، كذلك فقد كانت بين "بايزيد" ووليّ العهد "سليم"، -وهما من أبناء السلطان القانوني - صراعاتٌ سَقَط ضَحِيّتها أبطالٌ وصناديد، وعلى الرغم من هذا، فلا نرى من يترحم على هـوُلاء الضحايا الذين سقطوا مِن جَرًاء تلك الحروب، بـل إن أحدًا لم يكترث لهم على الإطلاق.

إن الهاجسَ الوحيد لدى أتباع المدرسة الغربيّة الذين يسيرون على خُطًا سادة العالم الغربيّ، ممّن تحملُ ظهورُهم آثارَ ركلة العثمانيين، هو رغبتهم في تشويه سُمعة هذه الدولة العظيمة التي حكمت العالم لقرون، فصار شغلهم الشاغل هو الانتقام منها ومحاولة تشويه تراثها العريق.

...

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن جناح الحريم، فإن مما ينبغي لنا أن نعلمَه - أوّلًا وقبل أيّ شيء - أنه دارٌ تابعةٌ للسلطان، ومستودعٌ الأسراره.

وإن الهجوم بأبشع الأساليب على الحياة الأسَرِيّةِ الخاصّة والمسائل الشخصيّة المتعلّقة بالعثمانيين، وتحريف الأحداث والوقائع التي عايشوها، وتصويرَها من خلال جوّ مثير وشهوانيّ، كلّ هذا ما هو إلا سمومٌ نفثتها بُورٌ خارجيةٌ شريرةٌ، والحقيقة أن جناح الحريم كان يُعتبر لدى العثمانيين بمثابة المَهْد، الذي تنشأ وتترعرعُ فيه الأخلاق والعلم والتربية.

والجواري اللواتي سَنَحَتْ لهن الفرصة للتواجد في جناح الحريم كانت كل واحدة منهن يتم تدريبها على آداب وأخلاق المعاملة وَفُقًا لقدراتها، ويتم كذلك تعليمُها القراءة والكتابة وأحكام القرآن الكريم والعلوم الدينية، هذا إلى جانب فنون الأدبِ والموسيقى والتطريز، والمئاتُ من هؤلاء الجواري قد تزوّجن بموظفين قد تخرجوا من "أنّدرُونْ (Enderun)"" ونجحوا في إدارة الدولة.

• • •

أما السلطانة التَّقِيَة الخيِّرة "خُرَّم" زوجةُ السلطان سليمان القانوني، فقد كانت واحدةُ من النساء اللواتي امتلأت سيرة حياتهن بأباطيلَ صاغتُها السنةُ الدُّمَى المحليّة والأجنبيّة؛ حيث أَخَذَتْ هذه الألسنة تُلفِّق في حقّها قَصَصَ الشرّ والتآمر المختلفةِ، وتَنسُبُ إليها كُلَّ فِعْل مُشِين.

لقد كانت الأعمالُ الخيرية للسلطانة خُرَّم مُنصَبَّةُ بشكلِ رئيسيّ على مساعدة النساء العثمانيات؛ حيث لم تكن هذه الأعمال الخيريّةُ مقتصرةً على رجال الدولة العثمانيّة، بل شملت النساء عمومًا، من داخل

<sup>(</sup>٣) (أندرون) هو الاسم الذي كان يطلق على الدرجة الأولى من رجال الإدارة الذين ينتمون إلى "الجناح الخاص" الذي يعتبر في الدولة العثمانية مؤسسة هامة للغاية ويحتل المكانة الأولى. وكان أحد الأحتام الأربعة للسلطان موجودًا في (الجناح المخاص). وكان هؤلاء الرجال يتحركون مع السلطان أينما ذهب، ويقومون بتلبيس السلطان الملابس في المراسم والمناسبات. وكانوا يُعتبرون في البروتوكول على درجة مساوية لدرجة الوزير.

قصرِ السلطان أو حتى من خارجِه، وشملت أكثرُ هذه النفقاتِ الفقراءَ والمساكين والمرضى والمُعدمين، وهذا دليلٌ على رحمة السلطانة خُرّم وعلى مدى حبّها للخير.

لقد كانت الثقافة الرئيسية لدى هولاء النساء هي خدمة جميع أفراد المجتمع، من خلال إنشاء المراكز العِلْمية من مساجد ومدارس دينية، بالإضافة إلى تَشْيِيدِ العمائر والمُستشفيات، والحمامات، والنُّزُلِ، والنوافير، فإذا تتبعنا هذه الناحية من حياتهن نجد أنهن قدَّمْنَ خدمة كبيرة للمجتمع من خلال بناء منشآتٍ عامّةٍ خيريّةٍ ضخمةٍ.

...

هذا، وقد تَحدَّثُ في هذا الكتاب الذي يحمل عنوان "السلطانتان: خُرَم ومِهْرِمَاهُ قَرينَة القانوني وسَلِيلَته" عن شخصيتهما النموذجيتين، مُحاوِلًا الكشف عن حقيقة هاتين السيدتين اللتين تَعَمَّدَ الكُتّابُ المُعادون للدولة العثمانيّة تَصويرَهُنَّ على نحوٍ مغايرٍ للحقيقة؛ رغم أنهما عُرِفَتا بمَحبَّتِهِما لأعمال الخيرِ وبناءِ الأوقافِ الخيريّة، وفي النهاية فإنني أتركُ هذا الأمرَ إلى ضمير القُرَّاء؛ كي يتبيَّنوا حقيقة هذا الأمر بأنفسهم.

كما تناولتُ بالشرح الحديثَ عن "مجمّع خَاصَكِي" الذي تمّ بناؤُه من قِبَلِ المهندسِ المعماريِّ "سِنَانْ"، وذلك بتكليفٍ من "السلطانة خُرَّم" في المنطقة ذاتِها التي صارتْ تحمِل اسمَها فيما بعد.

حيث كان النظامُ المُتَبَع الذي أمرت به السلطانة خُرَم في هذه الدارِ أن يَتِمَّ توزيعُ الطعام بشكل مُتَساوٍ على كلِّ من المُسلِمِين والمسيحيّين. أما "مِهْرِمَاهُ" الابنة الحبيبة للسلطان سليمان، فقد بيّنتُ أنها كانت سببًا في تحقيق خير عظيم للبلاد والعباد، من خلال تكليفها المهندس المعماريَّ البارع "سِنَان" بإنشاء مَجْمَعَيْنِ عِلْمِيَّيْنِ كبيرين؛ أحدهما قربَ ساحلِ "أسكودار"، والآخر في "أدِرْنَه قَابِي (Edirnekapı)"، بالإضافة إلى تشييد المؤسسات الاجتماعية والدينية؛ مَرْضاةً لله على ولرسوله على ورغبة في نَيْل الشفاعة.

إن أعداء الدولة العثمانية من الكُتّاب الذين تحرّكُهم أصابعُ الغدرِ الخارجية الحاقدة لا يزالون يتطاولون على الدولة العَلِيَّة العثمانية عن طريق الهجوم على السلطان سليمان القانوني من خلال اخْتِلاقِ الأكاذيب حول زوجَتِه "السلطانة خُرَّم"، كما نراهم يبذلون قُصارى جهدِهم من أجل تشويهِ النواحي الإيجابية التي أَوْرَثَتُها الدولة العثمانية للأجيال المتعاقبة من بعدها.

لكن أطماعَ هؤلاء الكتاب لن تتحقق؛ لأن فهمَ وإدراكَ الشعبِ قد بلغ درجةً من الشمو والرُقيّ الأخلاقيّ تجعله لا ينخدعُ بمثل تلك الترّهات الفارغةِ والأباطيل المكذوبة.

إنني لأشعر بالفخر في المقام الأول بالصداقة التي كانت سببًا لما وجدتُه من مساعدات قيّمة أثناء إعداد هذا الكِتاب، وأتوجّه بالشكر والعرفان بالجميل إلى كل من السيد "محمد نِيَازِي (Niyazi)، والأستاذ المساعد الدكتور "علي كايا (Kaya)" وصديقي الشاب الدكتور "سليمان كراجليل (Karacelil)"؛ على ما أَشدَوْهُ إليَّ من عون ومساعدة.

جَانْ ٱلْبْجُونْج (Can Alpgüvenç)

إسطنبول/۲۸ آذار/مارس ۲۰۱۱م



"يا رياح الصّبا! احكِ لـــلطانى عن حالى البؤلم التعيس، قولى له: إن وردتك عندمســا يفتقدها وجريك يصبح حالها كالبلبل الذى يصرخ وبصبح!"

"السلطانة خُرَّم"



## السلطانة "خرم"

توشّح المساء بوِشاح الحمرةِ عند غروب الشمس، ضمن منظرِ خلابٍ أشبه ما يكون باللوحة الفنّيّة، حيث تبدو الشمسُ وكأنّها كرةٌ من اللهب تتنزّل إلى سفوح "جِيهَانْجِيرْ (Cihangir)" متناغمةٌ مع الغيومِ كأنّها تقودُهم من حولِها.

وأمـا تلال "جَمْلِجَـا (Çamlıca)" فهي تلوح في الأفـق بِقِمَمِها، فتبدو للناظرين كأكوام ذات خطوطٍ حمراء.

وقِطَــُعُ الغَيْــمِ تسبح في سماء إسطنبول، مُلْتَحِفة بقماشٍ مُغَرْبلٍ أرجوانيّ ثقيلٍ أما برج "جلطة (Galata)" الشامخ فقد تتوّجَ بالنيران.

"السلطانة خُرُم"، تشعرُ وكأنَّه قد شُبُّ في قلبها حريق.

إن مشاعرَ الجاريةِ الشابّةِ قد اشتعلت في جنبَاتِها، وهي مُحمَّلة بالحب الوحيد الذي في قلبها إلى السلطان سليمان القانوني.

وَجُنَتاها الورديتانِ تبدوانِ كزهرتَينِ تُضيئانِ مِن لَهِيبِ تحت حُمرةِ الشَّمس الغاربة... فهي ترتدي رِداءً بديعًا من الحرير المُخْمَلِ الذي ينساب على جسدِها الرقيقِ، وقد طُرّزتْ عليه الورودُ بخيوطٍ من ذهبِ.

...

تقدمت "السلطانة خُرَّم" برشاقتها المعهودة تمشي على البُسطِ الفارسية الفارهة، ثم جثت على ركبتيها أمام الطاولة المزيّنة بالأحجار

الكريمة والصُّدف الثمينةِ، ثم أمسكت بأصابعها الرقيقةِ قَلَمًا من البوصِ('' كانت قد تركته منذ قليل.

و أخذت "خُرَّم" تكتب بذلك القلم بعد أن غمسته في الحبر:
"سلطاني، يا حبيب روحي، إن وجهَك كوجه يوسف،
وكلماتك أحلى من العسل المصفى!

إنسَى أَتَضَرَّعَ إلَى الله ﷺ، وأبتهلُ إليه، وأرجوه أن يُريَني في أقرب وقتٍ وجهَك المبارك.

عجبًا! فلو صارت الأشجار أقلامًا، والبحار مدادًا، فهل ستكفي لتكتب وتعبّر عن لوعةِ هذا الفراق وألّمِ هذا البُغدِ؟! فمن أراد أن يعلم ما أكابله بِبُعلِك عنّي فليقرأ سورة يوسف، عندها سيدرك آلام الفراق..".

وفي السطر الأخير، بَكَتِ "السلطانة خُرُم" وذَرَفَتْ دمعتين رقيقتين قد سالَتَا من عينيها الزرقاوين النَّجُلاوين، ثم قامت في هُدوءٍ ورِقَّةٍ وطَوَت الخطاب، بعد أن كتبتْ جُملَتُها الأخيرة.

وفي تلك الأثناء كانت تحسّ أن صدرها يصعد ويهبط اشــتياقًا، وهي تشعرُ بخفقان قلبها، ولا تسمــُع إلا دقّاتِ قلبها المتسارعةِ من فَرْطِ وجدها وشوقها.

• • •

لقد كانت "السلطانة خُرَّم" محبوبة السلطان القانوني خلال فترة حكمه، تلك الفترة التي أُطلِق عليها في تاريخ الدولة العثمانية اسمُ "العصر

 <sup>(</sup>٤) الْبُوض :جمع مفرده بُوصة، وهو نبات من نباتات المستنقعات المُفتر، من الفصيلة النجيليّة، له سيقان مجوّنة وأوراق عريضة وعناقيد زهريّة دائمة مثل القصب وهو يستخدم كثيرًا كقلم كتابة. (المترجم)

الذهبي"، لقد كانت "السلطانة خُرَّم" تتميّزُ بالذكاء وتتمتع بشخصيةٍ غامضةٍ معقّدةٍ، فيُحكَى عنها أنها قد اشتركت وانخرطت في الأحداث السياسيّة والدمويّة التي وقعت في ذلك العصر...

إنها المرأة التي يُنسَب إليها فَرْض سَـطُوَتِها وهَيْمَتَتِها على النساء في بلاط القصر العثماني...

فقد كانت "السلطانة خُرُم" -بلا شك- أُولَى النساء التي جَسدت سيادة المرأة وسطوتها، سواء في قصور الشرق أو الغرب على حدِّ سواء.

هذا، وينبغي علينا إذا أردنا العلم والإحاطة بتفاصيل حياة السلطانة خرم أن نمتلك القدرة على التحليل الصحيح للأحداث التاريخيّة التي تنسب إليها المشاركة فيها، وأن نعلم أيضًا أنّ الفهم الدقيق والكامل لتصرفات هذه المرأة العظيمة إنما هو أمرٌ في غاية الصعوبة، بل يكاد يكون مستحيلًا.

ويُمكِن إرجاعُ السبب في هذا الأمر إلى أن المؤرخينَ العثمانيّينَ أنفسهم قد امتنعوا عن تسجيل الحقائق، كما أن بعض المؤرخين المعاصرين الأتراك تَعَمَّدوا -في سبيل إعلاء فكرة الجمهورية- تشوية سمعة كلِّ الشخصيِّات العثمانيَّة بكلِّ ما أُوتُوا من جهدٍ وقوَّة، دون تفريقٍ بين رجلٍ وامرأة، كذلك نجدُ أن مؤرّخي الجمهورية قد عملوا على الحَطِّ مِن قَدْرِ كلِّ القيمِ والمبادئ، وتحقيرِ كلَّ ما يرتبط بفترةِ الحكمِ العثمانيّ، حتى إنهم وصلوا إلى درجة التنافيسِ فيما بينهم؛ من أجل تحقيق هذه الأهداف الدنيئة.

أما إذا انتقلنا إلى المؤرخيس الغربيّيس، فنجد أن هؤلاء قد امتازوا عن أسلافهم في تناولِهم للأحداثِ والشخصيّاتِ التاريخيّةِ بالانحياز ٢٦ ----- [خُرْم وبهْرمَاه]

التامّ وعدم الموضوعيّة والتزييفِ، فصرفوا جُلَّ جَهْدِهِم في سبيل لَيِّ عُنْقِ الحقيقة، وتحريف الوقائع.

## البنت اللطيفة اسمها "خُرَّم"

وفقًا لإحدى الروايات، فقد كانت "السلطانة خُرَّم" ابنةً لِأَسْقُف كاثوليكي فقير يُدْعَى "مارسجلي"، وقد نشأتْ في منطقة "روجاتينو" "روهاتين (Rohatyn)" على ضفاف نهر "ليبا (Lipa)" في "جاليتشيا (Galiçya)".

وفي أثناء الهجمات التي قام بها تَتَارُ القِرم على امتداد نهر "دنيستر (Dinyester)" -والمناطق التي تقع ضمن حدود أوكرانيا حاليًا- تَمَّ أَسْرُ "خُرَّم"، وذلك في فترة حكم السلطان يووز سليم (٥٠)، وتمَّ إرسالُها إلى القصر في عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢م).

وقد اختلفت الآراء حول حقيقة أصل "خُرَّم"، فعلى الرغم من إشارة مجموعةٍ من الروايات من مصادر مختلفة إلى كونها ذات أصلٍ روسيٍّ أو بولنديِّ، إلا أن "دَانِشْمَنْد" يؤكد لنا أنها بولنديّة الأصل ('').

لقد كان سكّانُ منطقة "روجاتينو (Rogatino)" -التابعة لحكم دولة "لهستان" البولندية - غالبًا من ذوي الشعر الأحمر، وكانت بِنْيَة "السلطانة خُرّم" تشبههم.

ويذكر بعض المؤرخين أن "السلطانة خُرَّم" قد وُلِدَت سنة (١٥٠٤م) تقريبًا، وقد تم تقديمُها بوساطة "مقبول إبراهيم باشا" عند دخولها القصر العثماني، وعمرها وقتئذٍ يتراوحُ بين الرابعةَ عَشَرَ والسابعةَ عشَرَ عامًا(٧).

 <sup>(</sup>٥) "طَيِّب جُوكْبِيلْجِينْ (Tanyib Gökbilgin)"، "السلطانة خُرْم "، وزارة التربية والتعليم، الموسوعة الإسلامية، إسطنبول (١٩٦٢م)، الجزء الخامس، ص ٥٩٣.

 <sup>(</sup>١) إسماعيل حامي دانشمند (Danismend)، التسلسل الزمني المشروح للتاريخ العثماني، إسطنبول (١٩٦١م)، الجزء الثاني، ص ١٨٥٠.

<sup>(</sup>٧) " "جَغَطَايْ أُولُوجَايْ (Cogatoy Uluçay)"، نساه وينات السلاطين، أَنْفُرَة (١٩٨٠م)، ص ٣٤.

اسمها الحقيقي هو "ألكسننكرا (Alexandra Lisowska)" وتعرف في المصادر الغربية باسم "روزا (Rosanna)"، وكذلك "روسانا (Rosanna)"، ولكننا نجد في تلك المصادر الغربية أن اسم "روكسلان (Roxelane)" هو الكننا نجد في تلك المصادر الغربية أن اسم "روكسلان (تعاد تُعْرَف في المصادر العمادر الأسماء التي تُنْعَتُ بها، في حين نجد أنها لا تكاد تُعْرَف في المصادر العثمانية سوى باسم واحدٍ فقط، هو "السلطانة خَاصَكِي (Haseki)" (۱۰۰).

وخلال الفترة الأولى التي عاشتها في القصر سُمِّيت تلك الفتاة التي لا نجد معلومات دقيقة حول أُولَى أيامِها في القصر - باسم "خُرَّم (Hürremşah)"؛ وذلك لأنها كانت بشوشة الوجه ودائمة البهجة، وبعد عدة سنوات قَضَتْها "خُرَّم" في قصر القِرِم منشغِلة بالتدريب وتحصيل العلم، تم إرسالها كهديّة إلى القصر السلطاني من قِبل حاكم القِرم.

وعلى هذا النحو، لم تكن "خُرَّم" قد أتمَّتْ في القصر القديم، الذي جاءت منه، مرحلة التدريب والتعليم، وقتما تَمَّ تقديمُها إلى السلطان سليمان القانوني عام (١٥٢٠م) الذي لم يَمْضِ على اعتلائه العرشَ العثمانيّ أكثرَ من شهرين.

ويفهم من هذا أنها -حتى ذلك الوقت- كانت قليلة الخِبْرَةِ، ولم تكن على قَدْر من الوعي والثقافة اللذين يؤهِّلانِها لِأَنْ تكونَ زوجةً للسلطان (١٠٠٠).

<sup>(</sup>A) "روسا" تعني في اللغة الإيطالية الأحمر.

<sup>(4)</sup> لقد ذكر مثقفر وأدباء عصر النهضة أن اسم "ووكسلان (Razelane)" بناة على معناه يعتبر من أسساء النساء في روسيا، وربما قصدوا أيضًا بذلك التلميح إلى القبيلة التي يشير إليها هذا الاسم، تلك القبيلة التى عاشت في روسيا منذ القدم.

<sup>(</sup>١٠) - جاهد بَلْطَجِي (Baltace)، "السلطانة تُحرّم "، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول (١٩٩٨م)، الجزء الثامن عشر، ص ٤٩٨.

<sup>(</sup>١١) - "خُرُم" هو اسم فارسي معناه المرحة وفات الوجه الباسم.

<sup>(</sup>١٢) بِلْمَازْ أُوزْتُونَا (Yılmaz Öznuna)، تاريخ تركيا، الجزء السادس، ص ١٨٢.

## اللوحات المُجَسِّدة لصورة "خُرَّم"

تعتبر اللوحات التي رُسِمَتْ في ذلك الوقت للسلطانة "خُوَّم" دليلًا مهمًّا يوضّح لنا الهيئة والصورة التي كانت عليهما "السلطانة خُرُّم"، ولكن على سبيلِ التقريبِ لا المطابقة؛ إذ إنه وفقًا لتقاليدِ ذلك العصرِ، لم يكن من الممكن للسلطانة "خُرُّم" أن تقف أمام أحد الرسامين لتأخذ الوضع الذي سيرسمها عليه!

وبِناءً على هذا، فإن الصورَ المتاحةَ بين أيدينا اليوم، والتي تُنْسَب إلى "السلطانة خُرَّم" لا يمكن اعتبار أيّ منها صورًا حقيقية لها، وإنما هي صُوَر تقريبية لِما كانت عليه من هيئةٍ وشكل.

ولا يذكر لنا المؤرخون أن "خُرَّم" كانت تتمتّعُ بجمالِ بارع، لكنهم يذكرون لنا أنها كانت تتمتّعُ بجاذبيّةٍ ذات طابَع خاص؛ حيث أَحَبُها القانوني عندما رآها لأول وَهْلةٍ، وارتبط معها برباطِ الزوجية، في علاقة امتدَّتْ طوال سنوات حياته، مانِحًا إياها مكانة خاصة في قلبه (١٠٠٠).

وها هو الرحالة الإيطالي "بيترو براجادينو (Pietro Bragadino)" يصف لنا "خُرُّم" الروسية، التي شَعَرَ بالسعادة عند رؤيتها عام (١٥٢٦م)، قائلًا: "لست جميلةً، لكنها لطيفةً"(١٠).

## لم يكن السلطان القانوني مُولعًا بالنساء

باعتِلاء السلطان القانوني عَرْشَ الخلافةِ العثمانيَّةِ، بدأَتْ أكثرُ مراحل التاريخ العثمانيِّ عَظَمةً ورَوْعةً، فقد شاع نبأُ اعتلائه العرش في كلِّ أرجاء المعمورة، وعلمت به كلُّ المدن والدول الأوروبية.

 <sup>(</sup>١٣) طَلَفت خَصِرْجِي أُوغُلُو (Hassersoftle)، "السلطانة خُرْم" بين سيدات القصر العثماني اللاتي حكمن السلطنة، المجموعة التاريخية المصورة، إسطنبول (١٩٥٦م)، الجزء السابع، العدد، ٧٣، ص ١٧.

<sup>(</sup>١٤) ترجمت هذه العبارة عن الجملة التالية التي كتبت بالإيطالية: (Giovine non bella ma grasstada).



"السلطانة خُرّم" وزوجها سليمان القانوني



لقد كان سليمان القانوني الذي اعتلى العرش، وهو في السابعة والعشرين من عمره، يتمتَّعُ بهيبةٍ تُجبِر أيّ شخصٍ على توقيره بمجرّد أن يراه.

كان مستدير الوجه، ذا حاجبينِ مقوسين، وعَيْنينِ عَسَليَّتينِ، وشارِبينِ عَظِيمينِ؛ كان من طِرَازِ والِدِه عَظِيمينِ؛ كان من طِرَازِ والِدِه السلطان "ياووز (Yavuz)"؛ حيث كان ذا أنْ في معقوف (١٠٠ تُمَيِّز الرجال المُنْحَدرِينَ من نَسْل آل عثمان، وكانت أفعالُه توحي بالخصال التي ورثها من أجداده.

تميّـز القانونيّ -طـوال فترةِ حياته المزدهرةِ- بالاعتـدالِ وعدم المَيلِ إلى العصبيّـة والتأنّي في جميع الأمور، وقد كان لتلك الخصال دورٌ كبير في اتخاذه القرارات.

ويروي الكثير من المؤلفين عن السلطان سليمان أنه لم يكن يشرب الخمر رغبة منه لكيلا يكون لديه أيّ نوع من أنواع الهَـوَسِ أو التعلّق بالنساء أو ذهاب العقل، رغم عدم وجود ما يحول بينه وبين ذلك.

وكان من المعروف عن زوجته السلطانة "جُلْبَهَارْ (Gülbahar)" والدة ابنه الأكبر الأمير مصطفى، أنها كانت للقانوني بمثابة قُرَّة عينه ومحبوبته الأولى التي تعرَّف إليها أثناء فترة ولايته للعهد، ولكنه بعد أن تَعَرُّفَ إلى "خُرَم"، أصبحتُ هي المسيطرةُ على قلب القانوني، وملأت عليه كلُّ لحظات حياته.

وَلَعَلَّ بَقَاءَه مع المرأة نفسها لمدّة سبعة وثلاثين عامًا من حياته، لَهُوَ أَكبرُ دليل مُقْنِع على بُطلان الادِّعاءات التي أشاعت عنه أنه كان فاسقًا و زيرَ نساء.

<sup>(</sup>١٥) ۚ أَنْفُ مَعْفُوفٌ: أي مُعْزَجٌ مِنْ أَرْتَبَيَّهِ، ومكوَّرٌ من وسطه. (المترجم)

### السلطانة الوالدة

قام السلطان سليمان بعد اعتلائه العرش، بإحضار والدتِهِ السلطانة "حفصة (Hafsa)" إلى إسطنبول، "حفصة (Manisa)" إلى إسطنبول، بعد أن هَيَّأَ لها وضعًا يَلِيق بها وبمَكانتِها.

وبذلك يَتَسَنَّى لهذه السيدةِ -التي كانت تعيسةَ الحظِّ، وأقصاها السلطانُ "سليم" من الحريم لسنوات طويلة- أنْ تحيا أخيرًا بسلامٍ وطمأنينةٍ، وأن تنالَ مكانَتَها في بلاطِ القصرِ العثمانيّ.

وقد حصلت السلطانة حفصة على لقبِ "السلطانة الوالدة" -الذي أصبح يُطلَق عليها بعد تولِّي السلطان سليمان الحكم- وتمكنت من الوصول إلى النفوذ والقوَّة اللذينِ لم تستطع أن تنالَهما في عهدِ زوجها الراحل.

لقد أصبحت السلطانة حفصة الآن هي المُتحكِّمة في قصر السلطان الذي يهيمن على الدُّول ويحكم شتّى بقاع الأرض، فلقد أصبحت شؤونُ القصر تحت سيطرتها، والجواري رهنَ إشارتها، وصارت أخصَّ نساء السلطان القانونيِّ؛ أي: "جُلْبَهَارْ" و"خُرَّم" تبذُلان قصارى جهدهما لعَدَمِ إبداءِ ما قد يزعجُها أو يُكدِّر صفوَها؛ لِيَنالاً رِضا السلطانة الوالدة عنهما.

#### فرحتا السلطان

كان أوّلُ ما قام به السلطان القانوني بعد أن اعتلى العرش هو إخماد التمرُّد الله يَ تَزَعَّمَه والي الشام "جَنْبَرْدِي غَزَالي (Canberdi Gazalí)"، الذي انتهز فرصة انتقال مقاليد الحكم في السلطنة، وأعلنَ العصيانَ على السلطان سليمان.

كان الغزاليُّ يطمحُ إلى إعادةِ إحياءِ الإمبراطوريَّةِ المملوكيّةِ؛ معتقدًا أنه أمام حاكمٍ شابٍ جديدٍ بلا تجربةٍ، فأقام حِلفًا مع كلٍّ من إيران وفرسان رودس.

لكن "شَهْسُـووَارْ أُوغْلُو (Ṣehsuvaroğlu) علي بَـكْ" حاكم "دولقادر" والذي عيَّنَه السلطانُ الجديد تَمَكَّنَ مِن إلحاق الهزيمةِ بوالي الشام وضَرْبِ عُنُقِهِ في السادس من شباط/فبراير عام (١٥٢١م).

\* \* \*

وبينما كانت حرب القضاء على التمرّد في الشام مستمرّة، كان السلطان سليمان مشغولًا في إسطنبول بالإعدادِ لحملةٍ عسكريّةٍ جديدةٍ.

حيث إن سفير الدولة العثمانية "بَهْرَامْ جَاوُوشْ (Behram Çavuş)" كان قد اغتيلَ بأمر من "ليوش (Layoş)" الثاني ملك المَجَر بعد أن قام بتعذيبه، وكان هذا السفير قد تمّ إيفاده إلى المجرِ مِن قِبَلِ الدولة العثمانية من أجل تحصيلِ الجزيةِ، حامِلًا في الوقت نفسه الخبر السلطانيّ بجلوس السلطان الجديد على العرش، لقد اعتبر هذا العملُ الوحشيُّ خرقًا واضحًا للقانون الدولي، وبالتالي كان سببًا لوقوع الحرب.

فمثل ذلك العمل لم يكن مما يجوزُ أن يُرتَكَبَ في حقّ سلطانٍ يحكمُ العالمَ مثل سليمان القانوني، فضلًا عن التزامه في الوقت نفسِه بكلّ المعاهداتِ والقوانينِ والحقوقِ مع الدول والكيانات الأخرى.

كان ملك المجر قد أصابه الغرور، لا سيّما وأنه كان متزوجًا من أخت الإمبراطور "شارلكان (Ṣariken)" الألماني، وقد اعتمد في اقترافه هذا الفعل الشنيع على علاقة النسب التي تَرْبُطُهُ بذلك الإمبراطور؛ متوهّمًا أن هناك قوّةً ستقف وراءه وتحميه (٢٠).

<sup>(</sup>١٦) ضيا نور أُكْسُونُ (Aksun)، التاريخ العثماني، إسطنبول (١٩٩٤م)، المجلد الأول، ص ٢٣٩.

تحرّكَ الجيشُ العثمانيّ مُتَّجِهًا إلى المَجَرِ، قاطعًا شبهَ جزيرةِ البلقانِ، واستمر في الزحف حتى استطاع الوصولَ إلى مشارف نهر "سافا (Sava)" في وقت قصير جدًّا، وفي غضون تسعة أيام تمكَّن من الانتهاء من إنشاء جسرٍ كبيرٍ على ذلك النهر الذي يبلغ طوله ألفًا وثمانمائة ذراع، ثم استطاع بعد ذلك أن يعبُرَ النهر ويصل إلى منطقة "سيرم (Sirem)" التي تضمّ داخل حدودها "بلجراد (Belgrad)".

كانت (بلجراد) واقعة تحت الحصار منذ قرابة الشهر، من قبل الجيش الذي أرسله السلطان سليمان قبل ذلك تحت قيادة الوزير "بيري (Piri) باشا"، وبعد أن اشتد الحصار بدعم من القوّاتِ الإضافية ازدادت الهجمات على المدينة.

وفي نهاية الأمر، سقطت مدينة "بلجراد" في يد العثمانيين يوم الثامن من آب/أغسطس من عام (١٥٢١م)(١٠٠٠.

أراد السلطان سليمان إعادة إعمار المدينة المدمّرة، فأمر بإنفاق عشرين ألف قطعة من الذهب من أجل تحقيق هذا الهدف، ثم بعد ذلك القرار -الذي يدلُّ على تحضُّر وحكمة العثمانيين- أخذت المدينة في التطوُّر والازدهار؛ حتى أصبحت مدينة تجارية كبيرةً.

أما أوروبًا فقد تلقت خبر فتح "بلجراد" بحزن عميق، في الوقت الذي أُضِيفَت إلى هذا النصر الكبير فرحةٌ ثانيةٌ أثلجت قلبَ السلطان القانوني، وذلك عندما أنجبَتْ له زوجتُه الحبيبةُ "خُرَّم" الأميرَ محمدًا، الذي عمّت البهجةُ الدنيا بقدومه.

<sup>(</sup>١٧) - أَكْسُونْ، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٤١.

وبهذا القدوم السعيد للمولود الجديد استطاعت "خُرُم"، وهي لا تزالُ جاريةً شابّةً ذات السبعة عشر ربيعًا، أن تنالَ وتفوز بلقب "خَاصَكِي"(١٨)، وتمكّنتُ في الوقت نفسه من أن تجعلَ الشابُ الحاذق ذا الثمانية والعشرينَ عامًا يعيش فرحتين.

## "لا أُنكِرُ شعوري بالأسف لما أصاب هذا الكافر"

قضى السلطان القانوني موسم الشتاء من عام (١٥٢١م) في إعداد أسطول بحري جديد؛ لقد كان يرغب في الاستيلاء على قلعة "رودس" التي كانت بيد فرسان "سانت جين (Saint Jean)"، لا سيّما أنّ هؤلاء الفرسان كانوا قد دأبوا على القيام بأعمال السلب والنهب تحت دعوى خدمة المسيحيَّة، وكان هؤلاء الفرسان يجنونَ ربحَهُم عن طريق نهْب شُفُنِ المسلمين وبَيع كلِّ مَنْ كانوا يجدونهُ بها كأشرى وعبيد.

كانت "رودس" تتمتّعُ بالتماسُكِ الداخليّ في ذلك الحين، وكان يُعَدُّ ضربًا من المستحيل الاستيلاءُ عليها؛ فقد قام الفرسان باتخاذِ كافّةِ التدابير اللازمة لتحصينِ القلعةِ ومنعِ الجيشِ العثمانيّ من دخولها، وسدُّوا مدخلَ الميناء في وجه سفنِ البحريّةِ التركيّةِ بسلسلةٍ معدنيّةٍ طويلةٍ؛ كتلك التي كانت موجودة عند مدخل ميناء بيزنطة.

لكن بفضل ما تمتّع به الجيشُ العثمانيّ من تقنيّاتٍ حربيّةٍ متطوّرةٍ إلى جانب قوّةٍ النيران التي كان يقذفها بِحرَفِيّةٍ ودقّةٍ، فقد استطاع أن يحسمَ هذه الحرب بشكلٍ سريع لصالحه، ورغم الخسائر الكبيرة فقد تمكّنَ العثمانيُّون من القضاء على قوَّات فرسان "سانت جين" في الثلاثين من

<sup>(</sup>١٨) خاضكية: إنه أطلق على الجواري اللاتي وجدن القبول من السلطان واحتظين بحظوته. (سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات المثمانية التاريخية، الرياض-٠٠٠ م، ص ٩٥. (المترجم)

تشرين الثاني/نوفمبر من عام (١٥٢٢م)، حيث وافق قائدُ قلعةِ "رودس" على تسليمِها بعد أن أدرك أنه لا فائدةَ من المقاومة؛ شريطةَ أن يخرج سالِمًا بسفنه وأن يأخذ معه كلَّ ما يمكن حمله.

وقد فرح السيد الأعظم "فيليرس د. إيسلي (Viliers de l'Isle)" فرَحًا شديدًا لدرجة أنه قَبُل يد السلطان سليمان مُعرِبًا عن شكرِه وتقديرِه لِقَبُولِهِ بشروط التسليم التي عرضوها عليه، وأخذ في الاستماع إلى كلمات الشفقة من السلطان سليمان، حيث تحدَّث إلى المسؤول عن جناحه الخاص، الذي كان يقف إلى جواره في تلك الأثناء قائلًا:

"لا أُنكِرُ شعوري بالأسف؛ إذ أُخرِج هذا الرجل في مثل هذه السن من دياره".

وبالطبع، فإن مثل هذه الكلمات لا تشير سوى إلى رجاحة عقلِ القانوني، وكيف كان إنسانًا مُرْهَف المشاعر رقيقَ الإحساس(١٠١٠.

لقد أحدثَ سـقوطُ رودس أثرًا كبيرًا وصَدًى واسعًا في أوروبًا، وكان هذا السقوط إيذانًا ببدايةِ صفحةٍ جديدةٍ من الصراع بين الشرق والغرب.

## مِنْ مسؤول الجناح الخاصِّ إلى منصب الصدر الأعظم

كانت هناك مفاجأة جديدة بانتظار السلطان أثناء عودته إلى إسطنبول عابرًا بحر "مرمرة (Marmara)"، فقد أنجبتْ له حبيبتُه وأم ابنه "خُرَّم" مولودة جديدة هذه المَرَّة (٢٠٠٠).

كذلك فقد شهد القصر السلطاني في السابع والعشرين من حزيران/ يونيو من عام (١٥٢٣م) حدثًا آخَرَ غير مُتَوَقِّعٍ، فبعد أن خدمَ "بيري باشا"

<sup>(</sup>١٩) أُكْتُونْ، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٤٥.

<sup>(</sup>٢٠) "السلطانة مِهْرِمَاة" هي الابنة الوحيدة للسلطان "القانوني" و"السلطانة خُرَّم"، يعتقد أنها قد ولدت عام (١٥٢٢م)،

بنجاح لمدة خمس سنوات وتسعة أشهر وأربعة عشر يومًا في منصب الصدر الأعظم فقد تمَّ عَزْلُه، وخُصِّصت له مكافأة تبلغ ماثتي ألف عملة عثمانيّة، وعُيِّن مكانه "إبراهيم أغا"(٢٠) مسؤول الجناح السلطاني الخاصِّ (الذي سيصبح فيما بعد إبراهيم باشا)، وذلك بعد أن حازَ ثقة السلطان التي كانت تزداد به يومًا بعد يوم أثناء حملتي "رودس" و"بلجراد" اللتين سبق أن اشترك فيهما(٢٠).

كان تعيين الشاب المسؤول عن الجناح الخاص والبالغ من العمر ثمانية وعشرين سنة في منصب الصدر الأعظم (١٠٠ متجاوِزًا كُلَّ الوزراء الآخريين حَدَثًا غيرَ عادي، ومُخالِفًا للتقاليد؛ حيث لم يُقابَلُ هذا التعيين بترحيب كبير في أوساط القصر، لكن هذا التعيين يدل بوضوح إلى مدى قدرة السلطان على اختيار الرجل المناسب ذي الكفاءة العالية، ووضعِه

<sup>(</sup>٢١) - "براهيم باشا" (١٤٩٥ - ١٤٩٥م)، كان والله صبادًا إيطائيًا من مدينة (جنوة)، حيث ولد "إبراهيم باشا" في منطقة (بارجا) المواجهة لجزيرة (كورفو)، وقد أُجِدَّ أُسيرًا في إحدى هجمات القراصة الأتراك، وتم بيعه لامرأة غنية في (مانيسا)، وقد قامت هذه السيدة بتربية ذلك الطفل الذكي الموهوب؛ حيث أهطته اسم "إبراهيم" الشائع في الثقافة الثركية، ويفضل ذكاته واجتهاده فقد أثقن "إبراهيم" اللغات الكروانية والإيطالية واليونانية إلى جانب تعلمه في البداية اللغات التركية والمربية والفارسية، وكما يروي "هامر" هنه، فقد كان "إبراهيم باشا" يهوى بشغف الأعمال المتعلقة بالناريخ والجغرافيا؛ حتى إنه كثيرًا ما كان يطالع تاريخ الحروب التي خاصها القائدان "الإسكندر" و"هنيال"، وذات يوم وبينما كان ولي المهد "سليمان" - الذي كان في الوقت نفسه حاكم صاروخان (مانيسا الآن)- يتجول في المدينة فإذا به يسمع صوت عزف بديع على الكمان، كان "القانوني" مولقا بالموسيقى، فأراد أن يتعرف على الشخص الذي كان يعزف، واستطاع "إبراهيم" أن يترك أثرًا لدى ولي المهد بعد أن تم المسلدة التي المسلدة التي كانت تجمع "إبراهيم" وولي المهد "سليمان" الذي سيصبح بعد فترة على رأس تعيش في (مانيسا) الملاقة الوطيدة التي كانت تجمع "إبراهيم" وولي المهد "سليمان" الذي سيصبح بعد فترة على رأس المدولة العلية فقد قامت بغتي "إبراهيم" - الذي رائع كابنها- من غلّي العبودية ليصبح حرًا، وكان من ضمن القرارات التي النخذها ولي المهد "سليمان" الذي كان يعتبر من أقرب المؤسسات إلى حاكم البلاد.

 <sup>(</sup>٢٢) "دنيز أوزر (Denix Ozer)"، (الصدر الأعظم الذي غضبت عليه السلطانة "خُرّم")، مجلة العالم التركي التاريخية، إسطنبول (١٩٨٨م)، العدد رقم ٢٤، ص ٢٩.

<sup>(</sup>٢٣) على امتداد تاريخ الدولة العثمانية كان "إبراهيم باشا" هو أصغر الشخصيات سِنًا التي تولُثُ منصب الصدر العظم باستثناء "كوبورلو زاده (Xöprülæde) فاضل أحمد باشا".

في المكان المناسب والمناصب الحساسة وفقًا لقدراته<sup>(٢١)</sup>.

والحقيقة أن إبراهيم باشا كان على الدوام عند حسنِ ظنِّ السلطان، ولم يكن يخذله إلا نادرًا.

### مجمع السلطانة الوالدة حفصة

لقد بدأت السلطانة الوالدة "حفصة" التي كانت مشهورة بحُتِها للأعمال الخيرية، في عام (١٥١٥م) بإنشاء مُجَمَّع (٢٠ كبير في مدينة مانيسا (Manisa)" التي كانت تقيم بها، في الوقت الذي كان ابنها الأمير سليمان يشغل منصب حاكم ولاية" صاروخان"، وقد كان ذلك المُجَمَّعُ الكبيرُ يضم مدرسة ودارًا لتحفيظ القرآن للصبيان ومسكنًا وتكيةً للصوفية ومشفى وحمامًا.

وفي أواخر سنة (١٥٢٣م) بعد عمل استغرق عَشْرَ سنوات، تَمُّ الانتهاءُ مَن بناء جزءٍ كبيرٍ من هذا الصرْحِ الشامخِ المعروفِ باسم "مُجَمَّعِ السلطانيّة" بما في ذلك الجامع والأبنية المُلحَقة به، ولم يكن ينقُصُهُ سوى المشفى والحمام. (١٠)

وممّا أدخلَ السرورَ إلى قلب السلطان الشابِّ أن "مجمع السلطانية" التي كانـت أمه شـغوفةً به جـدًّا قد اكتمل بنـاؤُه بعد ولادَةِ ابنتـه الوحيدةِ مِهْرمَاهُ سلطان"...

<sup>(</sup>١٤) حتى زمن "القانوني" لم يظهر على الساحة غيير في مجال السياسة الخارجية مثل "إبراهيم باشا". فقد استطاع في مدة وجيزة للغاية أن يحل المشاكل التي كانت موجودة في ولاية كبيرة وحديثة المهد من ناحية اوتباطها بالدولة النشائية كولاية مصر، ومن خلال الإصلاحات التي قام بها استطاع أن يرتقي بمستوى المميشة في تلك الولاية. ومكذا تمكن من خلال إنجازاته في مصر أن يظهر براعته في ميدان السياسة المخارجية إلى جانب تمتمه بكفاءة عالية في الجوانب الإدارية.

 <sup>(</sup>٢٥) مجموعة من الأبنية تحتوي في داخلها على مسجد ومدرسة ومكتبة وحمام ومشفى وسوق وتكية وزاوية لأجل
 تحقيق أهداك اجتماعية.

 <sup>(</sup>٢٦) بعد وفاة السلطانة الوائدة "حفصة" قام ابنها السلطان "القانوني" هام ١٥٣١م بإضافة حمام ومشفى إلى المجمع الخيري الذي ينسب إليها.

٣٨ ------- [خُوم ومِهْرِ مَاهُ]

وفي نهاية هذا العام أنجبت "السلطانة خُرَّم" أيضًا للسلطان ابنَه الذكر الثاني الأميرَ عبد الله.

### زفاف ليس له مثيل!

بعد أَحَدَ عَشَرَ شَهِرًا من تولّي إبراهيم باشا مَنْصبَ الصدرِ الأعظمِ، عقد قِرانَه على أخت السلطان سليمان، التي هي في الوقت نفسه إحدى بنات السلطان "ياووز سليم الأول وبمناسبة الزفافِ أُجرِيَت احتفالاتٌ عظيمةٌ (٢٧) في ساحة "آت (٩٤)" ("ميدان سلطان أحمد" حاليًا)، الذي عُرِفَ فيما بعد بـ"قصر إبراهيم باشا".

وبهذا الزفاف الرائع عظُمَتْ مكانة وسلطة إبراهيم باشا إلى حدِّ كبيرٍ، فمع أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره إلا أنه وضمن فترة وجيزة -من خلال ذكائه المتوقد، ووفرة حيلته، وكثرة دهائه، ونضوج خبرته استطاع أن يُحيط ويُمسكَ بمفاصل الدولة، وأن يُظهرَ لِمَنْ حوله مدى تفوُّق إدارته الداخليّة، وعظمة حُنْكَتِه على صعيد السياسة الخارجيّة، ولقد ظهر هذا للعلنِ عندما نجح في تجاوز الأحداث التي حصلت في مصر -وكانت مصر قد انضمّت حديثًا كولاية جديدة من ولايات الدولة العثمانية واستطاع أن يُحمّن الظروف المعيشية للشعب هناك، وظهرت حُنْكَتُهُ أيضًا حينما استطاع أن يُخمد التمرّد الذي قام به العلويّون في الأناضول (٢٠٠٠).

<sup>\* \* \*</sup> 

<sup>(</sup>٧٧) استمر هذا العرس التاريخي من الثاني والعشرين من أيار أمايو إلى الخامس من حزيران أبونيو (١٥٦٤ م)، لقد كان زفافًا عظيمًا يذكرنا بحكايات ألف ليلة وليلة. حيث نُصب عرش السلطان داخل قسطاط عظيم، تم إعداده من أجل المريضات القانوني" في ميدان "آت". كما تم تجهيز التمريضات والأرائك والمجالس من أجل الوزراء والأمراه وسائر رجال الدولة. وقد اتبعه الوزير الثاني إياس باشا الذي تولى مهمة أن يكون وكيل العربس مع رئيس الإنكشارية إلى السلطان، حيث وجهوا له الدعوة رسميًا لحضور الزفاف، وقبل "القانوني" الدعوة بعد أن مدح كثيرًا الوزير الأعظم الشاب. ويعتبر استمرار حفلات الزفاف الخاصة بالقصر المثماني القديم لعدة أيام وليالٍ، من أهم السمات التي تلفت النظر في هذه الاحتفالات من ناحية المراسم والتقاليد، (كانشتند، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ١٠٠).

<sup>(</sup>٢٨) | إسماعيل حقى أُوزُونَ جَازشِيلِي (*Ūzunçarşıi)*؛ التاريخ العثماني، أنقرة (١٩٧٥م)، المجلد الثاني، ص ٣٥٦.

[السُّلطانة "خُوم"] — — والسُّلطانة "خُوم"]

أثناء العرس اقترب السلطانُ سليمانُ من العريسِ إبراهيمَ باشا، وتوجَّهَ إليه بالحديث قائلًا:

- "قل لي: أيُّهما الأروعُ حفل زفافك أم حفل ختان أولادي؟".

أجاب إبراهيم باشا بلا أي تردُّد:

- "لم يكن، ولن يكون هناك أيُّ حفلٍ في روعةِ أو جمالِ حفلِ زفافي!"

أَحَسُّ القانونيُّ بالضيق عند سماعه هذا الجواب غير المتوقَّع، واجتهد لكي يُخفِي غَضَبَه سائلًا:

- "لماذا" ؟

فأجابَه إبرهيم باشا بكلُّ هدوءٍ:

- "إن ذلك الحفل لم يكن في روعة حفل زفافي؛ لأن في حفل عُرْسِي يوجد السلطانُ سليمانُ: سلطانُ البَرُّينِ والبَحْرَينِ وخادمُ الحَرَمينِ الشريفين، لقد نال زفافي شرف حضور جلالتكم!".

ارتاح السلطانُ كثيرًا عند سماعه لهذا الجواب العاقل وعلَّقَ قائلًا:

- "إنني أُهَنِّنُكَ أَلْفَ مَرَّةٍ، لقد أَبْهَرْتَنِي"(٢٩)

أثناء احتفالات الزفاف جرى هناك حدث آخر هام ومؤثّر، فقد وُلِدَ الأميرُ "سليم" الذي سيجلسُ على العرشِ بعد والده السلطان سليمان؛ ليحتلَّ بذلك الرقم الحادي عشر ضمنَ تسلسلِ حكامِ وسلاطين الدولة العثمانية.

<sup>(</sup>٢٩) محمد مُمَدَّمِي شُلَبِي (Hemdemi Celebi)، تاريخ صُولَاكُ زَادَه (Salakzāde)، أَتَقَرَة (١٩٨٩م)، المجلد الثاني، ص ٤٧٧.

ففي الثامن والعشرين من أيار/مايو من عام (١٥٢٤م) وُلِدَ الأمير سليم ليكون الابنَ الثالثَ للسلطان سليمان من "السلطانة خُرُم"، الذي بمولده ارتفعت مكانة "خُرُم" لدى السلطان القانوني، بينما أخذت مكانة السلطانة "جلبهار" -أم الأمير مصطفى ولي العهد- تتلاشى شيئًا فشيئًا.

ويعتبــرُ قدومُ هذا المولود هو البداية الحقيقيّةُ للعداوةِ والمنافسـةِ بين كلِّ من "خُرُم" و"جلبهار".

# إلهى لا تخذل أُمَّةُ محمد المسلمة!

بدأ الإعداد لحملة عسكرية كانت موجّهة ضد دولة المَجَرِ بناءً على عدّة تطوّرات شهدتها المنطقة، كانت من هذه التطوّرات الأعمال العدائية التي قامت بها دولة المجر تجاه السفن العثمانيّة، بالإضافة إلى قيام المجر بعقد حلف عسكريٍ مع "بوغدان"، هذا إلى جانب ظهور علاماتٍ على نشوء إمبراطوريّة أوروبيّة جديدة تحت قيادة "شارلس كنت (Charles Quint)"، لا سيما بعد المُعاهَدة التي تم إبرامها مع الصفويين.

ففي الثالث والعشرين من نيسان/إبريل من عام (١٥٢٦م) وبعد أن قام السلطان بزيارة ضريحي كلٍّ من "أبي أيوب الأنصاري: خالد بن زيد الله السلطان بزيارة خرج على رأس حملة عسكريّة إلى المَجَر مع جيش قوامُه مائة ألفِ جنديّ مدجّجين بالسلاح ومعهم ثلاثمائة مدفع.

تمكن السلطان سليمان من الوصول إلى "بلجراد" مع جيش تميّز بالدقّة والانضباط بعد أن اجتاز "أدرنه" و"صوفيا"، وفي الوقت نفسه فقد تمكّنَ الأسطولُ العثمانيّ المكوّن من ثمانمائة سفينة صغيرة من الوصول إلى المدينة عن طريق نهر الدانوب، وفي أواخر آب/أغسطس وصلت القواتُ العثمانيّةُ إلى سهل "مُوهَاجْ (Mohaç)" ولكن العدو لم يكن هناك.

خرج السلطان من مركز قيادته واصطحب معه إبراهيم باشا وباقي القوّاد والأمراء، وأخذ يتجوّل بين الأفواج العسكريّة مُلقِيًا كلماتٍ مشجّعةٍ يُلهب بها حماسة جنوده، وكما ينقل لنا المؤرخ "بَجَوِي":

"كان السلطان الغازي على رأس المجاهدين، يرفسع يديه المباركتين عند كلِّ عَلَم وراية، دائم الدعاء والمناجاة بعيون دامعة وهو يقول:

يا إلهي، إن القوة والقدرة لك، والرعاية واللطف منك! فلا
 تخذُلُ يا ربنا ضعفاء أمة محمد، وانصرنا على القوم الكافرين". (٣٠)

وفي النهاية، دخل جيش الصليبيّين وعلى رأسه "لايوش الثاني" إلى سهل "مُوهَاجُ"، وبعد ذلك أخذت الفِرَقُ العسكرية الكرواتية والسلوفانية والسلوفاكية والتشيكية والألمانية والبولندية في التقدم هي الأخرى.

كان فرسانُ الجيش المَجَرِيِّ (٣) هم أكثرُ وحداتِ الجيشِ قوّةُ وبأسًا، وكان هؤلاء الفرسان قد استطاعوا أن يكتسبوا خبرةٌ في قتال العثمانيين لكثرةِ المواجهات التي كانت دائرةٌ بينهم لسنواتٍ طويلةٍ، بحيث كانت كلُّ وحدةٍ من هؤلاء الفرسان تُقاتل في الغالب كأنها آلةُ حرب ملتهبّة.

وقبيل العصر، شرع الجيش المجريَّ في الهجوم بعد أن كان قد نفد صبره، وبعد اشتباكاتٍ عنيفةٍ بين الطرفين بدأت وحَدَاتُ العثمانيّين الذين يتمرْكَزونَ في قلبِ الجيش في الانسحاب بِناءً على خُطَّةٍ موضوعة، وفرح الفرسان المجريُّون وبدؤُوا يُلاحقون جنودَ الجيش العثمانيّ دون أن يُدركوا الفخَ الذي كان بانتظارهم، وخلال فترةٍ وجيزةٍ وجد الجيش

<sup>(</sup>٣٠) أَكْتُونُ، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٥٨.

<sup>(</sup>٣١) يروى أن جيش المجر كان قوامه مائة وخمسين ألف شخص ومجهز بحوالى مائة مدفع.

المجريّ نفسه بكامل وحداتِهِ مُحاصَـرًا من قِبَل قوّات العثمانيين؛ بعد أن تصدّع من كثرةِ الحِمَم والنيرانِ التي كان يقذفها الجيش العثمانيّ. (٢٦)

كان هناك قرابة ثلاثمائة مدفع تَصُبُ نِيرانَها في وقت واحد دون توقَّفِ، ساحِقة أَمَامَها الفِرَقَ المَجَريَة المُدَرَّعة، ومن ناحية أخرى فقد غادَر السلطانُ الهَضبة التي يوجد بها مركز قيادته مُتَقَدِّمًا بنفسِهِ صَوبَ الخطوط الأمامية، وقد تَمَكَنَ الفرسانُ التيماريون (٣٠) بعد مدَّة قصيرة من تضييقِ الخِنَاقِ حول الجيش المسيحي، ولم يترك للمجريِّين سوى مَخْرَج واحدٍ للهربِ من جهةٍ مستنقع "كاراسو (Karasu)".

لقي عشرات الآلاف من جنود الأعداء مَصْرَعهم في ذلك المستنقع بعد أن وصلوا إلى حالة من الإعياء والضعفِ الشديدينِ، فمنهم من قُتِلَ بالسيف، ومنهم من قُتِلَ بنيرانِ المدافعِ أو البنادق، في حين سقطَ الآلافُ أيضًا منهم أَشرى.

لم يستطع أحدٌ من الأعداءِ أن ينجوَ بنفسه في هذه المعركة، أما الملك "ليوش" الثاني، فقد لقي حَثْفَهُ غريقًا في المستنقع وقد رافقه في رحلةِ الموتِ هذه جميعُ قوَّادِ جيشه وسبعةٌ من الأساقفة.

<sup>(</sup>٣٣) أَقْسَمَ خمسةٌ وثلاثون فارسًا مَجَرِيًّا منذ ثمانية وثلاثين يومًا قبل ذلك الوقت في (بودابست) آمام ملكهم على أن يُضَخُوا بأرواحهم في سبيل قتل "السلطان سليمان"، اشتد وَطِيش المعركة، وانخرَطُ جنودُ الإنكشارية في قتال شديد، ولم يَبْقُ حول السلطان سوى وَحَدَةٍ عسكرية صغيرة، وأخذ الفرسان الخمسة والثلاثون في الاقتراب من السلطان مُستَفِلِينَ تلك الفرصة، فتقدموا نحو السلطان وهم يقاتلون بشجاعة وبأس شديدين، ولقي اثنان وثلاثون فارسًا من هؤلاء الفرسان نضرَعهم في سبيل ملكهم، ولكن دون أن يتمكنوا من بلوغ موضع السلطان، وتبقى من هؤلاء الفرسان "مرجزالي" واثنان من الفرسان نجحوا في الوصول إلى السلطان، وعندما رأى السلطان انشغال الضباط المكلفين بحمايته والدفاع عنه بالحرب، وأنه قد أصبح وحيدًا، استُل سَيقه الطويل ذا المقبض الماسي، فأخذ الفرسان المجربون الثلاثة في إطلاق السهام نحو السلطان، لكن عِدَّة سِهَام لم تنجح في أن تَعَش جسله وإن كانت اخترقت بزعه فحشب، وسرعان ما أخذ "القانوني" في مبارزة الفرسان، حتى تمكن من أن يحصد أرواحهم جميعا، الواحد تلو الآخر. (بِلْمَاؤُ

 <sup>(</sup>٣٣) الفرسان التيماريون: اصطلاح عثماني يطلق على الفرسان المدريين من ذوي الكفائة العالية، ويعبر عنه في
 عصرنا مثلا "القوات الخاصة" أو "الحرس الجمهوري" أو "قوات الصاعقة". (المترجم).

وبهذا النصر، استطاع السلطانُ سـليمان تدميرَ الإمبراطوريّةِ المَجَرِيّةِ بضربةٍ واحدةٍ، بعد أن دامت قرابة ستِّ مائةٍ وسبعةٍ وثلاثين عامًا.

في اليوم التالي، نظَّم السلطانُ احتفالًا كبيرًا في سهل "مُوهَاجْ"؛ حيث كانت المراسم الفخمةُ لتلك الاحتفاليّةِ بمثابة تجسيدٍ لعاداتٍ وتقاليدَ عاشت مدّة ألفِ عامٍ مع الأتراك، أما السلطان سليمان فقد تقبُّلُ التهانيَ من جيشه، وسمح لجنوده وقوادِ الأفواجِ والألْوِيةِ -وعلى رأسهم إبراهيم باشا- أن يُقبَلُوا يَدَيهِ.

. . .

وبحلول اليوم الثامن، بدأ الجيش العثماني، وعلى رأسه السلطانُ فاتِحُ المَجَرِ، في التحرُّكُ من "مُوهَاجْ" إلى أن دخل "بودين"، وبذلك تصير خزينةُ مملكة المَجَرِ -التي دامت ستَّ مائة وسبعةً وثلاثين عامًا- تحت إمرةِ السلطان سليمان القانونيّ.

# كَلَامُكَ حُلْوٌ ووجهُكَ وَجْه يوسف

في تلك الأيام المليشة بالإثارة ورائحة الدم والمسوت والبارود، التي يعيشها السلطان، وصلت إليه من "السلطانة خُرَّم" رسالة تُحرَك القلبَ وتَمَسُّ الرُّوحَ.

بـدأت "خُـرَّم" خِطابَهـا بكلمـات مثـل: "الحبيب ذو الوجـه الورديّ" و"سلطاني حبيب روحي"، واستمرت في رسالتها كاتبة له:

"يا مَنْ يُداوي قلبي الحَزِينَ، يا مَرْهَمَ فـؤادي الجريحِ، إن عِشْـقَك هو سـلطانُ عَرْشِ قلبي، لو كنتُ أملك سعادةَ العالم كلِّه فأنا في النهاية جاريةً لديك... أتضرّع بقلبٍ قد احترق مائةً ألفٍ مرّةٍ:

سلطاني، يا جنةً فردوسي!

إن الدنيا الغَدَّارةَ تُولمني بظُلْمِها، وتطعنُني في جَنَبَاتِي بخَنَاجِر الفِرَاق، إنها لا ترى دمعاتى المسكينة.

إذا ما فَقَدْتُكَ يا مَنْبَعَ جَنَّتي الأبديّة، فستنقلِبُ سعادتي إلى شقاء، وسينقلب عالمي إلى تعاسة محقَّقة، لقد احترق الإنس والجن من هَوْلِ أَلَمِي وصِيَاحي يومًا بعد يوم...

"يا سلطاني الرائع اللطيف...

يا من أرى فيه جمال يوسف، وأتذوق بكلماته حلاوة العسل المُصَفّى، إنني أبتهل إلى الله وأدعوه كي يُنيرَ وجهي برؤية طَلَّة وَجُهك المباركة ا

يا تُرى.. لو كانت البحار مدادًا لكلماتي، والأشـجار أقلامي، فهل سيكفي هذا للتعبير عن آلامي ببعدك عني وفراقِك لي؟!..

من يُريد أن يفهم ألم الفِراق فليقرأ سورة يوسف، ليُدرِك آلام المشتاق وهمومه...

سلطاني، يا نُورَ عيني! عندما لا أجدك بجانبي أخشى أن تحترق الدنيا بأسرها من نار آهاتي... وفي الفجر عندما يغيب عني وجهُك الوردئ أخشى أن ينفرط عِقْدُ الأكوانِ من بُكائى وأنيني.

إن حنيني إليك يا بدر الاشتياق يُشْعِرُنِي بالنهار وكأنه ليلً حالك السواد، بل إن الدنيا كلها تسوّد أمامي عند فراقك.

فراقُك يامليكي قد كواني وبعدُك قد سبى منّي جناني في من بعسادِك ثُمّ آه من الأشواقِ ياملك الزمانِ

يا لَهَوْل هذا الاشتياق، آهِ من الاشتياق، آهِ من الاشتياق (٢٠٠ آه يا سلطاني... لا يوجد حدَّ لأَلَمِ الحَنِين، فإذا أردتم تخفيفَ هذا الألم عني، فلا تتأخروا في إرسال خطابكم الغالي؛ عسى أن تَجِدَ رُوحِي فيه السَّلْوَى والراحة!

الفقيرة الذليلة، جاريتكم "خُرُّم". (٥٠٠)

. . .

إن "خُرَّم" في رسالتها تلك تُشِيرُ إلى الفراق الأليم الذي حلِّ بها.

لقد كانت "خُرَّم" تسعى إلى أن تأخذ السلطان من العالم الذي كان يعيش فيه -الذي لم يكن به سوى صهيلِ الخيولِ، ووقعِ السيوفِ، وقرعِ الطبولِ- إلى عالم آخَرَ، هو عالمُ العِشْق والفنِّ والشِّعْر، وكانت تقصد بهذه العباراتِ الغزليَّةِ اللطيفة أن ترقِّق قلبه العسكري المتين.

وفي نهاية الرسالة، نراها تتحدّث إلى السلطان عن أبنائها محمد وعبد الله (٣٠ وسليم ومِهْرِمَاهُ، وتضيف إليه كذلك سَلامَ نَجْلِهِ الأمير مصطفى.

وعلى الرغم من أن "خُرَّم" قد نقلت إلى السلطان حتى سلام جاريته "جُولْفَمْ (Gülfem)" إلا أنسا لا نجد ذِكْرًا على الإطلاق لوالدة الأمير مصطفى السلطانة "جولبهار (Gülbahar)" (ت: ١٥٨٠م)(٢٠٠٠، التي كانت في ذلك الوقت تعيش معها في القصر السلطاني، ولعله من الجدير بالذكر

إن حنيتي يا بدر الاشتياق يأتي كالليل الذي يطرق الأبواب باله من مصيبة هذا الاشتياق، أه من الاشتياق، وله من الاشتياق

 <sup>(</sup>٣٤) أصل هذا البيت لم يتم العثور عليه، ولكنني على قناعة من أن المعنى الذي يمكن فهمه عند قراءة الشطر الأول،
 وارتباط كلمة الاشتياق بالشطر الثانى تفهم على هذا النحو :

<sup>(</sup>٣٥) - جَاغَاتَايِّي أُولُوجَايِ (*Cagatay Uluçay)*، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول (٢٠٠١م)، ص ٤٠-٦٢. (٣٦) - لقد توفي "الأمير عبد الله" بعد فترة وجيزة.

<sup>(</sup>٣٧) جُوكِيلْجِينَ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٩٩٥.

الإشارةُ هنا إلى أن هذا يُعَدُّ دليلًا ملموسًا على مشاعرِ الغيرةِ ونيرانِها، التي كانت تضطرمُ بين السلطانتين في تلك المرحلة.

. . .

لقد أثار السلطان صانعُ نصر "موهاج"، وفاتحُ قلاع المَجَرِ ومدينة "بودين" العظيمة مَشَاعِرَ والدَتِهِ السلطانة "حفصة، لقد كان ابنها البطل يُحرز الانتصارات في المعارك الكبرى، ويفتح القلاع أينما ذهب، فأيُّ سعادة يا تُرَى أكثر من هذا قد تنالها أُمِّ، وهي ترى ابنها يحقّقُ كلُّ هذا النجاح.

كانت السلطانة الوالدة حفصة تُذَيِّلُ رَسَائِلَها بـ"المتوكلة على الله" أو "والدة السلطان سليمان شاه" شاعرة بالفخر بأنها أمَّ لابنِ مثل سليمان (٢٠٠٠).

# نَصَرَكَ الله على الكافرين

بينما كان السلطان سليمان في "بودين" وَصَلَه الخطابُ الثاني من "خُرَّم". وفي هذه الرسالة الثانية كانت "خُرَّم" تُناجِي السلطان سليمان على النحو التالي:

"سلطاني ومليكي!

إن بكاثـي واشــتياقي ولوعتـي تفيضُ بآهاتـي الحزينة ودموع عيني وتعاسة قلبي.

إن قـدَري أن أتألّـمَ لِغَيبَـة طَلَّتك البهيّة التي فـاق نورُها ضياء الشـمس، ولكـن حيرتـي واندهاشـي قـد زادا مـع طـول غيبتك وانحجاب وجهك البديع عني...

"سلطاني يا حَبِيبَ قلبي ونفسي... يا مَلِيكي، يـا مَنْ مَلَكُتَ رُوحِي إنك أَمَلي في الدنيا والآخرةا

<sup>(</sup>٢٨) أُولُوجَايْ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول (٢٠٠١م)، ص ٧٨.

كان الله في عونك، اللهم كن معه، وسخر له كلّ أجزاء الكون، وأبعد عنه الأمراض والأسقام، والطُفُ به لطفًا أبديًا بحرمة وجه حبيبك محمد ﷺ واجعل أرواح أوليائك الكرام إلى جواره، واجعله إلهى مظفّرًا ومنصورًا على الكفار في كل زمانٍ ومكانٍ...".

"يا سلطاني، إن خِطابَكَ وكلِمَاتِكَ التي وَصَلَتْ إلَيَ قد أحيَتني ورَدَّتْ إليَ قد أحيَتني ورَدَّتْ إليّ الرُوح، لقد بعث خطابُك النورَ في عيوني المظلمة، وأَبْهَ جَ قَلْبيَ الحَزِينَ، فيا لَسَعَادَتِي! أرجوك ... لا تتوقَّف أبدًا عن إحياءِ قلبي وروحي...

"سلطاني.. لقد جاء أَحَدُ الأولياء الصالحين من مكة المكرمة، وقال: إنه قد شاهد رسول الله ﷺ في الرُّوْيًا، وقد أَمَرَهُ سَيِدُ الخلق ﷺ أَنْ يُجَهِّزَ قميضًا مخصوصًا يرتديه السلطان سليمان في الجهاد، فأطاع ذلك الولي أَمَرَ النبي ﷺ، وعرض الأمر على "شَهْرِسْتَانِي فأَمرَ النبي ﷺ، وعرض الأمر وتأكد من صدق هذا الرجل، سَلْمَ القميصَ إلى "أمره كوجا (Emre Koca)"، وقد أرسله الرجل، سَلْمَ القميصَ إلى "أمره كوجا (Emre Koca)"، وقد أرسله "أمره كوجا" بدوره إلينا، وها أنا ذا أرسله إليكم.

وإني أستحلفك بالله ﷺ وبحرمة النبي ﷺ أن لا تمتنع عن لبس هذا القميص المبارك".

الفقيرة الذليلة، جاريتكم "خُرَّم" (٢٩)

كانت "خُرَّم" حريصةً على أن تُزَيِّنَ خطاباتها إلى السلطان بأبيات من الشعر تفيض رِقَّةً وعُزُوبةً تنثرها بين سطور هذه الخطابات:

أيًا رياح الصبا! قُولِي لسلطاني: كم أنا مشتاقةٌ وبي لوعةًا قُولِي له: إن فراقي لوجهه الورديّ قد جعلني كالبلبل الجريح، أُخْبِرِيه أنَّ أَلَمي لم يَجِدْ له أَحَدٌ ذَوَاءُ أو عِلاجًا، لقد صارَ قلبي مَرْتَعًا للآلام والأحزان التي سَكَنتُهُ، قُولِي له: إنه قد صار كالناي مَرِيضًا وهَزِيلًا من أَثَرِ الفراقِ"

<sup>(</sup>٣٩) أُولُوجَائِي، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول (٢٠٠١م)، ص ٤٩-١٤.

وكما نرى فقد كانت "السلطانة خُرَّم" تتضرع إلى الله ﷺ؛ من أجل أن يحفظ الله السلطان ويرعاه، وتبتهل إلى المولى ﷺ؛ لكي يُبعِدَ عنه المرض والمصائب والأحزان، كما كانت تلتمسُ بركة النبي ﷺ والأولياء الصالحين من أجل أن ينتصر في حروبه ويفوز على الكافرين، لقد قامت بنفسها بخياطة القميص الذي حدَّد هيئتَه رسول الله ﷺ في الرؤيا، وأرسلتُه إلى السلطان وهي مُصِرَّة على أن يرتديه أثناءَ الجهاد.

وإذا كان يتّضِحُ من الخطاب مدى غَلَبة الشعور الدينيّ والصوفيّ، فإنه لا يغيب عن أنظارنا أيضًا فَيضُ المشاعر الجيّاشةِ التي تعبِّرُ عن أحاسيسِ الفراق والاشتياق.

يتضح لنا كذلك بشكل جلي -من خلال تلك الخطابات التي كتبتها "خُرَّم" الشابَّة ذات الاثنين والعشرينَ ربيعًا وبشكل لا يمكن الجدال فيه-مدى تفوُّقِها الكبير في مجال الأدب، وتمتُّمِها بحسِّ بلاغيِّ عالٍ، سواءً في الشعر أم في النثر، إلى جانب تمتُّعِها بمشاعرَ دينيَّةٍ وصوفيَّةٍ وتراثيَةٍ (").

كذلك تشير تلك الخطابات أيضًا إلى أن "خُرُم" قد وصلت إلى درجة عاليةٍ من التعليم، سواء أكان من ذلك النوع المتاح في القصر أم من مصادر مختلفة، كما تدلّ تلك الخطابات بقوة على ما كانت تتمتّعُ به من ذكاء وفطنة.

كان السلطان سليمان الذي أخضع أقوى الجيوش الأوروبيَّة في فترة وجيزة، قد قابَلَ أشعارَ "خُرُم" المليثة بالأحاسيس والحبِّ والعاطفة، بإرساله إليها بأشعار مُفْعَمة بالمشاعر والأحاسيس والحبّ الممتزج بالعاطفة الدينية:

<sup>(</sup>٤٠) في تلك الأثناء أنجبت "خُوم" مولودا آخر هو "الأمير جهانجبر"، وإذا استثنينا ابنتها الأولى "مِهْرِمَاة" فإن كل أمير كانت "خُوم" تنجبه للسلطان كان من العوامل التي تقربها أكثر منه.

لا تَسَلَ مجنونًا ما الحب لِيَشْرَحَهُ لك فإنه مجنون، ولا تكشف سِرُ الحب لـ"فرهاد" فهو مجرد أسطورة، إذا أردت أن تسأل عن رموز العشق فسَلْنِي، فأنا بها خبير، إن العاشِقَ يترك لمحبوبه رُوحَه وعَقْلَه وقد عَمِيَ عَمًا سِواه، تعالى وشاهدي فؤادي الذي صار كالقصر.

إنه دار مزينة وقد نُقِشَت جدرانُها بدموع عيني الحمراء الدامية (١)

• • •

إلى جانب هذا نجد السلطان في الرسالة التي أرسلها إلى "خُرُم" من المَجَرِ يخاطبها قائلا:

> "إنني أشتاق إليك يا زوجتي "خُوّم"، ولا أرى سواكِ في أحلامي."(٢١)

> > ثم يُزَيِّن رسالته بالأشعار التالية:

أيها الطبيب! إن ألم رأسي يزداد، فاتركني كي أرتاح، إنني مريض بالعشق ولن يفيد في علاج ألمي ما عُرِفَ من دواء، يا حبيبي! لقد صرت مجنونًا منذ أن عشقت ليلى، حتى صارت الطيور تصنع أعشاشها فوق رأسي.

### حصار فيينا

اتفق أغلب أمراء المجر على اختيار أمير جديد لمنطقة "أردل" -وهي الآن أحد أقاليم دولة رومانيا- ألا وهو الأمير "يانوش (Yanoş)" الذي اعتلى عرش المَجَرِ بتأييدٍ من الدولة العليّة العثمانية، وبعد اعتلاء الملك الجديد

<sup>(</sup>٤١) - أُولُوجَايُ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول ٣٠٠٠م، ص ٣٢.

<sup>(</sup>٤٢) نُجَاة ر. أُوجِنُومُ (Nejar R. Uçtum)، الرسائل المكتوبة من قبل السلطانتين "خُوّم" و"مِهْوِمَاة" إلى ملك بولندا "زيجموند الثاني"، دورية علمية، (١٩٨٠م)، الجزء الرابع والأربعون، العدد ١٧٥، ص ٧٠١.

عرشَ المجر رجع الجيش العثماني إلى إسطنبول، لكن بعد مغادرة المجيشِ العثمانيِ أراضيَ المجَر قام باقي أمراءِ ووُجهاءِ المجَر المناهضين لاعتلاءِ "الأمير يانوش" عرشَ المَجَرِ في "أردل" بتصرُّفِ غريبٍ حيث قاموا بتنصيبِ قائدِ جيشِ النمسا وأحد عقلائها وتُبَلائها "فرديناند" ليجلسَ على عرش المجر.

وهكذا أصبح للمجر مَلِكان، أحدهما مدعوم من قِبَل العثمانيين، أما الآخر فمدعوم من إمبراطور ألمانيا.

قام "فرديناند" بعد مغادرة الجيش العثماني للبلاد بالهجوم على "بودين"، وبناءً على الوعد الذي قطعه السلطان سليمان بحماية الملكِ "يونوش"، فقد خرج السلطان من دار السعادة وعاصمة الدولة العثمانية -إسطنبول - على رأس جيش جَرًارٍ قوامُه مائتين وخمسين ألف جندي، وذلك في أيار/مايو من عام (١٥٢٩م)(١٠).

دخل الجيشُ العثمانيُّ المَجَرَ عابرُا شبه جزيرة البلقان، وقام السلطان سليمان بتتويج "يونوش" مَلِكًا على المجر في احتفائيةٍ مهيبةٍ، ثم سار بعدها الجيش السلطاني بعد أن استعاد "بودين" في اتجاه "فيينا" التي يوجد بها "فرديناند"(١٠).

ولم يكن الوقت الذي صادف أواخر أيلول/سبتمبر ١٥٢٩م ملائمًا لإقامة الحصار حول "فيينا"، فاضطر العثمانيون في نهاية اليوم الحادي والعشرين إلى رفع الحصار؛ بسبب الظروف المناخية القاسية في فصل الشتاء، وعاد الجيش العثمانيُّ إلى بودين وبصحبته ستين ألف أسير.

<sup>(</sup>٤٣) أُوزُونْ جَازَشِيلِي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٣٩-٣٣٠.

<sup>(</sup>٤٤) في أثناء حصار (فينا) وصلت هجمات العثمانيين تحت قبادة "محمد بك" ابن "بالي بك (Ball Bey)" حتى مدينة "راتبسبون (Ratisbon)" الواقعة في مقاطعة" باقاريا (Bavyera)" وكذلك بلغت مدينة "برون (Ratisbon)" إحدى مدن التشيك.

[السُّلطانة "خُرُم"] -----

أثناء هذه الحملة العسكرية كان إبراهيم باشا يشغلُ عدّة مناصب، فقد كان يشغل منصبَ الصدرِ الأعظم، ومنصبَ قائدِ الجيش، وفي الوقت نفسه كان إبراهيم باشا أيضًا هو كبيرُ أمراءِ وقوّاد الدولة العثمانيّة على الأراضي الأوروبيّة، وبعبارة أخرى يمكن أن نقول: إن إبراهيم باشا كان يجمع في يديه كافّة الصلاحيّات السياسيّة والعسكريّة والإداريّة، وعلى هذا النحو أصبح لإبراهيم باشا اسم جديدٌ صار يطلق عليه، ألا وهو "مقه ل باشا"(٥٠).

# وفاةُ السلطانةِ الأمِّ "حَفْصَة"

بعد أن اطمأن "السلطان سليمان" إلى استقرار الأوضاع على الجبهةِ الغربيّة، قرّرَ أن يتوجُّهَ صوب الشرق.

لقد كانت إيران منذ حكم الصفويّين في صراعٍ مريرٍ مع العثمانيين، وكان شاه إيران "طهمسب" يمارس ألاعيبه القذرة على أراضي الأناضول كلما سنحت له الفرصة، وعندما كانت حركاتُ العصيانِ والتمرُّد تندلع، كان الصفويون ينتهزون الفرصة ويعملون بكلِّ جهدهم على تأجيجها وعلى إذكاء رُوح الفِتنة؛ لذلك ومن أجل وضع حدٍّ لهذه المسألة فقد اتخذ "السلطان سليمان" قرارَهُ بتوجيهِ حملةٍ عسكريّةٍ إلى الشرق(٢٠٠).

لقد كانت لدى "السلطان سليمان" رغبةٌ قويّةٌ في السيطرة على بغداد وإخضاعها إلى الدولة العثمانية، ومن أجل تحقيق تلك الرغبة تَمّ أولًا

<sup>(</sup>٥٤) يروى أن هذا التعيين في منصب الصدر الأعظم قد تم بسبب اتساع رقعة الدولة، وتنامي وزيادة الأعمال؛ حيث يروى كذلك أن "سليمان القانوني" قد أعرب عن هذا الأمر قائلًا: "ليس من المناسب أن يبت السلطان وينظز في كل شيء". (أكُسُونُ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٦٤).

<sup>(</sup>٢٩) كان لدى "شلبي" دراية واسعة بالأمور المالية، حيث استطاع أن يحتفظ بمنصب "باش دفتر دار" لسنوات طويلة. ولقد كان لدى "سليمان القانوني" ثقة كبيرة واعتماد عليه. ومن أجل الاستفادة من خبرته في "حملة العراق" فقد قام بتميينه في منصب "كتخدا سر عسكر" إلى جانب "إبرهيم باشا" الذي أوصاه "القانوني" بنفسه عند التحرك من "دار السعادة" قائلًا: "إن "إسكندر شلبي رجل عالم وخبير، فلا تخالف رأيه".

إرسال الصدر الأعظم "إبراهيم باشا" على رأس جيش في شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام (١٥٣٣م). كذلك فقد تم تعيينُ رئيسِ دفتردار "إسكندر شلبي (İskender Çelebi)" بِنَاءً على سابق خبرته وتجربته في وظيفة مستشار وقائم بأعمال الصدر الأعظم.

وفي أثناء حملة الشرق الموجّهة ضدّ إيران، حدثت واقعة أليمة هزّت أرجاء القصر العثماني؛ إذ تُوفّيت السلطانة الوالدة "حفصة" في التاسع عشر من آذار/مارس من عام (١٥٣٤م) الموافق الرابع من رمضان من عام (١٩٤٠م) عن عُمْرٍ يُناهِزُ السادسة والخمسينَ عامًا، (٢٠) حيث ظلّت السلطانة "حفصة" تتمتّع بلقب "السلطانة الوالدة" لمدّة ثلاثة عَشَرَ عامًا وخمسة شهور وسبعة وعشرين يومًا، كانت خلالها هي المسيطرة على جناح الحريم بوصفها "والدة السلطان"، كما كانت في الوقت نفسه محبوبة من الجميع، لقد كانت السلطانة "حفصة" معروفة بين الناس أنها تُحبُ القيام بأعمال الخير، إلى جانب اشتهارها برقة القلب والرحمة والشفقة، ولقد تم دَفْنُ السلطانة "حفصة" في صَحْن جامع السلطان "سليم"، بالقرب من قبر زوجها السلطان "ياووز سليم"؛ حيث قام ابنها السلطان "سليمان القانوني" فيما بعد بإنشاء مقبرةٍ فخمةٍ هناك (١٠٠٠).

ويناءً على ما يذكره بعض المؤرخين، فلقد كانت وفاة السلطانة "حفصة" نقطة تحوّل هامّة للغاية، آذَنَتْ ببداية ما عُرِفَ في القصر العثماني باسم "سلطنة النساء".

<sup>(</sup>٤٧) على خَيْدَرْ بَيَاتْ (Haydar Bayar)، السلطانة خَفْضة، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول -١٩٩٧م، الجزء الناسم، ص ١٩٢٧.

<sup>(</sup>٤٨) لقد انهدم هذا الضريح الفخم في زلزال عام (١٨٩٤م)، ولم يتم ترميمه رغم مرور حوالي مانة وعشرين عامًا على إنشائه.

وكما يقول لنا "إسماعيل حامي دَانِشْمَنْد": فإن "السلطانة خُرُم" قد بدأت تستغلَ ضَعْفَ السلطان تجاهَهَا، والنفوذَ الكبيرَ الذي نالَتْه بِناءً على هذه العاطفة التي يكنُها نحوها السلطانُ في تحقيقِ مصالحِهَا الشخصيَّةِ (١٠).

لقد أصبحت "خُرَّم" هي قُرَّةَ عين السلطان بعد أن أنجبت له الأطفالَ ونجحت في جَذْب انتباهِهِ من بين بقيّةِ الجواري، لكننا لا نستطيع القول إنها قد أصبحت المُهَيمِنة على السلطان تمامًا، في الفترة التي كانت فيها السلطانة "حفصة" على قيد الحياة.

بالطبع لقد كانت لها مكانة مرموقة بين بقيّة الجواري الأخريات، لكن بعد وفاة السلطانة الأمّ، وبفضل الأطفال الذين أنجبتهم للسلطان، نالت حريّتها بعد أن عاشت في القصر -كجارية- فترة من الوقت.

\* • •

كانت "ماهيدوران جلبهار خاتون (Mâhidevrân Gülbahar Hatun)" أمُّ الأمير مصطفى هي قُرَّة عينِ السلطان والمفضلة لديه في تلك الأثناء التي بدأت تتفرّق فيها "خُرُم" على غيرها من نساء القصر، وتسعى لجذب انتباه السلطان سليمان، ولكن مع تنامي حبِّ السلطان لجاريته الجديدة "خُرُم" بدأت مشاعرُ الغيرةِ الشديدةِ والنفورِ الواضحِ تتصاعدُ بين الاثنتين، ولكن هذا الجوَّ السلبيُّ والمشحون بين المرأتين المتنافستين لم يظهر ويتضح للسلطان القانونيّ إلا بعد وفاة أمه، التي كانت تُسَيطِرُ -وبِشِدةٍ على جناح الحريم في القصر، لكن بعد وفاة السلطانة "حفصة" تزايد على جناح الحريم في القصر، لكن بعد وفاة السلطانة "حفصة" تزايد طورٍ أكبر وأوضح من العداوة المستمرة التي لا تهدأ.

<sup>(</sup>٤٩) - فَانِشْمَنْك، الْمصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٦٢.

وقد تصاعدت حِدة التوتر بين هاتين المرأتين، وظهر التناحرُ والتباغضُ والتنافسُ من كليهما بشدّة، حتى وصل الأمر بالسيدة "ماهيدوران جلبهار" أن تطاولت مرّة على منافستها "خرم"، وأهانتها إهانة بالغة؛ حيث لَطَمَتْها على وجهها بكلّ قسوةٍ، ودون شفقة (٥٠٠).

وعندما عَلِم السلطان بالواقعة تدخّل في الأمر، وقام بإرسال الماهيدوران جلبهار" إلى ابنها وَلِيّ العهد الأمير مصطفى الذي كان في ذلك الوقت يتولّى حكم "صاروخان (Saruhan)" (أي: مانيسا)، وعلى الأرجح أنه قد عَقَدَ قِرانَه على "خُرَّم" بإصرارٍ وإلحاح منها.

وبناء على ما يرويه سفير ألمانيا "بوسبيك (Busbecq)":

لقد كان "القانوني" يحبّ تلك المرأة (أي: خُرّم) إلى درجة أنه قد رفعها إلى مرتبة الزوجة السرعيّة، كما قام بإعداد وتجهيز جهاز العروس من أجلِها، وهو ما يُعَدُّ في عُرْفِ الأتراك علامة واعترافًا بحدوث زواج شرعيّ ورسميّ. (10)

#### استسلام بغداد بدون مقاومة

تَوَجَّهَ "إبراهيم باشا" إلى "حلب" أولًا فدخلها، وكانت نيّته أن يستولي على بغداد عن طريق "الموصل"، لكن الدفتردار (٢٠) "إسكندر باشا" نَصَحَه أن يَتَجِهَ بدلًا من ذلك إلى مدينة "تبريز"، وبحلول الثالث عشر من حزيران الوليو من عام (١٥٣٤م) أصبحت "تبريز" جزءًا من الدولة العثمانية بدون الدخول في حرب.

٥٠) لم يكن السلاطينُ مُلْزَمِين بعَقْدِ القران على الجواري.

<sup>(</sup>٥١) أُوجُتُومَ، المصدر السابق، ص ٦٩٨.

 <sup>(</sup>٥٢) الدفتردار: اصطلاح عثماني يطلق على القائم بأعمال أموال الدولة، مثل وزير المالية أو الاقتصاد في عصرنا.
 (المترجم)

وبعد أن قضى "السلطان سليمان" فصلَ الشتاء في إسطنبول توجّه إلى "تبريز" بِناءً على دعوة "إبراهيم باشا" الصدر الأعظم؛ حيث وصلها في أواخر أكتوبر، ويدون أن يضيّعَ أيَّ وقتٍ استطاعَ أن يصلَ إلى بغداد في غضونِ سبعةِ أيّام، كان والي بغداد قد انسحب من المنطقة، وترك بغداد -دون أيِّ مقاومةٍ تُذكر - قبل وصولِ القوّاتِ العثمانيّة؛ حيث استسلمت المدينةُ والقلعةُ بمنتهى السهولة في يوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر من عام (١٥٣٤م).

وبعد يومين من استسلام بغداد، ووسط جَوِّ مليء بالثناء على السلطان، والدعاء له من البغداديّين، دخل السلطان القانوني إلى بغداد فتوجّه أوّلًا وقبل كل شيء لزيارة ضريح الإمام الأعظم "أبي حنيفة النعمان" شهمؤسس المذهب الحنفيّ، ثم أمر بتشييد ضريح جديدٍ وعظيمٍ له بدلًا من ذلك الضريح الذي خَرَّبه غُلاة الشيعة (٥٠).

ثم أمر "السلطان سليمان" -خلال الأربعة أشهر التي مكثها في بغدادبإحصاء وتسجيل الأراضي الموجودة في المدينة، وفي نفس الوقت
قام "السلطان سليمان" كذلك بتطبيق القوانين المُتبَعّة في الدولة العلية
العثمانيّة، فيما يخصُّ "قطاع الزراعة" من ناحية كيفيّة إقطاع الأراضي
الزراعيّة، ومنح حقِّ الانتفاع بها، وذلك من خلال مجموعة من اللوائح
الإداريّة التنظيميّة التي تكفُلُ تحقيق العدالة، ومن خلال هذه الإجراءات
التي اتّخذها السلطان استطاع أن يبرهن ويثبت براعته ودقّته فيما يتعلق
بالإدارة والقيادة.

<sup>(</sup>٥٢) تحمل "بغداد" المديد من الأسماء الأخرى مثل "برج الأولياء"، حيث إن "الشيخ عبد القادر الجيلاني" وغيره من كبار الأولياء قد عاشوا في هذه المدينة، التي تسمى أيضًا "دار الخلافة"؛ حيث كانت مقرًا للخلافة العباسية، ويعتبر "فتح بغداد" من الأحداث التي تحمل قيمة معنوية كبيرة في التاريخ العثماني. (ضيا فور، المصدر السابق، ص ٢٧٥).

# إن شَعرةً من شاربِكم المُبارَك أغلى عندي...

أثناء الحملة التي قادها "السلطان سليمان" للسيطرة على بغداد، لم تَتُوانَ "السلطانة خُرُم" في إرسال الخطابات إليه؛ حيث كانت حريصةً في هذه الخطابات على بثِّ ما كانت تُحِسُّ به من حبٍّ صادقٍ، ومشاعرَ جيًاشةٍ تجاهَ السلطان.

ونجدها تبدأ إحدى الخطابات التي أرسلتها إلى السلطان سليمان بالجملة التالية:

"بعد أن أُعَفِّرَ وجهي في التراب، وبعد أن أُقَبِلَ الأرضَ التي تحت قَدَمَيكَ أشعرُ بالسعادة...".

ونراها قد أخذت تشدو بالكلمات التالية مُعَبِّرَةً بها عن العشــقِ وألمِ الفراق:

"سلطاني يا شمسَ الدولةِ، ورأسَ مالِ سَعَادتي!

إذا أردت أن تعرف حالي من بعدك.. فإن قلبي قد احترق، وكبدي أصبح كالجمرة الملتهبة من الشوق، وصار صدري خرابًا، وأما عيناي فهما مليتنان بالدموع، لم أعُدْ أعرف ليلي من نهازي، وأصبحت غارقة في بحر الحسرة، مبتلاة بحبكم، حتى صرت مسكينة وأشد سوءًا من حال "فرحات" و"المجنون".

ثم أَخَذَتْ تكمل ما سطرتْه بالعبارات التالية:

"كُنمُ طَالَ الأَمَدُ وأنا بعيدةٌ عن سلطاني، وآهاتي ونحيبي جعلاني مثلَ البلبلِ الصدّاح، وهذا الأَلَمُ كلَّهُ يامولاي سبَبُهُ بعدُكُمُ عني وفِراقُكُم لي، حتى إنني من فَرْطِ أَلَمِي أصبحتُ لا أتمنّى أن يبتلي الله أحدًا بمشلِ ما ابتلاني به، حتى ولو كان من عبادِهِ الكافرين".

ونجد "السلطانة خُرَّم" في جزءٍ آخرَ من الخطاب تتألَّم قائلةً:

"لِعَدَمِ ورود الأخبار عنكم منذ شهرٍ ونصف، فالله يعلمُ كيفَ أصبحتُ في كَمَدٍ مريرٍ، لقد صِرتُ أبكي ليلًا ونهارًا، وأصبحت زاهدةً في الدنيا ومتاعها، وضاقت الدنيا في عيوني بما رَحُبَتْ".

وبينما أَبْكِي ولا أدري ماذا أفعل، وأتَلَقَّتُ حولي بعيونِ مليئةٍ بالدموع، وصلَتْني والحمدُ لله أخبارٌ مُبشِّرة وسارَّة عن الفتح وأمورٍ أخرى، لقد أحيتني تلك الأخبارُ وردَّتْ إليَّ روحي بعد أن كنتُ ميتَة، فصرت -بفضلِ اللهِ ورحمتِهِ- أرى كلَّ شيءٍ من حولي يَفيضُ نورًا ويَرِيقًا، بعد أن كنتُ أرى الكونَ كلُه غارقًا في بحار الظلمةِ والظلام ... (١٥).

وفي إحدى مقاطع رسالتها تردُّ على السلطان بالمدح بعد أن أمرَ بإرسالِ خمسةِ آلاف عملةِ ذهبيةٍ (\*\* إليها، فتقول:

"سلطاني لماذا أتعبت نفسَك؟ إن شَعرةً مِن شارِبِكم المُبارَك أغلى عندي من مائة أغلى عندي من مائة الفِ عملة ذهبية، بل أغلى عندي من مائة الفِ عملة ذهبية...(٥٠).

إن "السلطانة خُرَّم" تقول في خطابها: إنها كانت تنتظر أن يُرسِلَ إليها السلطانُ بالكثير من الخطابات، كذلك نجدُها في الوقتِ نفسِهِ لا تجدُ ما يمنعُها من أن تقصَّ على السلطان ما كان يدورُ في القصرِ من إشاعاتٍ حال غيابه فتقول:

"إنني أتضرّعُ إليكم وأرجوكم أن تُرسلوا ليَ الكثيرَ من الخطابات؛ لأنني -والله يعلم أني لا أكذبُ- إذا لم يأتيني ساعي

 <sup>(10)</sup> أُولُوجَائِ، رسائل العشق للسلاطين العثمانين، إسطنبول - ٢٠٠١م، ص ٥٣.

<sup>(</sup>٥٥) - هذه العملة التي تسمى "قلوري" تم استعمالها أول الأمر في دوقية "فينيسيا (Florense)"، ثم أصبحت مستخلعةً بعد ذلك ٍ في أوروبا وفي الدولة المثمانية، وهي عبارة عن عملة ذهبية عليها وسم لزهرة الزنبق.

<sup>(</sup>٥٦) أُولُوجَايِّ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطتبول - ٢٠٠١م، ص ٥٤.

البريد بخطابٍ منكم لأسبوعٍ أو لأسبوعين، فإن الناسَ يُكثِرون من القيل والقال، وينشرون الإشاعات المختلَقةِ... (٧٠)".

\* \* \*

وتبدأ "السلطانة خُرَم" خطابها الثاني الذي أرسلَتْه إلى "السلطان سليمان" بالأسطر التالية:

"سلطاني الحبيب، بعد أن أُعَفِّرَ وجهي المتواضع بتراب قدميك المُبَجُّل..."

### وتستمر في كلامها قائلة:

"...أقسم بالله ياروحي! لم يعُذ ليلي ليلا ولم يعد نهاري نهارًا، بعد أن صِرتُ بعيدةً ومحرومةً من وصالك، فماذا تتوقع أن يكونَ حالي وأنا بعيدةً عنك؟ إنني أقسمُ مرارًا وتكرارًا، أنني أحترق ليلا ونهارًا من نار الفراقِ، فمَنْ عساه يا تُزى يعلم بحالي سوى الحتى ﷺ... ".

ولا تنسى "السلطانة خُرَّم" أن تُزَيِّنَ رسالتها بشيءٍ من الشعر، تنثرهُ بين سطور الرسالة:

"عجبًا! أيكون من نصيبي أن أراك مرة ثانية في هذه الدنيا؟ أتمنى أن يمنحني الباري فرصةً واحدةً كي أُعَفِّرَ وجهي عند أقدامك...

كم هي مؤلمةٌ وصعبةٌ مرارةُ الفراق والبعد عن السلطان

إن نيران تلك الفرقة قد تمكنت مِنِّي، فاشتعلت بي وأحرقتني "(٥٩)

<sup>(</sup>٥٧) مع الأسف لم يتسَنَّ حتى الآن العثور في سجلات الأرشيف على تلك الخطابات التي كتبها "سليمان القانوني" إلى "خُرَم".

 <sup>(</sup>٥٥) أُرلُوجَايْ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول - ٢٠٠١م، ص ٥٥-٥٥.

### مقتل "إبراهيم باشا"

بعد أن انتهت "حملة العراق" تحرَّك الجيشُ السلطاني الذي يقوده "سليمان العظيم" من مدينة "تبريز" بتاريخ الثالث والعشرين من أيلول/ سبتمبر من عام (١٥٣٥م)، متوجّهًا إلى مَقَرِّ الخلافة في إسطنبول بعد أن مَرَّ على "حلب" و"أضنه (Adana)" و"أسكي شهير (Eskişehir)"، وبحلول الأسبوع الأوّل من شهر تشرين الأول/أكتوبر وصل السلطان على رأس جيشه إلى الآسِتانة (أي: إسطنبول)، حيث استُقبِلَ في جوّ احتفاليّ ومراسمَ عظيمةٍ بعد رحلةٍ استمرّتْ عدّة أشهر.

ولكن بعد مرورِ شهرين فقط على وصولِ "السلطان سليمان" مُظَفَّرًا إلى عاصمةِ دولتِهِ، حدث زلزالٌ سياسيٌّ داخلَ الدولة العثمانيَّة حيث وقع خبرٌ أليمٌ كالصاعقةِ على أهل إسطنبول.

لقد قُتِلَ الوزيرُ الأعظم "إبراهيم باشا"، الذي كان معروفًا بلقب "مقبول" قُتِلَ مخنوقًا، لقد قُتِلَ الوزيرُ الأعظم الذي زُفَ كعريسٍ إلى القصر ليتزوّجَ السلطانة "خديجة" شقيقة السلطان، وجاء مقتلُه بعد أن قضى قُرابة ثلاثة عَشَرَ عامًا يشغل وظيفة الصدر الأعظم في الدولة العليّة العثمانيّة، استطاع خِلالها بإمكانياته العديدة أن يحظى بحبّ السلطان، وأن يترقَّى ليصلَ إلى رتبة القائدِ العامِ للأساطيلِ والجيوشِ العثمانيّة، مُزوَّدًا بصلاحياتٍ واسعةٍ، وحائزًا لقب "سر عسكر (٥٠) (Serasker)" (١٠).

<sup>(</sup>٩٥) سر عسكر: اصطلاح عثماني يشابه في عصرنا وزير الدفاع، أو قائد الجيش والقوات المسلحة. (المترجم) لقد كتب "بوسبيك (Busbecg)" سفير "شاول الخامس" حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة في إسطلبول في تلك الفترة ما يلى: "لا يوجد شك في أن عاصمة الدولة العثمانية وكل الولايات التي بلغتها تلك الحادثة أصبح شُملُها الشاغل هو مسألة خنق "إيرهيم باشا" في القصر بناءً على فرمان السلطان، لقد كانت تلك حادثة غير متوقعة... إنني في غاية الدهشة والذهول... " (أولُوجَاتِي،" بعض الوثائق والملحوضات المتملقة بالسلطان "سليمان القانوني" وعائلت" كتاب "هدية القانوني"، أنقرة - ١٩٧٠م، ص ٢٣٥٠.

وكثيرًا ما كان السلطان، سواء في إسطنبول أم في أثناء الحملات الحربية، يُشارِكُ صديقه العزيز الصدر الأعظم في المأكّل والمجلس، حتى إنه كان ينزلُ ضيفًا عليه في القصرِ عندما كانت تطولُ بهم مسامراتُ الليل، ولهذا فقد خُصِّصَ لَ إبراهيم باشا "جناحًا مميزًا في القصر، لقد كانا صديقين حميمين لا يفترقان عن بعضهما ليل نهار.

وفي اليوم الثاني والعشرين من رمضان دُعِيَ "إبراهيم باشا" إلى القصر -مثلما كان يحدثُ في كثيرٍ من الأحيان- حيث تناولَ الإفطار مع السلطان وتجاذبا أطراف الحديث حتى منتصف الليل.

لقد اتخذ "القانوني" قرارَه في تلك الليلة بألًا يُخبِر صديقه بشيء، ومع تأخُّر الوقت استأذن "إبراهيم باشا" في التوجُّه إلى غرفته التي كانت ملاصقةً لغرفة السلطان، ثم استغرق في نوم عميقٍ دونَ أن يدركَ ما سيَحِلُّ به، وبينما كان "إبراهيم باشا" يبيتُ ليلَتُهُ في جناحٍ فاخرِ الأثاثِ، وقد أخذ خيالُه يطوفُ في عالمٍ من الرُّوَى والأحلام، إذا به يُقتَلُ مخنوقًا على يد المجلاد "علي" وأعوانه، بعد أن تَلقُوا الأمر السلطانيّ بقتله في السادس من آذار/مارس من عام (١٥٣٦م) (١٥٠.

أَمْسَى كُلُّ مَنْ بالقصر، وكذلك العلماءُ والوزراءُ، في خيرةٍ من أمرهم، فلم يكن أيُّ مَنْ بالقصر، وكذلك العلماءُ والوزراءُ، في خيرةٍ من أمرهم، فلم يكن أيُّ شخص يعتقدُ أو يَظُنُّ أنَّ السلطانَ قد يتُخِذُ قرارًا مِثلَ هذا، وجَرَت الشائعات على ألسنةِ الشعبِ، لكنّ السببَ الحقيقيُ وراءَ هذه الواقعةِ لم يُعْرَفُ بعدُ إلى الآن.

إن السبب وراء هذه الحادثة الغريبة التي وَقَعَتْ قبل أربعمائة وثمانية ومسبعين عامًا في القصر السلطاني، لم يُعرف حتى الآن بشكلٍ مفصل (١١) كان عنول يرامم بائلة في من الراحد والأربعين عندا نم قتله.

أو كاملٍ، وحتى يومِنا هذا لا يزال هناك ستارٌ من الأسرار التي تُغلِفُ هذا الحادث.

إن المؤرّخيسَ الغربيّيس والمحليّس لا يزالون يَدَّعُون أن "السلطانة خُرُم" لها دور ضالِعٌ في تلك الحادثة الأليمة، ولم ينفكُوا عن توجيه أصابع الاتّهام إليها بشكل جائر وظالم، حتى لقد صارت "السلطانة خُرُم" تبدو لهم وكأنها "المسؤول الوحيد" عن تلك الحادثة، ولم يكتفوا بذلك فحسب، بل صاروا يُلصِقونَ بها التُهمَ عند وقوع أيّ حادثة سلبيّة ضمنَ تلك الحقبة الزمنيّة التي عاشت فيها.

لقد رَقَّى السلطانُ القانوني إبراهيمَ باشا رجلَ الدولةِ الخارقَ الذكاءِ إلى أعلى منصبٍ في الدولة، بينما كان في أوّل أمرِهِ عبدًا عاديًا، إلا أنه -أي السلطان- وقَّعَ على فرمانِ إعدامِهِ بعدَ ثلاثةً عَشَرَ عامًا، ولم يُصرِّحُ بأيِّ شيءٍ عن قتلِهِ، ولم يَرْغَبْ في الحديثِ عن هذا الموضوعِ قطّ(١٢).

وفي الوقت نفسه نجد أن أغلب المصادر العثمانية لم تتناول هذه المسألة على الإطلاق، بينما نُجِد -على سبيل المشال- المؤرخ "لطفي باشا"، وبالرغم من عَمَلِه صدرًا أعظم للقانوني وعِلْمِهِ -في أغلب الظن-حقيقة هذا الأمر، لكنه يكتفي في حديثه عن هذا الموضوع بالقول:

"قَتَلَ السلطانُ وزيرَه "إبراهيم باشا" حين قَدِمَ إلى إسطنبول".

ونجد أن الكتابات التي تناولت مقتل "إبراهيم باشا" بِمُجْمَلِهَا اجتهاداتٌ فرديَّة، أو أفكارٌ شخصيَّة أو ملاحظاتٌ لمؤرخين، لا أكثر من

<sup>(17)</sup> وبينما كان "سليمان القاتوني" في طريقه إلى "سرز" عائدًا من حملة "كورفو" مع قاضي عسكر الأناضول "محيى الدين" وقاضي عسكر (الجانب الأوروبي) "قدري"، فإفا بهم يسألونه سبب قتل "إبراهيم باشا" الذي ظل سرا، فما كان من السلطان الذي تضايق من سؤالهم وتقضيهم عن هذا الأمر إلا أن أمّز بعزلهما، وأمر بتولية "أبي السعود" قاضي إسطنبول ليحل محل قاضي عسكر (الجانب الأوروبي) "قدري"، وكذلك أمر بتولية "شيفيزاد" قاضي مصر ليحل مَحَل قاضي عسكر (الجانب الأوروبي) "المصدر الصابق، المجلد الثاني، ص ٢٠٩).

٦٢ ------ [نُحْرَم ومِهْرِمَاهُ]

ذلك أما الأخطاءُ التي تُنْسَبُ إلى "إبراهيم باشــا"، والعواملُ التي أَفْضَتَ به إلى هذه النهايةِ المأساوية، فيمكن حصرُها في إطار الأسبابِ التاليةِ:

- أثناء الحملة العسكرية على العراق وُجِهَتْ إلى "إبراهيم باشا" تُهمةُ
   جَرِّ القوات التي كانت تحت قيادتِه إلى الهلاك في أرضٍ قاحلةٍ
   وصحراويّةٍ، وذلك أثناء تَعَقَّبِهِ الجيشَ الإيرانيَّ، بعد أن سيطر على
   مدينة "تبريز".
- هذا بالإضافة إلى سُوءِ استعمال السلطات الواسعة التي منحها إياه السلطان(١٢٠).
- وضُلُوعه في إعدام الباش دفتردار "إسكندر شلبي" في (آذار/مارس ١٥٣٥م) (١١٠).

(٦٢) في أثناه الحملة العسكرية على العراق أخذ "أو لاما خان (Olama Han)" يُحَرِّض "إبراهيم باشا" على أن يضاف لقب السلطان إلى جوار فقب "سر عسكر" الذي كان الباشا يحمله، حيث توجه بالسؤال التالى إلى "إبراهيم باشا" قائلًا: "هل هو كثير على الوزير الأعظم للسلطان المثماني الذي ملك الشرق والغرب أن يحمل لقب "سلطان" في حين أن البكوات والخانات يحملون فقب شاه المجم ؟".

ربعد ذلك أصبح يستعمل تمير "سر عسكر صلطان" في الفرمانات التي يصدرها الباشا، كما أصبح التمبير نفسه يستخدم في الأوامر التي يتم الإعلان عنها وإرسالها إلى الجيش بواسطة الرُّشل وناقلي الأوامر، وقد استغل منافسو الباشا هذا الأمرّ وادْعَوْا أنه يُبدُّ مُخطَّفًا سِريًّا للاستيلاء على السلطة، واستطاعوا أن يثيروا قلق السلطان "القانوني" فيما يتملق بهذا الأمر. (أوزُونْ جَازِشِيلي، المصدر السابق، الجزء الثاني، صي ٢٥٧».

(٦٤) كان إبراهيم باشا الذي يرسل تكليفاته وأوامره وهو في إيران أثناء حملة العراق يستخدم لفب "سر حسكر السلطان"؛ حيث إنه من الثابت تاريخيًا أن الباشا قد استخدم هذا التركيب الإضافي، لكن الرسول الذي ينفل الأوامر كان أثناه النداه بما لديه من أخبار يقول:

"هذا هو أمر "سر عسكر" السلطان".

عندها قام "إسكندر شلبي" الذي كان يحمل منصب "كتخدا سر عسكر" باستدعاء هذا الرسول ومنعه من أن يصيح على هذا النحو قائلًا له: "لا تُقُلْ "منز غشكر السلطان"، ولكن قُلّ: "هذا أمر حضرة الشرّذاز".

ومع بلوغ هذا الأمر إلى "إبراهيم باشا" زادت مشاهر الكراهية والنفور بين الرجلين، كذلك بروى أن "الدفتردار" قد عَرض "مَرْ عَسْكُر" على فتح "تبريز"، وذلك سعيًا منه أن يرى إخفاق الباشا، وعندما جاه القانوني إلى "تبريز" أخذ يوجه النقد واللوم إلى "إبراهيم باشا" وسبب قيامه بتعريض الحيش إلى الخطر، وإيقانه في أرض العدو ووسط مدنه في فصل الشتاه، وفي حملة عسكرية على هذا القدر كبير من الأهمية، فما كان من "إبراهيم باشا" إلا أن أجاب قائلًا: "رهل كان بيدي شيه؟ لقد جَمَعَةُ الأمر والحل والعقد بيد عبدكم "إسكندر شلبي"، وهكذا فقد حَمَل "إسكندر شلبي" الذي أثرتموني أنا عبدكم الشيء عنى قرار "الذي أثرتموني أنا عبدكم بتنفيذ تَمِيحته، وقد أضاف "إبراهيم باشا"، بينما كان يغادر حضرة السلطان عبارة: "إنه ذو الخبرة"، بعد ذلك تُمْ الألا

 كما كان من ضمن التهم التي نُسِبَتْ إلى "إبراهيم باشا" اتهامه بعدم مراعاة الأحكام الشرعية.

• وعدم الالتزام بالتعاليم الإسلاميّة إلى جانب غيرها من الأمور...(٢٠).

لقد مُنِعَ "إبراهيم باشا" الكثير من الألقاب، واستطاع في فترة وجيزة أن يَصِلَ إلى أعلى المراتب، لكن بالرغم مما حققه من نجاح فقد كانت لديه ميول للصعلكة وحياة اللهو والخلاعة، وفي الوقت الذي كان فيه أهالي إسطنبول قد اعتادوا على رؤية السلطانِ في أرفع مقام وأعلى مرتبة، أخذت تبدو على "إبراهيم باشا" من خلال تصرّفاتِه وأحوالِه سماتُ التكبّرِ وادّعاء العظمة؛ ممّا كان سببًا في ظهورِ العديدِ من الشائعات، وقد أدّتُ هذه التصرفاتُ من قِبَل "إبراهيم باشا" إلى مساعدة خصومه في نسج القصصِ والأقاويل عنه وبثّها ونشرها، حيث كان لرجال "إسكندر شلبي" الأكْفاء الذين انتقلوا إلى القصر العثمانيّ دورٌ كبيرٌ في هذا الصدّدِ(١٠٠٠).

عزل "إسكندر باشا" من مُنْصِبِه، ثم ثَلَّا ذلك العكم عليه بالإعدام شنقًا، وعلى الرغم من أن السلطان كان متأثرًا لما وقع إلا أنه لم يعرب عن شيء لل"سر عسكر"، لكن هذه الواقعة كانت سببًا في ظهور أولى الأمور التي ستكون في غير صالع "إبراهيم باشا" لدى السلطان، وقد قامت دراسات بعد ذلك أظهرتُ براءة "إسكندر شلبي" في هذا الموضوع... (أُوزُونُ جَازَشِيلِي، المصدر الصابق، المجلد الثاني، ص ٣٥٣-٣٥٧).

(10) في عام (1071م) وخلال النشرة أيام التي قضاها "سليمان القانوني" في "بودين" نجده قد أرسل سفينة إلى المطبول عبر نهر "تونا" حيث شعن على هذه السفينة خزينة ملك المجر ومعها شمعلانين من البرونز وثلاث تماثيل بروزية، بالإضافة إلى مكتبة كبيرة تخص الملك "مانهياس كورفين"، وقد قام "إبرعيم باشا" بوضع هذه التماثيل الثلاثة، التي كانت ترمز لكل من "هرقل" و"أبوللو" و"ديانا" على قواعد رخامية وجعلها أمام قصره الذي كان يقع في ميدان "آت" (أي: الحصان) الذي أصبح الآن يعرف باسم "ميدان السلطان أحمد"؛ مما أدى إلى انتشار بعض الشائعات بين الناس، لدرجة أنه يروى أن أحد الشعراء وهو الشاعر المسمى "طرابزونللو فيجاني رمضان" قد ألف شعرا يسخر فيه من الباشا حيث أنشد البيت النالي:

"جاء خليل في البداية وكسر الأصنام، والآن فقد جثت يا خليل وجعلت الناس عبدة أصنام".

ففي هذا البيت نجد اثنان يحملان اسم "خليل"، الأول هو نبي الله إبراهيم الخليل فقط، أما الثاني فهو الصدر الأعظم "إبرهيم باشا" من خلال هذا العمل في إيفاء المشاعر الدينية لدى الجماهير. (ذاتِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٦٢).

(٦٦) كان "إسكندر شلبي" يربي العبيد الذين تحت إمرته ويعلمهم على خير وجه. ويروى أنه قد تربع في مناصب الصدر العظم والوزارة ٧ من هؤلاء العبيد، وكان "صوكوللو" واحدا من هؤلاء. ويقال أنه بعد مصرع "إسكندر شلبي" وانتقال هؤلاء العبيد إلى الخدمة لدى السلطان فقد كان ذلك بداية المصيبة التي ستحل بالا سر عسكر" جيث سيممل هؤلاء العبيد على إيضاح كيف إن سيدهم كان بريء وبلا ذنب فيما حدث..

وها هو المؤرخ "صولاك زاده" يحكي لنا عن هذه الواقعةِ:

"لقد عزل إبراهيم باشا الكثيرين أثناء حملة بغداد بدون مبرّر، كما كان ينفقُ أموالًا طائلةً؛ كي يكسبَ قلوبَ مجموعةٍ من السفاحين وقد ثبت من خلال الدفاتر والسجلّات أنه أسرفَ في إنفاق المال -في تلك الفترة التي كان فيها موضعَ ثقةِ السلطان-حتى بلغت ثمانين ألفَ قطعةٍ ذهبية، حتّى إنني ذكرتُ هذا ذات مرّةٍ أمام الصدر الأعظم "أياس باشا" (الذي تولى المنصب بعد مقتل إبراهيم باشا) وقلت له:

"إن إنفاق إبراهيم باشا هذه الألوف المؤلّقة من الذهب على السفهاء دليلٌ على تجرُّيهِ على السلطنةِ وتعدّيهِ عليها، وهذا الأمر قد ثُبّتَ لدينا بالدليل المؤكّد والقاطع "(٧٠).

\* \* \*

لقد رأى "القانوني" أنه ليس ثَمَّةَ حَلَّ أمامه سوى أن يضحِّي ويتخلَّصَ من "إبراهيم باشا"، وذلك في سبيل وضع حدِّ للشكاوى والإشاعات التي كانت تدورُ على ألسنةِ الناس.

فعندما قام السلطان بتقصِّي الحقائق عما أُثِيرَ حول "إبراهيم باشا"، وقيامه بعد ذلك بتقييم ما بلغه من معلومات، وجد أنه إضافة إلى ما ورد بحقِّه من شكاوى، وإلى جانب كراهية الشعب له بسبب التصرفات والسلوكيات الخاطِئة التي كان يُمارِسها، فقد نُسِبت إليه أيضًا تُهم تتعلَّقُ بالتجرّو على مقام السلطنة (١٠٠٠).

فلا بدّ أن السلطان العادل "سليمان القانوني" كانت لديه قناعةٌ مؤكّدة وأدِلّةٌ دامِغة وكافية ومقنعة لإصدار مثل هذا القرارِ الصعبِ.

<sup>(</sup>٦٧) - هَمُدَمِي شَلِّي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٩٠.

<sup>(</sup>٦٨) أَكْتُونُ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٧٩.

## ما ذنب "خُرَّم"؟

يذكر الأستاذ الدكتور "جُوكْبِيلْجِينْ (Gökbilgin)" معتمدًا في كلامه على "بدكر الأستاذ الدكتور "جوكْبِيلْجِينْ (Jerome Maurand)" و"جيان شينسو على "همر (Jean Chesneau)" في كتابه "رحلة السيد أرامون (Jean Chesneau)" :

"إن من المُؤكّب أن السلطانة "خرم" استخدمت نفوذَها وتأثيرَها الكبير على السلطان من أجل القضاء على "إبراهيم باشا" تمامًا وإزاحته وإعدامه (٢٠٠".

وبِنَاءُ على ما يذكره "هامر": "فقد كانت "خُرُم" ترى في الحملة العسكرية على إيران (١٥٤٨-١٥٤٩م) سببًا من شأنه أن يُبرِزَ الكفاءَة العسكرية لدى صهرِها وزوج ابنتِها "رستم باشا"، ويُمَكِّن ابنها "سليم" الذي كان وقتها حاكمًا على أدرنة - من أن يَخْلُفَ والدَه(١٠٠٠".

...

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما السبب الذي يجعل المؤرّخين الغربيّين ومَنْ حَـذًا حَذْوَهم وسارَ على نَهْجِهِم من المؤرخين الأتراك، يُحمِّلون "السلطانة خُرُم" مسؤولية موتِ "إبراهيم باشا"؟

في ذلك الوقت كان الأميرُ مصطفى ابنُ "السلطان سليمان" و"السلطانة جلبهار (Gülbahar)" هو وَرِيثَ العرشِ العثماني، أي: إنه في حالِ وفاة السلطان يصير مصطفى هو الشخصُ الذي سيعتلي ويجلس على العرش، لقد بدأ مصطفى من خلال شخصيتِهِ المُمَيّزةِ يحظى بحبّ الشعب،

<sup>(</sup>٦٩) جُوكْبِلْجِينْ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٩٤.

<sup>(</sup>٧٠) جُوكْبِيلْجِينْ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٩٥.

ولا سيما الجيش، وبذلك تَفَوَّقَ على الأمراء أبناءِ "السلطانة خُرَّم"، وفي الواقع لقد كانت "خَاصَكِي" تتمنى أن يكون السلطانُ القادمُ هو ابنها "الأمير بيازيد"(١٧).

ولكن بما أن "إبراهيم باشا" كان في صفِّ الأمير مصطفى، فقد أخذت "خُرَّم" تُخطِّطُ من أجل إزاحة الوزير الأعظم عن الساحة، فكانت تنتهزُ أيّة فرصة من أجل تأليبِ السلطانِ على "إبراهيم باشا"، وقد نجحت أخيرًا في إغواء السلطان وإقناعه؛ حيث كانت توسوسُ إليه بأن "إبراهيم باشا" يطمعُ في العرش العثمانيّ، وأنه يسعى للانقضاضِ على الحكم.

إن المؤرّخين الغربيّين أو من تأثر بهم يسوقون هذه الادّعاءات ويُدافعون عنها، إلا أننا نجدُ أنهم لم يتمكّنوا من أن يقدّموا أيّة وثيقة تُؤكِّدُ أن مقتل "إبراهيم باشا" كان نتيجة للإشاعات والوشايات التي كانت تبُثُها "خُرُم" في أذن السلطان، إنهم لا يقدمون لنا سوى مجموعة من المعلومات التي تستندُ إلى حزمة من الحوادث المشكوكِ في صِحّتِها، وهذه الادّعاءاتُ في نهاية الأمر تفتقرُ إلى الدليل والبرهان الذي يمكن أن يُشْبتها.

# البحرُ الأحمرُ يصبحُ بحيرةً تركيّةً

لقد أصبح وقف "السلطانة خُرَّم" في وقتٍ وجيزٍ من أشهرِ المراكزِ الاجتماعيَّةِ والتعليميَّةِ في إسطنبول، وتوسَّعَ ليضُمَّ دارًا لإطعام المساكين ومدرسة للصبيان ومدرسة دينيَّة تمَّ إنشاؤُها عام (١٥٤٠م)، بعد أن كان في صورةِ جامعٍ صغيرٍ ذي قُبَّةٍ واحدةٍ في المنطقةِ التي أُطْلِقَ عليها فيما بعد اسم "خَاصَكِي".

<sup>(</sup>٧١) من تصاريف القدر العجبية أن هذه الرغبة القرية التي كانت لدى "السلطانة خُوم" لم تتحقق حبث إن حرش الدولة العثمانية لم يتقل إلى "بيازيد"؛ للتحول الأمير سيء الحظ في حرب مع أخيه "سليم"، وبعدها لجأ إلى إيران (قزوين)، وقد تم قتله بأمر من والده في (٦ تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٥٦١م).

في الوقتِ نفسِهِ كان الجيشُ العثمانيُّ قد خرجَ في ثلاثِ حملاتٍ عسكريَةٍ مختلفةٍ في البرِّ والبحرِ، ففي الوقتِ الذي بسطَ فيه قبطانُ البحرِ "بارباروس (Barbaros) خير الدين باشا" أَشْرِعةَ سُفُنِهِ مُتَّجِهًا في حملةٍ بحريَّةٍ للسيطرةِ على الجُزُرِ، كان والي مصر "خادم سليمان باشا" قد خرجَ هو الآخُر في حملةٍ مُتَّجهًا إلى الهند، وكان "السلطان سليمان" أيضًا يقودُ بنفسهِ الجيشُ السلطانيُّ متوجِّهًا إلى "بوغدان (Boğdan)"، ويشير الانتشارُ للجيشِ العثمانيِّ على مسافاتٍ واسعةٍ، وتكثيفُ الحملات إلى مناطقَ متفرقةٍ ومتباعدةٍ إلى القدرةِ العسكريَّةِ والإداريَّةِ والاقتصاديَّةِ التي كانت تتمتَّعُ بها الدولة العثمانيُّة؛ حيث كان جيشُها يخوضُ معركةً -هجوميَّةً لا دفاعيَّة - على ثلاث محاوِرَ متفرقةٍ ومتباعدةٍ.

تحرك "بارباروس" في أيلول/سبتمبر عام (١٥٣٨م) قاصدًا الأسطول الصليبيّ الذي كان يتحرّكُ حولَ أطرافِ جزيرةِ "كورفو (Korfu)"، واستطاع في مدَّةٍ قصيرةٍ ومن خلال مناوراتٍ بارعةٍ أن يُنْهِكَ الأسطولَ الذي كان تحت إمرةِ القبطان الشهير "أندريا دوريا (Andrea Dorya)"، فما كان من قبطانِ الصليبيّين الشهيرِ إلا أن يُصدرَ أمرًا بالانسحاب وهو في حالةٍ من الياس، أما "بارباروس" فقد قرر أن يتركه ولا يلاحقه، لكنه في الوقتِ نفسِهِ أصدرَ أوامرَهُ بحرقِ السفنِ المعاديةِ، التي كانت لا تزال موجودةً في ساحة المعركة.

وفي تلك المعركةِ، استمرَّت ألسنةُ النيرانِ مشتعلةُ في بحرِ "بريفيزا (Preveze) لساعات طويلة، حتى قُدِّرت أعداد السفنِ التي فقدها القبطان "دوريا" في هذه الحرب بمائة وثمان وعشرين سفينة حربيَّة كبيرة من نوعي "قالْيُونْ "(۲۷) و"كَرَاكَهُ "(۷۲)... مع العلم بأنّ مجموعَ سفنِ الأسطولِ

 <sup>(</sup>٧٢) المقصود هنا سفن حربية كيرة سبقت عصر السفن البخارية، حيث كانت تتحرك بالشراع أو بالمجاديف
 وتحتوي الواحدة منها على عنبرين أو ثلاثة.

 <sup>(</sup>٧٢) المقصود هنا أحد أنواع الــفن الحربية الكبيرة، تصنع من الخشب وتحتوي على عنبرين.

البحـريِّ العثمانـيِّ لا يبلـغ مثلَ هذا العدد! إلا أن الأتراك لم يخسـروا في تلك المواجهةِ أيَّةً سفينةٍ من سُفُنِهِم!

وفي نفسِ الوقتِ الذي خرج فيه باربروس على رأسِ أسطولِهِ، خرج أيضًا "خادم سليمان باشا" على رأسِ حملةٍ عسكريةٍ إلى اليمنِ والهندِ، وقد تمكّن من الفتحِ واستطاع أن يُحْرِزَ نجاحًا كبيرًا ومُهِمًّا -مثل ذلك النجاحِ الذي حقَّقَه باربروس في البحر المتوسط - حتى تمكّنَ في نهايةِ الحملةِ أن يُحوِّلَ البحرَ الأحمرَ إلى بحيرةٍ تابعةٍ للتاجِ العثمانيِّ بعد إحكامِ السيطرةِ على اليمنِ وعدن، وازدادت بهذه الحملةِ سلطةُ ونفوذُ العثمانيِّين وتولدت بهذه الحملةِ سلطةُ ونفوذُ العثمانيِّين وتولدت لديهم آمالٌ جديدةٌ في إمكانيةِ الوصولِ إلى سواحلِ الحبشةِ .

كان السلطان "سليمان القانوني" قد تحرّك إلى "بوغدان" -مولدوفيا الآن- فاستطاع أن يفتحها ويحوّلها إلى واحدة من الولايات العثمانية المميزة.

### أرجو من الحق تعالى أن...

في العشرين من حزيران/يونيو عام (١٥٤١م) خرج "السلطان سليمان" في حملة جديدة على النمسا، وعندما وصل إلى "فيليبه (Filibe)" أصدر أوامِرَه إلى "بارباروس" بالتوجُّه لمساعدة الجزائر وفَكِّ الحصار عنها، بعد أن حاصرها الأسطول الإسبانيُّ، وقد تمكَّنت الجيوشُ العثمانيَّة بقيادة الوزيرين "محمد باشا" و"خُسْرَوْ باشا" من إلحاقي الهزيمة بالجيشِ النمساويِّ بقيادة "فون روجندورف (VonRugendorf)"، الذي كان يحاصرُ "بودين" قبل أن يصل جيش السلطان، وتمكنت القوَّاتُ العثمانيَّةُ من إبادة قسم كبيرٍ من الجيشِ النمساويِّ... وعندما وصلت هذه الأنباء إلى مسامع السلطان، كانت هناك بشرى أخرى قد وصلته أيضًا، وهي التي تتعلَّقُ بتمكُّنِ الأسطولِ الصغيرِ الذي كان تحتَ إمرة "قاسم باشا" من استعادة بتمكُّنِ الأسطولِ الصغيرِ الذي كان تحتَ إمرة "قاسم باشا" من استعادة

السيطرة على "بشته (Peste)" وذلك في الثاني والعشرين من آب/أغسطس عام (١٥٤١م)، (٢٠٠ وما أن وصل السلطان في وقت قصير إلى أطراف "بودين"، حتى أصدر قرارًا سلطانيًا تم بموجبه مكافأة القادة العسكريين الذين أَبْلُوا بلاءً حسنًا في الحرب.

\* \* \*

أما "السلطانة خُرُم" فمن جانبها، لم تتركِ السلطانَ وحيدًا خلال تلك الفترة القصيرة التي افترقا فيها، فقد عَبَّرَتْ عن شغفِها به وحبِّها له من خلال الخطابات الحَمِيميَّة التي أرسلتها إليه، وهكذا استطاعت أن تكسبَ قلبَ السلطان وحبَّهُ.

وقد بدأت السلطانة "خَاصَكِي" خطابَها الحميمَ إلى السلطان قائلةً: "يا سلطاني الحبيب"، ثم واصلت حديثها بكلماتٍ تُعَبِّرُ عن مدى اشتياقِها وتَأَلَّمِها الشديدِ بسبب البعاد.

وتناجي "خُرُّم" سُلطانَها الحبيبَ مخبرةً إيَّاهُ عن حالِها قائلةً:

"لو سـاًلتم عن حـالِ جاريتكـم المحترقة بنـارِ بِعَادِكم، فإنها بخيرِ بفضل عنايةِ الحقِّ ﷺ... "

> "يا حبيبي وسلطاني ويا سعادتي! تُرى كيف هو مزاجكم المبارك؟

يا ليتكم تتلطُّفون وتتكرَّمون فتُعلِمونني به بين الحين والآخر، فأنا جاريتكم المسكينة، الله يعلمُ مقدارَ النارِ التي تُحرقُني لِبُعدكم، وكم قد تحطم قلبي واحترق من لهيب فراقكم، إنني أرجو وأتضرَّعُ إلى الحقِّ تعالى ليل نهار أن يكون لي نصيبٌ فأُعفِّر وجهي بترابِ قدمِكم، وأن أرى جمالكم المبارك مرّة ثانيةً".

<sup>(</sup>٧٤) هذا الانتصار عرف باسم "نصر إيستابور"، وكلمة "إيستابور" معناها "الجيش السلطاني القوي".

لم يترك السلطانُ محبوبته "خُرَّم" أمَّ أولادِهِ من غيرِ أن يردَّ على هذه المشاعرِ المُلتهبةِ، فقد أظهرَ بشكلٍ جليٍّ مَحَبَّته لها، من خلال أبياتٍ مملوءة بالمشاعر الجيَّاشةِ، وقد أطلق على نفسه خلال القصيدة اسمًا مستعارًا وهو "مُحِبِّي"، وبإنصافٍ، فإن هذه القصيدة تُعتبرُ واحدةً من أقوى الأدلَّة على مدى حبّه وعِشْقِه للسيدة "خرم" حيث يقول فيها:

يا مَنْ أَشَارِكُه حياتي، يا حبيبتي، يا قَمَري المُضِيء
يا أنيستي يا مستودع أسراري، إنكِ سلطانة ملكات الجمال!
يا حياتي وعمري وحالي، وشراب كوثري وجنة عدني،
يا ربيعي وبهجتي ونهاري، ومصدر سعادتي وفرحي!
يا حبيبتي يا وردتي المبتسمة، يا ضيائي، ونوري وشمعي،
يا ذات اللون البرتقالي، يا لهيبي واشتياقي، يا نور ليلي في البعاد!
يا غُضني وعَسلي، يا من حفظت نفسها في غيابي،
إنكِ بمكانة العزيز لدي، ومكانة يوسف كذلك، إنكِ كلّ ما أملك!
يا إسطنبولي يا "قَرَمَانِي"، يا كلّ "بلدان العالم" ويا "بلاد الروم"،
يا بلاد "بدهشان" وبلاد "القبجاق"، يا "بغدادي" و"خرساني"!

يا شُعري المموج الملتوي، يا حاجبي المقوس، أنا مريض بتلك العيون الفاتنة، إذا ما متُّ فدمي في رقبتِكِ، المَدَد منك يا حبيبتي الجميلة! أنا عند بابك لأمدحكِ، سأظلُّ أمدحُك إلى الأبد،

قلبى مليء بالألم، وعيني مليئة بالدموع، أنا "مُحِبِّي" وعاشق ولهان! (لقد كان اسم "مُحِبِّي" هو الاسم المستعار الذي يستخدمه "السلطان سليمان" في الأشعار التي كان ينظمُها (٥٠٠٠).

<sup>(</sup>٧٥) سلطان سليمان القانوني، " أشعار غزلية للسلطانة "خُرُم"، منشورات COGITO، إسطنبول - ١٩٩٥م، العدد: ٤، ص ١١٣.

## حدثٌ أليم: وفاة ولي العهد محمد

في عام (١٥٤٣م)، لم يكن قانون "الأكبريَّة" (١٧٠٠)، قد طُبِّق بعدُ في الدولة العثمانيَّة؛ لذا فقد قام "السلطان سليمان" — وهو أبّ لخمسة أبناء حينها (١٧٠٠) – بتعيين ابنه الثاني الأمير محمد الذي كان يبلغ من العمر اثنين وعشرينَ عامًا وليًّا للعهد، وقام بإرساله إلى أقربِ ولاية من إسطنبول، وهي ولاية "صاروخان (Saruhan)" (مانيسا/Manisa) (١٠٤٨م) (١٠٠٠) ليكون حاكمًا عليها، لكنَّ الأميرَ محمدًا قد وافَتُهُ المنيَّة؛ نتيجة الإصابة بمرضٍ فجائيً باغتَهُ في أواسطِ عام (١٥٤٣م)، وهكذا عاش "سليمان القانونيُّ" الذي باغتَهُ الثامنة والأربعينَ من عمرِهِ هو وزوجته "خُرُّم" أُولى وأكبرِ أحزانِ بليخ الثامنة والأربعينَ من عمرِهِ هو وزوجته "خُرُّم" أُولى وأكبرِ أحزانِ إسطنبول، دُفِنَ في المقبرة التي أَعَدُّها القانونيُ خِصِيصًا له، حيث زُيِّنت إسطنبول، دُفِنَ في المقبرة التي أَعَدُّها القانونيُ خِصِيصًا له، حيث رُيِّنت لها، تعودُ إلى القرن السادس عشر، وأصبح مكانُ ذلك الضريح في المنطقة التي عُرِفت فيما بعدُ باسم وأصبح مكانُ ذلك الضريح في المنطقة التي عُرِفت فيما بعدُ باسم "شَهْزَادَه بَاشِي (Şehzadebaşı الإمثر)."

<sup>(</sup>٧٦) كان هذا بمثابة مبدأ ينص على تعيين أكبر الأمراه سنًّا ليكون وريثًا لعرش السلطنة.

<sup>(</sup>٧٧) - كان الأمير مصطفى يبلـغ في ذلك الوقت الثامنة والعشرين من العمر، أما الأمير "محمد"، فكان يبلـغ الثانية والعشرين، و"الأمير سليم" الناسعة عشر، والأمير "بيازيد" السابعة عشر، والأمير "جهانجير" الثانية عشر.

<sup>(</sup>٨٩) إن تعيين السلطان "سليمان القانوني" الأميز "محمد" وليًا للعهد يتيين من توليته إياه حكم إحدى الولايات القريبة من عاصمة الدولة مثل "صاروخان"، والروايات التي تذكر أنه كان أحب أبنائه إليه، ووضع السلطان "القانوني" عرشا خشيبا صغيرا فوق ضريحه بعد وفاته. (ذانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الناني، ص ٢٤١).

<sup>(</sup>٧٩) تم البده في حزيران/يونيو من عام (١٥٤٣م) في بناء "مجمع شاهزاده" الذي أقيم تحت اسم الأمير "محمد بن السلطان "القانوني"، وقد تم في البداية تشيد الضريح، وفي الثالث والعشرين من أيار/مايو (١٥٤٤م)، تم وضع حجر الأساس للجامع الذي قال عنه المعماري "بنان": "أثري في عهد التلفذة"، حيث افتتح هذا الجامع للعبادة في آب/ أغسطس من عام (١٥٤٨م)، وخلال الفترة التي استغرقها بناء الجامع، فقد شيدت كذلك عدة بنايات، شملت دار إطعام المساكين، ومدرسة للصبيان، ومشفى وخان للقوافل. (إسماعيل أورمان، "مجمع شاهزاده"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديكة، إسطنيول - ٢٠١٠م، الجزء رقم ٢٨، ص ٤٨).

# ثلاثٌ وخمسون رسالة أُرْسِلَتْ إلى ملك بولندا

في الفترة التي كان "سليمان القانوني" يجلس فيها على عرشِ الدولة العثمانيّة، كان الملك "زيجموند الأول (L. Zygmund)" جالسًا على عرش بولندا منذ عام (١٥٠٦م)، وخلال فترة حكم "سليمان القانوني" التي استمرَّت من (١٥٢٠م) إلى عام (١٥٦٦م) سواء في عهدِ الملك "زيجموند الأول" أو في عهدِ ابنه "زيجموند أوغسط (Zygmund August)" الذي جلس على العرشِ من بعده في عام (١٥٤٥م)، فقد كانت هناك فترة سلام طويلة الأجلِ بين الدولة العثمانيّة وبولندا، باستثناء بعضِ المناوشاتِ المحدودة التي كانت تقمُ على المناطقِ الحدوديّة، لقد كانت المداقة المعقودة بين الدولتين ضرورة اقتضتها المصالحُ السياسيّة لِكِلْتَا الدولة العثمانيّة كذلك تتوجّش خِيفة من أن تنضمٌ بولندا إلى ألمانيا؛ كانت الدولة العثمانيّة كذلك تتوجّش خِيفة من أن تنضمٌ بولندا إلى ألمانيا؛ حيث إن تحالفَ هاتينِ الدولة العثمانيّة للحيلولة دونَ وقوع ذلك على اتباع حياسة التعايشِ السّلمِيّ مع بولندا؛ من أجل تحييدِ هذه الدولة. (١٠٠٠) سياسةِ التعايشِ السّلمِيّ مع بولندا؛ من أجل تحييدِ هذه الدولة. (١٠٠٠)

وبعد أن امتدَّث اتفاقيَّة السلام بين كِلْتَا الدولتين لأعوام طويلة، بدأت كلَّ من الدولة العثمانيَّة وبولندا في عام (١٥٢٥م) في اتباع سياسة مشتركة وبناءة للغاية، ففي الأرشيف الرئيس للوثائق القديمة الموجودة في "وارسو"(١٠) توجدُ النسخُ الأصليةُ من الرسائل المَمْهُورة بطُرُة السلطان، التي أرسلها "سليمان القانوني" إلى ملك بولندا، حيث يبلغ مجموع هذه الرسائل ثلاث وخمسين رسالةً مُرسَلةً إلى الملك "زيجموند الأول" إلى

<sup>(</sup>٨٠) أُوجْتُومْ، المصدر السابق، ص ٧٠٨.

<sup>&</sup>quot; Archivum Glowne AKT Dawnych " ويسمى باللغة البولندية

[الشَّلطانة "خُرُم"] ------

جانب ثمانية وأربعين رسالة مرسلة إلى الملك "زيجموند أوغسط"، هذا بالإضافة إلى الخطابات التي أُرسِلت أيضًا إلى ملوك بولندا من قِبَل كلّ من الصدر الأعظم "إبراهيم باشا" و"أياس (Ayas) باشا" و"رستم باشا" و"صوكولُو (Sokullu) محمد باشا". (١٨)

## سيروا بأمر الله

من بين الخطاباتِ والرسائلِ السلطانِيَّةِ التي كانت تُرسَل من قِبَل السلطان ورجالِ الدولةِ إلى ملوكِ بولندا، التي نجدُها محفوظةً في الأرشيفِ الرئيسِ الخاصِ بالوثائقِ القديمةِ في "وارسو" نجدُ هناك أيضًا رسالتينِ مكتوبتينِ من قِبَل "السلطانة خُرَّم" قرةٍ عينِ وحبيبةِ السلطانِ "القانوني" إلى الملك البولندي "زيجموند أوغسط" (١٨٠).

وجاءت هذه الرسالة في سياقي يُوضِّح أنها كُتِبت في القرن السادس عشر، من قِبَلِ زوجةِ الحاكمِ العثمانيِ إلى ملكِ أجنبيٍّ، وتعتبرُ إقامةُ "السلطانة خُرُم" علاقاتٍ دبلوماسيةً مع ملكِ دولةٍ أجنبيّةٍ، وإسهامُاتها بشكلٍ إيجابي في الحياةِ السياسيّةِ للدولةِ العثمانيَّةِ، وهي في أوج قدرتِها، وسعيُها لتقوية وتعزيزِ بلادها، أمرٌ عظيمٌ ولم يسبقها أحد إلى مثله، فتستحقُ لأجله التهنئة والتقديرَ.

\* \* \*

إن أوَّلَ الخطابات التي أُرسلت من قبل "السلطانة خُرَّم" إلى ملك بولندا، كان خطابُ تهنئةٍ وعزاءٍ إلى الملك "زيجموند أوغسط" بمناسبة جلوسِهِ على عرشِ بولندا خلفًا لوالده "زيجموند الأول" الذي تُوفي عام (١٥٤٨م).

<sup>(</sup>٨٢) أُوجُتُومْ، المصدر السابق، ص ٧١١.

<sup>(</sup>٨٢) أُوجُثُومُ المصدر السابق ص ١٩٧.

وها هي بعض جُمَلِ الخطاب الذي أُرسِـلَ من قِبل "السـلطانة خُرَّم" إلى "وارسو" مـع رسولٍ خاصِّ يُدعى "حسن آغا":

"وصلنا نبأ تقلُّدِكم للحكم بعد وفاة والدِكم، الله المحيطُ بكلِّ شيء يعلم كم سُررنا كثيرًا وابتهجنا وملأت السعادة قلوبَنا، والفرحة والسرورُ نفوسَنا عندما عَلِمْنا بنبا تسلُّمِكم الحكم، إننا نتمنَّى لحكمِكم دوامَ البقاء والبركة والخير، وحيث إن الأمرَ بيدِ الله، فإننا نوصيكم باتباع أوامر الحقِّ ﷺ والسيرِ على الصراطِ المستقيم...

أضعف الفقيرة، "السلطانةُ خَاصَكِي" القحيرة (١٨٠٠ كما نجدُ كذلك ختمًا ممهورًا على ظهر الرسالة (٥٠٠).

وردًّا على رسالةِ الشكرِ التي أرسلها الملك "أوغسط" فقد أرسلت السلطانة مع رسولِها الخاص "حسن آغا" رسالة أخرى، وها هو ملخُصُ الرسالةِ التي ردَّت بها "خُرَّم":

"أسال الله أن يطيلَ في عُمْرِ جلالةِ الملك وأن يبارِكَ فيه ... إن الكلمات لا تستطيع أن تُعَبِّر لكم عن السعادةِ العارمةِ والفرحةِ التي شعرنا بها عند وصولِ خطابِكم العزيزِ إلينا... إن ما يحمله لنا الردُّ الواردُ بخطابكم، يُظْهِرُ بوضوحٍ عظيمَ المحبَّةِ والوُدِّ الذي تُكِنُّونه لنا.

لقد أسعدنا كثيرًا ما عبَّرتم عنه بشكلٍ جليٍّ من تقارب صادقٍ من جانبكم تجاهَ سلطاننا، إن مشاعرَ الوُدِّ التي وردت في خطابِكم، والرغبـةَ فـي الصداقـةِ التي بيُّنتموها لرســولنا (حســن آغا) عندما

<sup>(</sup>٨٤) تريد أن تقول هنا أنها: فقيرة الفقراء. المتواضعة. السلطانة "خَاصَكِي".

<sup>(</sup>٨٥) أُوجُتُومُ، المصدر السابق، ص ٧١٧.

عرضناها على حضرة السلطان وجدناه -وهو الملجأ الوحيدُ لأي إنسانِ في العالم- قد سُرُّ كثيرًا لما وَجَدَهُ منكم من تقارب ومجاملة، وقد بلغ به السرورُ إلى درجةٍ لا تستطيعُ الكلماتُ أن تصِفَها، حتى قال جنابُه:

"لقد كنتُ أنا والملكُ الأكبرُ -يقصدُ والدَه الملك "زيجموند الأول" الذي تُؤفِّي- كالشقيقين، وبمشيئةِ اللهِ الرحمنِ سنكونُ مع هذا الملكِ كالأبِ وابنهِ...".

ومن شدَّةِ ابتهاجِ سلطانِنَا، فقد أعادَ إرسالَ رسولِهِ "حسن آغا" مرَّةً ثانيةً ليمثُلَ أمام مقامِكُمُ العالي.

لِتَغلَمْ جَيِّدًا يا فخامةَ الملكِ، أنه إذا ما تمَّ الحديثُ عنكم أمام الســلطان فــي أيِّ موضوعٍ، فإنه من دواعي الســرورِ لنــا أن نتكلَّمَ عنكم بالمعروفِ، وأن نذكَرَكُمْ بكلِّ خيرٍ.

أضعف الفقيرة، "السلطانةُ خَاصَكِي" القحيرة (٩١٠)

## هل "السلطانة خُرَّم" هي المخطئة أيضًا!

كما ذكرنا آنفًا فقد استفادتِ الدولةُ العليَّةُ في عضرِ "سليمان القانوني" من إقامةِ علاقاتِ ثنائيةٍ قويَةٍ بين الدولةِ العثمانيةِ وبولندا والمؤرخون من جانبِهم أكَّدُوا بشكلٍ قاطعٍ على هذهِ الحقيقةِ، لكن بعضَ المؤرِّخينَ ادَّعَوا حكما هو الحال بخصوصِ كافَّةِ الأمورِ التي وقعت في فترةِ حياةِ "السلطانة خُرَّم" – أنَّ السلطانة سعت لإقامةِ علاقةِ صداقةٍ وطيدةٍ بين الدولةِ العثمانيةِ وبولندا من أجلِ خدمةِ مصالحِها الخاصةِ بها!

فنجد الأستاذ الدكتور "بكر صدقي بيكال (Bekir Sıtkı Baykal)" في المؤتمر الذي حمل عنوان "العلاقات التركيّة البولنديّة عبر التاريخِ"، يقول لنا:

<sup>(</sup>٨٦) أُوجَتُومْ، المصلر السابق، ص ٧١٣.

"يلا حَظُ أنه في النصفِ الثاني من فترةِ حُكْمِ "سليمان القانونيّ"، كان سفراء بولندا يفدونَ تقريبًا كلَّ عام إلى إسطنبول، ولا شكُ في أنَّ "السلطانة خُرَّم" كان لها نصيبٌ في السياسةِ التي اتّبعها "القانونيُّ" تُجاة بولندا...".

كذلك يومئ الدكتور "بكر صدقي" إلى أن السلطانة كانت تُكِنُ عاطفةً خاصَّةً تجاهَ البولنديِّين، إلا أنه يقدِّمُ لنا هذه الادعاءاتِ من غيرِ دليلِ يدعمُها.

أما الكاتب والصحفي "يِلْمَازْ أُوزْتُونَا (Yilmaz Öztuna)" فيتحدَّثُ عن قيام "السلطانة خُرَّم" بإرسال خطابات موجهة إلى ملك بولندا، كانت تخاطبُهُ فيها بكلمة "أخي"، إلا أننا لا نجدُ أيَّ وثيقة في الأرشيفِ البولنديِّ تؤكِدُ هذا الادعاء، إن "السلطانة خُرَّم" كانت حريصة في الخطاباتِ التي أرسلتها إلى الملكِ البولنديِّ "زيجموند أوغسط" على أن تخاطبَهُ قائلةً: "فخامة الملكِ"، أمَّا "نجاد أوجْتُومْ (Nejat Uçtum)"، الذي ظلَّ لسنواتٍ يعملُ مستشارًا في السفارةِ التركيَّةِ بالعاصمةِ البولنديَّةِ "وارسو"، فيَذْكُرُ لنا كلامًا يتعلَّقُ بـ"السلطانة خُرَّم"، على النحو التالي:

"إن السلطانة "خَاصَكِي" تعتبر نَفْسَهَا بولنديّة أكثر من أنها روسية؛ لأن المكان الذي وُلدت فيه حروكسلان، أي: "خُرُم" حكان يقعع في ذلك الوقت ضمن حدود الدولة البولنديّة، إن التعبيرات التي استخدمتها "السلطانة خُرُم" في المراسلات التي كانت بينها وبين "زيجموند الثاني"، تدفعنا إلى الاعتقاد بأن السلطانة "خَاصَكِي" كانت تلعبُ دورًا هامًا للغاية ومؤثرًا في السياسة الخارجيّة للدولة العثمانيّة، لا سيّما فيما يخص العلاقات بين بولندا والإمبراطوريّة العثمانية".

لكنَّ الدليلَ الذي يتحدَّثُ عنه السيد "أُوجْتُومْ" هنا لا يعدو أن يكون رأيًا شخصيًّا(١٨٠٠).

<sup>(</sup>٨٧) أُرجُتُومْ، المصدر السابق، ص ٧١٥.

إن السيد "أُوجْتُومْ" يقول في الصفحة رقم (٧٠٩) من كتابه:

"إن السلطانَ القانونيُ لم يكنْ في السنوات الأولى من حكمهِ خاضعًا علاقتِهِ مع "خُرَّم" -أي في السنواتِ الأولى من حكمهِ خاضعًا لتأثيرِها، ولهذا السبب لا نراه في تلك المرحلةِ يهتمُ بمراعاةِ سياسةِ الصداقةِ والتقاربِ مع بولندا، لكنَّنا نجدُ فيما بعدُ أنَّ علاقةَ المصالحِ المشترَكةِ بين الدولتين من ناحية، والدورُ البنَّاءُ الذي لعبَتُهُ "خُرَّم" من ناحيةٍ أخرى، قد ساهما في تمهيدِ الأرضِ لتُصبحَ مهيئةً لأنْ تبلغَ العلاقاتُ العثمانيّةُ البولنديّةُ درجةً يمكنُ أن يُطلَقَ عليها ذروةَ التكامل".

وإذا كان السلطان القانوني قد طَوَّرَ سياسةَ الصداقةِ بين بلاده وبولندا بتأثيرٍ من "خُرَم"، واستفادت الدولةُ العثمانيَّةُ من وراءِ هذه الصداقةِ من غيرِ أن يلحقها ضررٌ، فهل يَضيرُ هذا أحدًا؟ وهل يمكن اتهام "السلطانة خُرَم" بالخطا حالة كونها تقومُ بدورٍ إيجابيّ في سبيلِ تطويرِ العلاقاتِ الثنائيّةِ بين الدولةِ العليّةِ العثمانيّةِ وبولندا؟

أما الدكتور "نِعْمَة طَاشْكِيرَانْ (Taşkıran)" فيذكرُ لنا هذه العبارات:

"إن قيام إحدى نساء القصر، وزوجة السلطان، بمنتهى الحريَّة -أثناء تمركز السلطان "سليمان القانونيِّ مع جيشه في (حلب)- بكتابة خطابِ تهنئة إلى ملكِ أجنبي، لا يُعتبرُ من الأمورِ المُستساغة والمقبولة كثيرًا في تلكَ الفترةِ".

## ادعاءاتٌ واتهاماتٌ لا سَنَدَ لها

أولًا: لا يوجدُ أيُّ وثيقةٍ رسميَّةٍ نجدُها في أيِّ سجلٍ من سجلًاتِ الأرشيفِ تشيرُ إلى أن "السلطانة خُرُم" ترجِعُ بِنَسبِها إلى أصول بولنديّةٍ، وفيما يتعلَّقُ بهذه المسألةِ نجدُ أنَ المؤرِّخين قد طرحوا أمامَنا العديدَ من الاَدِّعاءاتِ المختلفةِ.

فمثلًا، نجدُ الأستاذ الدكتور "جُوكْبِيلْجِينْ" يذكرُ أنَّ "السلطانة خُرَّم" قد أُخِذَتُ أسيرةً أثناءَ الهَجَمَاتِ التي كان يشنَّها تتارُ القِرمِ على الأراضي التابعةِ في ذلك الوقتِ للدولةِ البولنديّةِ، والتي نراها تقعُ اليومَ ضمنَ حدودِ أوكرانيا.

أما "إسماعيل حامي"، فنجدُهُ يذكرُ أن هناكَ مجموعةً من الروايات من مصادرَ متنوِّعةٍ تُشِيرُ إلى أنّ أصلَ "خُرَّم" إمّا أن يكونَ روسيًّا أو بولنديًّا، ووفْقَ أقوى الرواياتِ الراجحةِ لديه، فإنه يرى رُجحانَ كونِ "خُرَّم" بولنديَّةَ الأصل، وأما "جَغَطَايْ أُولُوجَايْ"، فيقول:

"إذا كانت هناك ادِّعاءاتٌ بأن "خُرُم" هي ابنةً لأحدِ القساوسةِ الروسِ، فإنَّ هناكَ أيضًا ادعاءاتٌ تشيرُ إلى أنها قد تكونُ إيطاليَّةُ أو فرنسيَّةً".

وخلاصةُ القـولِ أنه لا يوجدُ دليلٌ قاطعٌ، يُحـدِّدُ لنا العِرْقَ أو الوطنَ الذي كانت تنتمي إليه "خُرَّم".

ثانيًا: هل بِيَدِ الإنسانِ أن يختارَ بنفسِهِ بينَ أن يُولَدَ روسيًّا أو بولنديًّا، أم هل ثَمَّةَ جريمةً في أن يولدَ الإنسانُ روسيًّا أو بولنديًّا؟ وبما أن الإنسانَ لا يَدَ له في اختيارِ عِرقِه أو لونِه أو قومِه، فإننا بالتالي لا يمكنُ أن نحاسبَهُ على أساسِ وطنِهِ أو أصلِهِ أو عِرْقِه، إننا فقط يمكن أن نُحاسِب الإنسانَ على أساسِ أفكارهِ وقناعاتِه وتصرفاتِه.

لقد قَدِمَتِ "السلطانة خُرَّم" إلى القصرِ وهي بينَ الرابعة عَشَرَ والسادسة عَشَرَ من عُمُرِها، واعتنقتِ الإسلامَ بعد أن تلقَّتْ تعليمًا دينيًّا متقدِّمًا ومكثفًا إلى حدٍ كبيرٍ، وعندما صار عُمرُها يتراوحُ بين الثامنةِ والثلاثين والأربعين أصبحُ لها إسهاماتٌ واضحةٌ في الحياةِ الدينيّةِ والاجتماعيّةِ داخلَ الدولةِ، حيث نجدُها قد أنشأت مجمَّعًا كبيرًا ضَمَّ بداخله جامعًا ومدرسةً دينيّةً ودارًا لإطعام المساكين ومدرسةً للصبيان، فهل يتوافقُ مع

العقلِ والمنطقِ الزعمُ بأن المرأة نفسَها تعملُ -لا سيّما بعد أن انتسبت للقصر وصارت زوجةً السلطانِ سليمان المبجَّل- ضِدَّ دولةٍ هي سيدتُها الأُولى، ومعشوقةُ سلطانِها، لصالحِ دولةٍ أخرى -بولندا- تعتبرُها وطنّها، لكونِها مَحَلَّ ميلادِها فحشب؟!

ثالثًا: هل كانت علاقة الصداقة التي عملت "خُرُم" على عقدِها مع ملكِ بولندا، تتنافى مع السياسة التي كانت تتبِّعُها الدولة العثمانيَّة مع الدولِ الأوروبَيّة، وهل سببت تلك العلاقة ضررًا للدولة العَلِيَّة، وهل تأثَّرت الدولة العثمانيَّة بشكلٍ سلبيّ من جراء التقاربِ الذي حدث بين "السلطانة خُرُم" وملكِ بولندا؟ إننا لا نجد في المصادرِ التاريخيَّة أيَّ وثيقة أو رأي يُشيرُ إلى أيّ ادِعاء مما سبق.

رابعًا: هل كانت "السلطانة نحرَّم" تقيم هذه العلاقات خُفْيَةُ دون علم زوجها "السلطان سليمان"؟ ليسَ كذلكَ أبدًا؛ فالتعبيراتُ الواردةُ في الخطاباتِ تفيدُ وتبيِّنُ بوضوحٍ أنَّ هذه المراسلاتِ كانت تَتِمُّ بِعلمِ ومعرفةِ السلطان.

النتيجة: إن الاعتمادَ على خطابيْنِ كَتَبَتْهما "السلطانة خُرُم" -التي لم يتأكّـ لم بشكلٍ قاطعٍ أنها بولنديّةُ الأصلِ- إلى ملكِ بولندا، للحُكْمِ عليها بأنها كانت تسعى لإيقافِ حملةٍ عسكريّةٍ عثمانيّةٍ على بولندا، وتُكافِحُ من أجلِ إنقاذِ أبناءِ شعبِها من الفناء! ليس ادعاءً يفتقر إلى دليلٍ فَحَسْب، بل إنه اتهام عَبَثِيّ لا أصلَ له.

إن أصحاب هذه الادعاءات يَهدِفونَ من وراءِ هذه الاتهاماتِ التي وجَهوها للسلطانة "خُرُم"، إلى القول بأن سليمان القانوني، الذي عُرِف واشتهر في العالم الغربيّ بلقبِ "سليمان المعظّم"، كان يَعْمَل ضِدَّ مصالح

الدولةِ العثمانيَّةِ بسببِ عشقِهِ امرأةً أوروبَيَة الأصلِ، وبُغْيتُهم من وراءِ ذلكَ زعزعةُ مكانةِ هذا "الحاكم العظيم"، ومِن ثَمَّ فإن اتهاماتِهم تظلُّ وستظلَّ بلا قيمةٍ لأنها تفتقدُ إلى البَرهَنةِ المنطقيَّةِ والتوثيقِ العقلانِيَ، كما أنَّ القولَ بأن "السلطانة خُرَّم" كانت تُحرِّك وتوجِّه بمفردِها السياسةَ الخارجيَّة للدولةِ العثمانيَّةِ، إنما يَنُمُّ عن جهلٍ وعدم معرفةٍ بالدولةِ العليَّةِ العثمانيَّةِ وإدارتِها.

## مجموعة هدايا بقيمة عشرة آلافِ ليرةٍ

في الشهور الأولى من عام (٤٨٥٥م)، كانت الاعتداءات الإيرانية على الحدود لا تنقطع، كما تمكن الصفويُّون من احتلالِ عِدَّةِ أماكنَ وعلى رأسِها قلعةُ "وَانْ (Van)"، كما عمِلَ الصفويُّونَ بِدَأَبِ على نشرِ المذهبِ الشيعيّ في أعماقِ الأناضولِ، وبذلوا كلّ طاقاتهم في الدعايةِ والإعلان لنشـرِ مذهبهم، كان السـلطانُ قد عقـدَ قبلَ ذلـك التاريخ بعام قد اطمأنَّ إلى أنَّ الجبهة الغربيَّة قد أصبحت في مَأْمَنِ، وحانَ الوقتُ للانتهاءِ من المشاكلِ التي يُسبِّبُها الإيرانيون، وفي ذلك الوقت حدث تطوُّرٌ آخرُ غير متوقّع؛ حيث إن "ألكاس مرزا (Elkas Mirzâ)" شقيقَ الشاهِ الإيرانيّ "طهمسب الأول" وحاكم ولايةِ "شيرفان (Sirvan)" الإيرانيّةِ كان يَظْمَـح إلى الحكم، لكن نتيجةً للضغوطِ التي مارَسَـها أخوهُ الأكبرُ عليه، اضطـرً إلـى الفرارِ هو ووزيـرُهُ وبعضُ أركانِ الدولة، وجاءَ إلى إسـطنبول عن طريق "القبجاق" و"القرم"، في تلك الأثناءِ كانَ السلطانُ مقيمًا في قصرِ "أدرنه"، وعندما علِمَ بقدوم الأميرِ الصفويِّ لاجِئًا وطالبًا العونَ، أمرَ بإنزالِهِ ضيفًا في القصرِ، كما أمرَ بتوفيرِ كاقَّةِ متطلباتِهِ. أبدى القانونيُّ اهتمامًا كبيرًا وعنايةً بالأميرِ "ألكاس مرزا"، وبعدَ يومينِ من وصولِهِ إلى إسطنبول أقامَ لهُ مأدُبَةً عظيمةً، بالإضافة إلى ذلك فقد أمرَ بإقامةِ ولائمَ على نفسِ الدرجةِ من الفخامةِ من أجلِ وزرائِهِ وأعوانِهِ.

وقد أسهبَتِ المصادرُ العثمانيّةُ طويلًا في وصفِ الهدايا التي قدَّمها السلطان وزوجتُه إلى الأميرِ الصفويّ، وتحكي لنا تلك المصادرُ أنه كان من ضمنِ الهدايا التي أُرسِلت بعدَ يـومٍ من إقامةِ المأدبةِ التي أمرَ بها القانونيُّ في القصرِ، أكياسٌ وأطقمُ حُليّ من الذهبِ والفضَّةِ، وأقمشةٌ ثمينةٌ، وقِطَعٌ نادرةٌ من الفراءِ، وسروجٌ مذهّبَةٌ ومُرصَّعة ومراكبُ فخمةٌ، وسيوفٌ وأسلحةٌ متنوّعةٌ، وعبيدٌ وجوارٍ، وأحصنةٌ وبغالٌ.

وتحكي لنا المصادر أيضًا عن الهدايا التي أرسلتها "السلطانة خُرَّم" التي تُقَدَّر قِيمتها بما يزيد عن عشرة آلافِ ليرَة ذهبيّة، ومن بين هذه الهدايا كانت توجد القمصان الحريريّة التي خاطَتْها بيديها، والملابس المزيَّنة بأشرطة ذهبيّة وفضيَّة، والألحِفة والأرضيّات والوسائِد والمفروشات المشغولة بالذهب (٨٠٠).

وكما ذكرنا، فإن السلطانَ بعدَ أن اطمأنَّ إلى استقرارِ الأوضاعِ على الجبهةِ الغربيَّةِ، عَقَدَ العزمَ على الخروجِ على رأسِ حملةٍ عسكريَةٍ متوجِّهًا إلى إيران، وكان قدومُ الأميرِ الصفويِّ اللاجِيْ عاملًا مؤثِّرًا في إسراعِ السلطانِ في اتِّخاذِ هذا القرار، ولكنَّ بعضَ المصادِر تشيرُ إلى أنَّ الأميرَ الصفويُّ "ألكاس مرزا" وقبلَ فراره إلى إسطنبول باتَتْ لديه قناعةً بالعملِ لحسابِ الدولةِ العثمانيّةِ، وتذكرُ لنا هذه المصادرُ أيضًا أنَّ الأميرَ الصفويُّ كانَ الهدفُ كانَ الهدفُ

<sup>(</sup>٨٨) فَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ٢٥٤-٢٥٥.

من وراءِ ذلك هو القضاءُ على التشيُّعِ الإيرانيِّ، وإعادةِ إحياءِ المذهبِ السُّنِيِّ في الدولةِ المجاورةِ، إلى جانب القضاءِ تمامًا على الخطرِ القادمِ من الشرقِ.

أما المصادر الغربية فتزعم أن "السلطانة خُرَّم" كان لها دورٌ في الحملة العسكريّة التي وُجِهت إلى إيران، وبناءً على هذه المصادرِ فإن السلطانة كانت تُخطط لاستغلال هذه الحملة في سبيلِ أن تجعل وراثة السلطنة في أبنائها، كذلك فقد كانت "خُرَّم" تريدُ أن يكونَ ابنُها "بيازيد" هو ولي العهدِ بدلًا من الأمير مصطفى، ولتحقيق تلك الغاية فقد أخذت تُمَهِدُ الطريق؛ لكي تُمسِكَ مقاليدَ أمورِ الدولةِ في يديها.

...

بدأ الجيشُ السلطانيُّ في التحرُّكِ من إسطنبول بتاريخ الثامن والعشرين من نيسان/إبريل من عام (١٥٤٨م)، واستطاع أن يَصِلَ "تبريز" في أو اخرِ يوليو، وخلالَ فترةٍ وجيزةٍ تمَّت السيطرةُ على المدينةِ من جديد كما تمَّ تطهيرُها من الشيعة، وبحلول أو اخرِ أيلول/سبتمبر، بدأ السلطانُ في التحرُّكِ إلى "وَانْ" حيث تمكَّنَ من استردادِها مرَّة أخرى، بعد ذلك وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر عام (١٥٤٨م) توجّة السلطانُ إلى "حلبَ" مارًا بمدينةِ "ديار بكر" حيثُ عقدَ العزمَ على قضاءِ الشتاءِ هناك .

## فليُخسَفْ بهِ كما خُسِفَ بـ"قارون"

أثناء الفترةِ التي مكنَها السلطانُ في "حلب" من أجلِ قضاءِ فصلِ الشتاءِ، لم تكنُ تتأخَّرُ عنه أيضًا خطاباتُ "خُرَّم" المُشبَّعةُ بالدعاءِ لهُ وتمنياتِ الشفاءِ، وها هي "السلطانة خُرَّم" تُناجي -من جديد- السلطان

الحبيبَ النِّذي يلهُ و مع الجِيادِ في رحلاتِ الصيدِ التي كان مُولعًا بها، فتكتبُ لهُ قائلةً:

"سلطاني الحبيب، إنّني أَلْهَجُ بالثناءِ والدعاءِ الفّ مرّةِ ومرّةٍ، وأفتِلُ بديـك المباركتينِ، مُعفِّرةً وجهيَ تحتّ قدميك، وأنا أحمِلُ بداخلي ألفَ لَوْعةِ اشتياقٍ، تخرجُ من قلبي وروحي ولساني...

"يــا نــور عيني، يا ســلطاني الــذي أفديه بروحــي، إنّ أمَلِي أن تتقبَلَ اشتياقي العظيم من جاريتكم التعيسة...

سلطاني، كيف مزاجُكُمُ الشريفُ المباركُ، وهامتُكُم المباركةُ، وقدميكُمُ المباركةُ، وقدميكُمُ الطاهرتين، وجوارحُكم جميعها؟ أتمنَّى أن تكونَ بإذنِ اللهِ في خيرِ صحَّةٍ وعافية، إن كلَّ طلبي من الباري ﷺ، هو أن يتكرَّمَ ويصونَ ذاتَك الشريفة من كلِّ الأخطارِ والبلايا، وأن يجعلَكَ على الدوام في حفظِه ورعايتِهِ، أطالَ اللهُ عمركَ مثل نوح اللهُ " (٨٩).

• • •

وتتابعُ السلطانةُ في خطابِها شرحَ ما بها من ألمِ الفراقِ ونارِ الحسرةِ: "سلطانيَ المُبَجَّلُ، يـا نـوزَ عينَيً، وسـلوان قلبي، يـا منبـغ حسرتي التي أصبحت تفوق الكون كله جزاءَ البعد عنك !.

يا ليتكم تتكرّمون بالسؤال عن حالي البائس لبعدكم، لقد احترق كبدي من الألم والحسرة، وتذفّقت الدموع من عيني كالسيل من وجع الفراق، والله وحده الذي يعلم ما أعانيه بهذا البعاد، وكيف أنني سئمتُ ومللتُ كلَّ شيء بعد غيابكم عني، والله إنني لا أستطيع أن أصف فرحتي أو أعبّر عن بهجتي عندما أرى جمالكم قد لاح لي، يعلم الله أنني أحترق ليلا ونهارًا من لهيب الفراق وحسرة البعاد، يعلم الله أنني لم أعد أعرف طعم الراحة بعدك، فأنا لا أجدُ خيرًا أو هناءة ما دمتُ بعيدة عن ترابِ قديك المباركة".

<sup>(</sup>٨٩) الخطاب كان مكتوبًا باللغة التركية العثمانية المليثة بالكلمات العربية والفارسية.

٨٤ ----- [خُرَم ومِهْرمَاهُ]

## السلطانة تنقلُ المعلوماتِ إلى السلطان:

"سلطاني العزيز، لقد حدثَتْ جَلَبةٌ في المدينةِ عندما أُشيعَ أَنَّ البشيرَ قادمٌ، وأخذَ الناسُ يستعدُّونَ لتزيينِ المدينة؛ ينتظرونَ لنزيينِ المدينة؛ ينتظرونَ دخولَ البشيرِ، في الوقتِ الذي تُعَسْكِرُ فيه يا سلطاني العزيز بقواتِكَ في "حلبّ"، ولما لمْ يُقبَضْ على أيِّ من ذوي الرؤوسِ الحمراة (تقصدُ الشيعةَ الصفوتِينَ)، فلن يكونَ هناكَ أيُ جديدِ على الساحةِ؛ ومِن شَمْ فإن قدومَ البشيرِ لن يفرِحَ أحدًا، بل قد تحومُ الشائعات: تُرى أيأتي البشير ليخبر بأن حضرة السلطان سيقضى الشتاء في حلب؟".

...

"خُرُّم" تنهي خطابها بالدعاء على الشاه "طهمسب":

"أسأل الله على الله الله الله الله على هـذا الملعون في أقرب وقت، ويهلكه، ويجعل عاقبته كعاقبة "قارون" (''').

يظهر لنا هذا الخطاب المليءُ بالحبِّ والمشاعرِ، الذي أرسلته "السلطانة خُرَّم" ذات الخامسة والأربعين عامًا إلى زوجِها السلطان القانونيّ ذي السادسة والخمسين عامًا، يظهرُ لنا بشكلٍ جليّ للغاية مقدارَ المحبّة العميقة والقويَّة التي كانت تجمعُ "خُرَّم" و"سليمان". (١٠)

\* \* \*

<sup>(</sup>٩٠) أُولُوجَائ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول - ٢٠٠١م، ص ٦٦-٦٤.

<sup>(</sup>٩١) يذكر لنا "تشغطاي أولوتشاي" في كتابه الذي صدر عام (١٩٥٦م) تحت عنوان (رسائل من الحريم) أن هناك سمية خطابات قد أرسلت من "السلطانة خُرُم"، إلا أن المؤلف يغيرنا أنه بعد صدور الكتاب قد ظهر خطاب آخر جديد في مكان آخر بنسب إلى "السلطانة خُرُم" وذلك تحت اسم مختلف، وهكذا فإن مجموع ما قد نسب إلى "السلطانة خُرُم" من خطابات أرسلتها إلى السلطان "القانوني" يبلغ ثمانية خطابات بناءً على ما يذكره صاحب الكتاب.

تحرُك القانوني من "حلب" على رأسِ الجيشِ السلطانيِّ في حزيران/ يونيو من عام (٩٤٩م)، واستطاع أن يصل إلى إسطنبول في الحادي والعشرين من كانون الأول/ديسمبر بعد أن مر بطريق "ديار بكر"، وفي مراسلاته مع الحكام الأصدقاء ذكر أنه قد تمكن في تلك الحملةِ العسكريَّةِ من أن يفتحَ إحدى وثلاثين مدينةً (٢٠).

## شائعات حولَ "القانونيِّ"

بحلول عام (١٥٥٣م) كان هناك أربعة أبناء ذكور أحياء للسلطان القانوني" وهم "سليم" و"بيازيد" و"جِهَانْجِز" والأمير مصطفى أكبَرُهم سنًّا، كان الأميرُ مصطفى في عامِه التاسيع والثلاثين أمّا الأمير "سليم" فكان في الثلاثين من العمر و"الأمير بيازيد" في الثامنة والعشرين أما "الأميرُ جِهَانْجِرْ" فكان في الثائثة والعشرين، كان السلطان سليمان يقتربُ من سنِّ السيّين وكان تقدُّمهُ في السنِّ يزيدُ من قلقِ أبنائِهِ حولَ من سيخلُفُهُ في الحكمِ من بينهم، كان الأميرُ مصطفى قد تلقّى تعليمًا جيّدًا، كما كان محبوبًا من قبل العسكرِ (الإنكشارية) وكذلك من قبل المثقفيين، وكان ذلك لمزاياه التي شملت صلابة الشخصية إلى جانبِ الجِدّيّة والأخلاقِ الحميدة التي كان يمتلِكها، وبالنظرِ إلى سِنّهِ ووضعِهِ النذي كان قائمًا فقد كان الأمير مصطفى يُنظَرُ إليه على اعتبارِ أنه هو السلطانُ القادم (١٠٠).

في تلك الأثناء كانت الحملاتُ العسكريَّةُ التي يقودُها "سليمان القانوني" سواءً إلى الشرق أو الغربِ قد نالت منه وأرهقَتْهُ، وفي الأعوام الأخيرةِ أصبحَ "السلطان سليمان" يديرُ الحملاتِ العسكريَّة الموجَّهةِ

<sup>(</sup>٩٢) أَكْسُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٠٧.

<sup>(</sup>٩٣) أُوزُونُ جَارَشِيلِي، المصدر السابق، ص ٤٠١.

إلى الغربِ من خلالِ وُزَرَائِهِ دونَ أن يخرجَ بنفسِهِ إلى أرضِ المعركةِ، وفي مواجهةِ تجاوزاتِ الصفويِّين واعتداءاتِهم على "أرضروم" و" أخلاط (Ahlat)" فقد قام القانونيُّ بإرسالِ الصدرِ الأعظمِ "رستم باشا"، مما نتَجَ عنه انتشارٌ للشائعات المتلاحقة بين الشعب والجيش.

وقد كانت القناعة أو الرأي العام السائد في تلك الحقبة من الزمان يُحَمِّل السلطان من المسؤوليات بقدر ما يحمِلُ لهُ من تبجيلٍ وتقديرٍ وتقديسٍ واحترامٍ، وبناء على هذه الفكرة فإنَّ السلطانَ العثمانيُّ كان يُمثِّلُ في النفوس الرجلَ المقدَّسَ والقويُّ الذي يُجَسِّدُ أكبرَ قوَّةٍ مادِّيَّةٍ وروحيَّةٍ على وجهِ الأرض والذي لا يحقّ لهُ أن يشكوَ التعبَ أو يطلبَ الراحة، وكانت أبسطُ نقطةِ ضعفٍ لدى من يشغلُ هذا المنصبَ تؤدِّي إلى انتقاداتٍ كبيرةٍ بسببِ حماسةِ الروحِ القوميّةِ الهائجة (١٤).

"صولاك زاده" يشرح لنا على النحو التالي حال الجيش:

"يتردد بين العسكر أنه بسبب كبر سن السلطان وتدهوُرِ حالته الصحيّة فإنه لم يعد يستطع أن يخرجَ بنفسه على رأس الحملات العسكريَّةِ ويُفَضِّلُ أن يرسلَ الصدرَ الأعظمَ على رأسِ الجيشِ، كما يتردُّدُ كلامٌ يفيد بأنّ هناك رغبةً في تولية الأمير مصطفى مقاليدَ البلادِ وإجلاسه على العرش ولكن "رستم باشا" يحول دون ذلك "(۵۰).

<sup>(</sup>١٤) - أَكْسُونُ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢١٤.

<sup>(</sup>٩٥) هناك أخبار قد انتشرت بين صفوف الجيش السلطاني وقد أصبحت هذه الأخبار التي لا يعقل بعضها على لسان الجنود والتي صارت تمال الأجواء تقول أن: "السلطان قد أصبح كبيرًا للغاية في السن وقد أنعبته الحروب ونالت من عافيته، ولم يعد بإمكانه بعد اليوم أن يعمل أو أن يشترك في الحروب، من أجل ذلك فقد قام السلطان بتنصيب "رستم باشا" كحاكم على الأناضول، لكن "رستم باشا" كان هو المانع الذي يحول دون تحقيق رغبة السلطان في تنصيب أمير الحق والانصاف الأمير السلطان مصطفى على العرش!" وقد أصبحت هذه الأحاديث والأقوال هي محور حديث الناس كلهم في الروحة والإياب. (ذابشتند، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٧٩٩.

## سقوط الأمير في الفَخِّ

المؤرخ الكبير "بَجُوِي (Peçevî)" يسجل لنا ما يلى:

"لقد كان الأمير مصطفى الذي يقتربُ من سنّ الأربعين يتمتّعُ بشخصيّةٍ مميزةٍ لدرجةِ أنها قد أثارَتْ غيرةَ باقي الأمراءِ، حيث كان منبعُ تلك الغيرةِ ما يتحلّى به الأميرُ مصطفى من علم ومعرفةٍ إلى جانبِ الكرمِ والمهارةِ العسكريّةِ، كما كانت أغلبيّةُ العسكرِ تتكادُ تكونُ مُجْمِعةٌ قلبًا وقالبًا على حُتِهِ، (١٠) وبناءً على ما يذكرُه "بَجَوِي" فإن بعض الأشخاصِ الأرذالِ والسّفَلةِ قد تقرّبُوا من الأمير مصطفى وأخذوا يبثُّونَ في عقلِهِ أمورًا ويقنعونَه ببعضِ الأفكارِ، حتى استطاعوا أن يخدعوا الأمير الساذج طيّبَ القلبِ، وتمكَّنُوا من أن يُحَرِّضُوه على التمرُّدِ ضدَّ والدهِ، كان الأمير يستندُ إلى الشعبِ وقوّةِ الجيشِ، فقام بجمعِ العسكرِ من أجل المسيرِ إلى الوزيرِ الأعظم، وخلاصةُ الأمرِ أنّ الأميرَ قد ضلِّلَ بشكلٍ أو بآخرَ عن سبيلِ الصوابِ واستطاع ذووا الأمرَ الشيطانيّةِ أن يُقنِعوهُ برفع رايةِ العصيانِ ضدَّ والدِه.

عندما أُبلِخَ السلطانُ أن ابنه مصطفى يدَّعي بأنَّ لهُ الحقّ في تولّي حكم السلطَنَةِ، وعلى الرغم من وجودِ عدّةِ وثائِقَ تُؤكِدُ ذلك، فإنه لم يقبلْ تلك الادّعاءاتِ، وأصرَّ على رأيهِ مخاطِبًا "رستم باشا" الذي جاء له بوثائقَ تُثبتُ ما نُسِبَ إلى الأمير مصطفى:

"حاشا لله أن يتجرزاً الأمير مصطفى فتصدر عنه مثل تلك الوقاحة، وليس من المعقولِ على الإطلاق بالنسبة لمكانته أن تصدر عنه مثل تلك الأعمالِ! لكن بعض المفسدين الذين يميلون للأمير مصطفى يسعَوْنَ بالبهتانِ للإدعاءِ والقولِ بأن يكونَ الملكُ له!

<sup>(</sup>٩٦) - دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٨٠.

حــذارِ، فــلا تعيد مثلَ تلك الكماتِ على لســانِكَ مرّةُ أخرى، ولا تشــع تلك الأكاذيب!".

إضافةً إلى ذلك فإنّ السلطانَ لم يرد أن يكتفي فقط بالكلمات، بل إنه تعمَّدَ أن يضعَ حدًّا لما يُثَارُ من شائعاتٍ فقرّرَ أن يشتركَ بنفسِهِ في الحملةِ العسكريّةِ الموجَّهةِ إلى "ناخشيفان (Nahcıvan)" ضد شاه إيران، وفي هذا الصددِ نجدُ أنّ هناكَ مقولةً تُنْسَبُ إلى "السلطانة خُرَّم" وهي:

"لا بدّ للشاهِ من شاهِ يواجهه !)"(١٧)

وإذا نظرنا إلى هذه العبارةِ، فهمنا عبقرية السلطانة ووجدنا مدى عمقِ إدراكِها وفهمِها الواسع لأمورِ الدولة. (١٨٠)

## أيهما ينتصرُ: عاطفة الأبوِّق أم الحرصُ على سلامةِ الدولةِ وبقائها؟

خرج "سليمان القانوني "في أواسط عام (١٥٥٣م) في حملة على "ناخشيفان"، وطوال فترة سفره كانت تأتيه أخبار سلبية تتعلَّق بابنه مصطفى، لقد كانت التقارير الوافدة إلى السلطان تؤكد أن الأمير مصطفى عاقد العزم على المضي في طريقه للاستيلاء على العرش، ومن أجل تحقيق هذه الغاية فإنه قام بالتحالف مع الصفويين، وإلى جانب هذا وظنًا منه أن ذلك قد يدعم موقِفه ويعينه على بلوغ هدفه فقد أطلق لحيتة المناد.

حرص "السلطان سليمان" عندما عُرِضَتْ عليه هذه الادعاءاتُ المتعلِّقَةُ بابنِه على دراستِهَا بشكلٍ دقيقٍ وجادٍّ، كما اعتمدَ على مصادرَ مختلفةٍ استطاعَ من خلالِها أن يستقيّ المعلوماتِ الصحيحةَ التي كان

<sup>(</sup>٩٧) كانت "السلطانة خُرُم" تريد أن تقول أن السلطان عليه بنف أن يتحرك لملاقاة شاه إيران.

<sup>(</sup>٩٨) أَكْسُونُ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣١٥.

<sup>(</sup>٩٩) كان يفهم قيام أحد الأمراء بإطلاق لحيته على إنه بمثابة أنه إعلان للشمرد والعصيان على السلطان، ومن أجل هذا السبب فإن الأمراء العثمانيين لم يكون أحدهم منهم يطلق لحيته إلا بعد أن يعتلى المرش.

يبغي الوصولَ إليها دون ميولٍ أو عاطفةٍ، وبعد الفحصِ والتدقيقِ أصبحَ السلطانُ على يقينِ من وجودٍ فِكرةِ التمرّدِ لدى ابنِهِ مصطفى.

...

كان السلطانُ "سليمان القانوني" حاكمًا يُبدي اهتمامًا كبيرًا بالحفاظِ على الشرعيّة وعدم انفراط عقدها وعدم إتاحة المجال أمام أيّ فرصةٍ قد تؤدّي إلى إلحاقِ الأذى بالشعب أو حدوثٍ حربٍ أهليَّةٍ تُسالُ فيها الدماء، نقد كان حرصه على الدولةِ فوق أيّ نقطةِ ضعفٍ إنسانيّة وكان يعتبِرُ أن استيلاء والده السلطان "سليم ياووز" على العرشِ خطأً أدّى إلى تضغضُعِ أركانِ الدولةِ، ولقد استفسرَ عن هذا الموضوعِ من "حسن جان" صديقِ واللهِ، كان شروعُ ابنهِ في الصراعِ من أجلِ الحكم سيفتحُ الطريقَ أمام حدوثِ الانقسام في الدولةِ فيما بعد، لقد كان "سليمان القانوني" عاقدًا العزمَ على أن تظلَّ الدولة العثمانيّة دولة خالدةً، وكان حرصُه على سلامةِ الدولةِ والحفاظِ على قوانينِها فوق كلِّ شعورٍ آخرَ لديه، بل لقد كان هذا الحرصُ حتى فوق عاطفةِ الأبوّة وأغلى منها(١٠٠٠).

#### لقد اختار بقاء الدولة

لقد ظلَّ القانونيُّ متردِّدًا لعدَّةِ مرَّاتٍ خلالَ فترةِ حملةِ "ناخشيفان"، لقد كان يتأرجَحُ بينَ عاطفةِ الأبوَّةِ وبقاءِ الدولةِ، لكنَّهُ بعدَ اجتيازهِ لقصرِ "كَرَمَانْ أَرَغْلِسِي" ووصولِهِ إلى منطقة ِ "آق تبه (Aktepe)" كان قد اتُخذَ قرارَهُ النهائي، وكان اختيارُه أن يقف إلى جانبِ مصلحةِ الدولةِ، في تلك الأثناء كان الأمير مصطفى مكلَّفًا بأن يشتركَ هو الآخر في الحملةِ، حيث جاءَ مع عسكرِهِ وأقامَ خيمتهُ بعد أن انضمَّ إلى الجيشِ السلطانيِ.

<sup>(</sup>١٠٠) - أُكْتُمونُ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣١٥.

وفي اليوم التالي وبموجب النظام المُتَّبَع، توجَّه كبارُ رجالِ الدولةِ نحرَ خيمةِ الأميرِ مصطفى، وقبَّلوا يَدَهُ وهم مرتدون زيَّ التشريفات، وتلى ذلك أن توجَّه الأمير مصطفى أيضًا إلى خيمةِ الديوانِ السلطانيِ من أجلِ تقبيلِ يدِ والدِهِ هو الآخر، قام الوزراءُ بتحيّةِ الأمير مصطفى، وساروا أمامَ محتى أتوا به إلى خيمةِ والدِهِ السلطان، عندما دخل مصطفى إلى الفُسطاطِ المبسوطِ لم يتمكَّنُ من رُوْيةِ والدِهِ، حيث وجدَ في استقبالِهِ هناك سبعة من الجلادين الخرس، وبعد أن استوعب الأميرُ الموقف، بدأت فترة طويلة من التعاركِ بينه وبينَ الجلادين العاملين في خدمةِ والدِهِ والذين أخذوا يعملون على خيقهِ، وعلى الرغمِ من أنه قد نجح في البداية أن يهربَ ويحرِّرَ نفسَهُ من بين أيديهِم، لكنَّ نجاتَه من بينِ أيديهِم لم تدُمْ طويلًا، فقد أمسكَ بهِ "زال (Zal) محمود آغا" هذه المرّةِ وشرعَ هو ومن معهُ من الجلادينَ في خيقهِ إلى أنْ تمَّ إعدامُه خيقًا.

# فَقَدَ السلطان ولديه في شهرٍ واحدٍ

لقد أحدث مقتلُ الأميرِ مصطفى صدمةً في الجيشِ حيث أخذَ قُدامى المحاربين في البكاءِ، وأعرَبُوا عن انزعاجِهِم مُحَمِّلينَ الصدرَ الأعظمَ "رستم باشا" المسؤولية الكاملة عن هذه الحادثة، كان "السلطانُ القانونيُ" باعتبارِهِ رئيسَ الدولة يتصرُّفُ بأعصاب باردة، وقامَ بعزلِ الصدرِ الأعظمِ في حضورِ الوزراءِ، كما أمرَ بأن يُؤخذَ الختمُ السلطانيُّ منه، بعد ذلك عيَّنَ السلطانُ "قره (Kara) أحمد باشا" صدرًا أعظمَ جديدًا، ويُروى أنَّ "قره أحمد باشا" عديدٍ من قبِّلِ الجيشِ، وكان مواليًا للأميرِ أحمد باشاً الله يأتي إلى حضرةِ السلطان "نه أرسلَ إليه خبرًا بألا يأتيَ إلى حضرةِ السلطان "نه.

<sup>(</sup>١٠١) يروى أن السلطان "القانوني" أواد أن يؤم بنفسه صلاة المجنازة على روح ابنه الأمير مصطفى لكنه اضطر أكثر من مرة إلى الخروج من الصلاة بسبب دخوله في حالة من البكاء الشديد. (أَكْشُونُ، المصدر السابق، المجزء الأول، ص ٢١٦).

وتُظْهِرُ التطوَّراتُ التي وقعتُ بعدَ وفاةِ الأميرِ مصطفى أن السلطانَ قدْ أصدرَ قرارَهُ بإعدام ابنِهِ الحبيبِ تحتَ ضغطِ مشاعر يَضْعُبُ التعبيرُ عنها؛ إذ عاشَ أوجاعًا وآلامًا نفسية شديدة، وتحرَقَ فؤادُهُ مثل أيّ أب، إن هذا القرارَ الصعبَ الذي اتّخذه "القانونيُّ" لم يقف ورائه سوى خوفه على سلامةِ الدين وبقاءِ الدولة، ونجدُ أن السلطانَ بعدَ ذلكَ قد أخذَ يُكافِئُ أولئكَ الذين كانوا مقرَّبينَ من الأمير مصطفى، كما أثنى كذلكَ على الذين قاموا بخدمَتِهِ منهم.

وبينما كان يتمُّ نقلُ نعشِ الأمير مصطفى إلى مدينةِ "بورصه (Bursa)"، كان الجيشُ السلطانيُّ يواصلُ تقدُّمَهُ في حملتِهِ العسكريَّةِ حيث وصلَ إلى "حلب" وقضى الشتاءَ هناك.

. . .

وبينما كان القانونيُّ معسكِرًا في "حلب" كانت تنتظرُهُ فاجعةٌ جديدةٌ مؤلِمةٌ، فلقد مرضَ ابنه الأصغرُ الأمير "جِهَانْجِرْ (Cihangir)"، حيثُ سقطَ طريحَ الفراشِ من شدَّةِ تأثِّرِهِ عندما سمِعَ نباً اعدامِ أخيه الأكبر مصطفى، وبعد فترةٍ مرضٍ قصيرةٍ مرَّ بها "الأميرُ جِهَانْجِرْ" وافَتْهُ المنيّةُ، لقد كان "الأميرُ جِهَانْجِرْ" وافَتْهُ المنيّةُ، لقد كان وموهبيّهِ الشعريّةِ، وبعد أن أقيمت صلاةُ الجنازةِ على "الأميرُ جِهَانْجِرْ" في "حلب" تم نقلُ نعشِهِ بعد ذلكَ إلى إسطنبول بأمر من والدِه، حيثُ تمُ في "حلب" تم نقلُ نعشِهِ بعد ذلكَ إلى إسطنبول بأمر من والدِه، حيثُ تمُ دفئهُ في مقبرةٍ جامعِ أخيه الأكبر "الأمير محمد" والذي كان قد تُوفِي قبلَ ذلكَ بنحو عشر سنوات.

وبحلولِ هــذهِ الفاجعةِ أيضًا يكونُ "ســليمان القانونيُ" قــد عاشَ أَلَمَ موت اثنينِ من أبنائِهِ في فترةٍ زمنيَّةٍ وجيزةٍ تكادُ تُقارِبُ الشهرَ الواحدَ (١٠٢٠).

<sup>(</sup>١٠٢) لقد شيد "سليمان القانوني" من أجل هذا الأمير الشاب مجمع رائع خلف (مصنع المدفعية)، وكان هذا المجمع مكونًا من جامع ومدرسة وتكية، هذه المنطقة الرائعة التي تطل من فوق التل على مضيق " البسفور " تحمل اسم " جهانجير " نبع المياني المياني " المياني " ...

## إتهامات ظالمةُ في حقِّ "القانونيِّ" وزوجتِهِ

لقد ألقى المُؤرخون الغربيُون ومعهم المؤرِّخون الأتراك المنحازونَ للغربِ اللَّومَ على "السلطانة خُرُّم" فيما يتعلَّقُ بإعدامِ الأمير مصطفى كما اتَّهموها وحمَّلوها مسؤوليةَ قتل "إبراهيم باشا".

فمثلًا نجدُ "إسماعيل حقي أُوزُونْ جَارْشِيلِي (Uzunçarşılı)" يذكرُ ما حدثَ بخصوص هذه المسألةِ على النحوِ التالي قائلًا:

"...لقد بذلت "السلطانة خُرُم" جهدها وصنعت كلَّ ما بوسعها سرًّا كي يتولَى الحكم ابنها "بايزيد" الذي تحبُه كثيرًا، وقد كان السلطان واقعًا تحت تأثير تلك المرأة الجميلة؛ ومن ثَمَّ كان عليها التخلَّصُ من الأمير مصطفى كي تُسلَّم السلطة للأمير "بيازيد"، وقد نجحت في أوّلِ فرصة سنحت لها في التخلّص من إبراهيم باشا الذي كان مؤيدًا لتولّي الأمير مصطفى الحكم؛ حيث استفادت في إنجاز ذلك من الحوادث التي وقعت ضِدَّهُ (أي إبراهيم باشا) آنذاك، ثم بدأت السلطانة "خَاصَكِي" تعملُ على تجهيز الترتيبات اللازمة للتَخلُّص من الأمير مصطفى وأخذت تُنفِّدُ خُطَّتها رويدا رويدا كي تحقِّق مأربها في ذلك، ولقد لعب "دامات (Damal) رستم باشا" دورًا كبيرًا في هذه المسألة، حيث قام بتزوير خطابات رستم باشا" دورًا كبيرًا في هذه المسألة، حيث قام بتزوير خطابات

...

وها هو تعليق "إسماعيل حامي دَانِشْمَنْد" بخصوصِ هذهِ الأحداث:
"...لقد كان "رستم باشا" الذي بقيَ في أواسطِ الأناضول ولم
يستطعْ أن يواصلَ المسيرَ إلى الشرقِ بسبب شِدَّةِ البردِ مشغولًا
بالقيام بأمور ملقَّقةٍ ومدلَّسة في حقّ الأمير مصطفى، وذلك

<sup>(</sup>١٠٣) - أُوزُونُ جَارْشِيلِي، المصدر السابق، ص ٤٠٢.

استجابةً لتعليمات حماته "السلطانة خُرُم"، وما لبثَ أن أخبرَ حماه "السلطان سليمان" بأنَّ ابنَه الأكبر يستعدُّ للتمرُّدِ عليه."

"...لقد كان الصدر الأعظم يستغل -بكلّ الخبث- الإشاعات المنتشرة بين الجيش والشعب، وفي الوقت نفسه كان مستمرًا في تنفي نب التعليمات التي تأتيه من حماته "السلطانة خُرُم" حيث كان يعملُ على إذكاء هذه الإشاعات ويبالغ في تصويرها وتضخيمها لآلاف المرّات محوّلًا إياها إلى تلميحات في منتهى الخطورة ثم يرسل رجاله إلى "السلطان سليمان" لكي يقشوها عليه. "

"...ومع أن المصادر العثمانيّة لا تتطرُقُ إلى هذه المسألة الا أنّنا نُصادِفُها في المصادر الغربية، ولا سيّما تلك الرواية التي نجدها عند "روبرتسون (Robertson)"؛ حيث تقول إن الصدر الأعظم "رستم باشا" حرَّرَ مجموعة من الخطاباتِ المزوَّرةِ التي تُفيدُ أَنَّ الأمير مصطفى سيتزوجُ بإحدى بناتِ شاهِ إيران "طهمسب الأول"، وسيتعاونُ معه، ثمَّ أرسَلها إلى "السلطان سليمان" كدليلٍ على الخيانةِ والتآمر.

وكما يذكر "روبرتسون" في كتابه الذي يحمِلُ عنوان "تاريخ الإمبراطور "شارل كانت (-Histoire de L'empereur Charle)" فقد كانَ لتلك الخطاباتِ المرزوَّرةِ تأثير كبير على "السلطان سليمان" عند اتخاذِهِ قرارَه المتعلِّقَ بابنِهِ."

"...لقد عملت "السلطانة خُرَّم" ومعها "السلطانة مِهْرِمَاه" منذُ سنواتٍ على المبالغة والإكثار من الحديث أمام السلطان عن الخطرِ القادمِ من وراءِ الأميرِ مصطفى، وهو ما أدّى إلى تهيئةِ الأجواءِ لكي ينقلبَ فكرُ السلطانِ على ابنِهِ معتقدًا أنه تآمرَ عليه بالفعل."

"إن المسؤولية عن هذه الجريمة التاريخيَّة المَهُولة تقعُ على عاتق "السلطانة خُرَّم" ذاتِ الأصلِ البولنديّ أو الروسيّ والتي قامت بها بالاشتراكِ مع عريس ابنتِها المقرَّب منها "رستم باشا"

الكرواتي الذي كان أداتها لتنفيذ مآريها السياسية، وفي هذه الجريمة كان هناك دورًا أيضًا للسلطان "سليمان" الذي انساقً مخدوعًا وراء هذه الافتراءات، والتي جاءت له موثّقةً من قِبَلِ هؤلاء الناس الذين انعدم عندهم الضمير، لقد كان دورُ السلطانِ هنا هوَ دورُ البطلِ المسكينِ الذي انقضُ على شخص بريء اتّهم بالخيانة وبمحاولة تعريضِ الوطنِ للخطرِ من خلالِ التعاونِ مع العدوِ في سبيلِ الوصولِ إلى السلطة، وتم ذلك دون حتى أن يلقِ السلطان بالا إلى أنّ هذا البريء المتهم بالخيانة هو ابنه."

"...لقد كانت تلك الحقبة الزمنية إحدى الفترات التي استطاعت فيها عناصر غير تركية -سواء من الرجال أو النساء- الإستيلاء على مقاليد الحكم وعلى القصر العثماني..."

"...لقد أصبح ثابتًا من خلال اتفاق المصادر الأجنبية وكذلك ما ورد في مرثية "رستم باشا" وثائق تُنسَبُ للأمسر مصطفى تُعبّر عن رغبته في التعاونِ مع إيران..."

"لقد كانت "السلطانة خُرَّم" -التي عاصَرَت أزهى أيام الدولةِ العثمانية خلال عصرِها الذهبيّ- واحدًا من أهمّ الأسبابِ التي أدَّتُ إلى انهيارِ وتَضَعْضُع هذه الدولة !"(١٠١)

\* \* \*

أما بالنسبة لرأي "يِلْمَازْ أُوزْتُونَا (Yılmaz Öztuna)" فنراه يعرِضُهُ علينا من خلال كلامِهِ التالي:

"...إن مشـروعَ "السـلطانة خُـرُم" ونواياهـا تجاة ولـيِّ العهدِ الأمير مصطفى لم تتغيّرُ حتى بعد وفاة الأمير محمد."

"...لقد كان كلَّ من ابنة "خُرُم" وزوجِ ابنتِها أدواتٍ في يديها، وأخـذَ هـذا الثلاثي يسـيرُ نحـوَ هدفِهِ خطـوةً خطـوةً، حتى وصلَ

<sup>(</sup>١٠٤) - ذَاتِشْمَتْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٨١.

بهــُم الأمـرُ إلى حدِّ تلفيقِ رسـائلَ مزوَّرةٍ ومُعَـدَّةٍ بدرجةٍ عاليةٍ من الاحترافِ، وبناءً على هذه الخطاباتِ المزوَّرةِ أصبحَ من الواضحِ وجودُ اتِّفاقِ بين الأمير مصطفى وشاه إيران "طهمسب الأول".

وبمقتضى هذا الاتفاق فإن الأمير مصطفى سيساعِدُ شاه إيران، وفي المقابِلِ فإنَّ شاه إيران سيدعم الأمير العثمانيَّ بجيشِهِ من أجلِ أن يجلسَ على العرشِ خلفًا لأبيه (١٠٠٠).

ونجد "نِعْمَة طَاشْكِيرَانْ (Taşkıran)" يتحدَّثُ عن التَّخْميناتِ التاليَةِ المتعلِّقةِ بـ"السلطانة خُرَّم" في عملِهِ الذي صدَرَ بعنوان "كتاب خَاصَكِي":

"...ئِنسَبُ لها أنه كان لديها تأثيرٌ كبير فيما يتعلق بخروج حملة إيران."

"... لا شك في أن "السلطانة خُرُم" كان لها دور في وفاة الأمير مصطفى، إذ من المحتمل أنها لم تكن ترغبُ في وجودٍ أيّ عائِقٍ حتى يتمكَّنَ أحدُ أبنائِها من تولِّي الحكم عند وفاة القانونيّ..."(١٠١)

السفير الألماني "أوجلر، ج. دي بوسبيك (Ogler G. de Busbecq)" والذي عمل سفيرًا لألمانيا في إسطنبول أثناء فترة حكم القانوني يقول في كتابه "ذكريات":

"...إن "السلطانة خُرَم" تبدُّلُ كلَّ ما بوسعِهَا من أجلِ أن تجعلَ أحدَ أبنائِها ورّيثًا للعرش، إنها تريد أن تهزَّ من مكانة الأمير مصطفى الذي كان أكبَرَ الأمراءِ سنًا وأعلاهم مكانة، ومن أجل الوصولِ إلى هدفها استفادت من مساعدة ومشورة الصدر الأعظم "رستم" بعد أن تزوّجَ من ابنتها السلطانة "مهرماه""(١٠٧٠).

<sup>(</sup>١٠٠) - بِلْمَازْ أُوزْتُونًا، تاريخ الدولة العثمانية، أنقرة - ١٩٩٨م، المجلد الأول، ص ٢٤٧.

<sup>(</sup>١٠٦) ﴿ طَأْشُكِيرًانَ الْمصدر السَّابِق، ص ٢٦.

<sup>(</sup>١٠٧) أولجر ج. دي بوسبيك (Ogler G. de Busbecq)، " ذكريات سفير في عهد "القانوني""، أنقرة، ١٩٥٢م، ص ٢٩.

### أما "برنارد بروماج (Bernard Bromage)" فيقول:

"لقد كانت "السلطانة خُرُم" مسيطرة على قلب وعقل السلطان سليمان"، لقد كانت تدقّق وتلاحظ كلَّ ما يتعلَّق بمزاجِه ورغباتِه وهواجسِه، حتى أصبحت على عِلم بكلِّ شيء، من أجل ذلك فقد أصبحت الأوامر الصادرة من "خُرَّم" تكتسِب من القوّة ما يوازي قوَّة الفرمانات، لقد كانت "خُرَّم" تدبّرُ على الدوام خططًا ظالمة وقمعية ثم تُقنعُ بها حبيبها "السلطان سليمان".

والآن سنوضِّحُ النقاطَ التاليّةَ لمنَ يتوجُّهونَ بالادِّعاءاتِ الباطلةِ والتي بلغَتْ حدَّ الإهانةِ في حقِّ "السلطانة خُرَّم" :

## هل كان القانوني متيّمًا بـ"السلطانة خُرَّم"؟

إن أوَّلَ الاتهاماتِ الموجَّهةِ إلى "السلطانة خُرَّم" تزعُمُ أن السلطانَ القانونيَّ كان خاضعًا لتأثيرِ وأوامرِ هذهِ المرأةِ الحسناءِ الجذَّابةِ، لدرجةِ أنه اندفعَ إلى نوعٍ من الوحشيَّةِ والفظاعةِ بحيث يأمُرُ-أي القانونيُ- بقتلِ ابنه الأكبرِ ووليَّ عهدِه مصطفى.

### يقول "أحمد رفيق ألتيناي (Altınay)" :

"أن السلطانة كانت تسعى لأن تَسْلُبَ قلبَ السلطان بجمالِها ولأن تصبحَ هي السلطانة الحاكِمة للقصر والدولة، ومن أجلِ تحقيق تلك الرغبة فإن "السلطانة خُرُم" لم تتورَّغ عن الإتيانِ بأي شيء سواة عن طريق الحيلةِ أو الخيانةِ أو الجريمةِ."

ولا يكتفى "أحمد رفيق ألتيناي" بهذه الكلمات بل إنه يتحامل على السلطان "القانوني" أيضًا فيقول:

"لقد كان "السلطان سليمان" أداة طيِّعةً في يد "خُرُّم" يفعلُ من

أجلِها أيَّ شيءٍ وينفِّذُ لها كلَّ ما تريد، وبعد أن كان ينتهي من عِدَّةِ جراثمَ كان يعودُ ليرتَميَ في أحضانها."(١٠٨)

### ياللعجب!

هل يا تُرى وصلت العلاقة العاطفيّة بينَ السلطان و"خُرُم" إلى أن يصبحَ السلطانُ عاشقًا مجنونًا فاقد العقلِ، لدرجةِ أنه يأمرُ بقتل ابنهِ وولي عهدهِ من أجلها! أم لدرجةٍ تجعله يهزُّ أركان الدولةِ وأعمدتَها، وأن يعرض بلادَه وشعبَه للخطر!؟

ونجد السيد "نور بيكال (Nur Baykal)" يتساءَلُ في مقالةٍ أخرى:

"تلك المرأة -"السلطانة خُرُم" - التي تتوقّف حياتها ويتوقّف مستقبلُها ومستقبلُ أبنائِها على كلمةٍ تخرجُ من شفتَي "سليمان القانوني" والتي كانَ من الممكنِ أن تُلقّى في إحدى زوايا قصر قديم عنذ وفاةِ السلطان أو أن تَقِفَ وهي تُشاهِدُ مقتلَ أبنائِها، ماذا كانت ستصنعُ تلكَ المرأةُ إن لم تقلْ أنها عاشقةُ للسلطان؟ وقد كان السلطانُ أسيرَ الوحدةِ، بالنظرِ إلى وضعِهِ آنذاك؛ فهل يُعقل ألا يتجاوبَ مع هذهِ المرأةِ التي اهتمّتَ به، وأن يُحرم منها وهي الإنسانُ الوحيدُ الذي يُمْكِنُ أن يخفِّفَ عنه آلام وحدِتِه؟ تُرى أيمكن أن يُطلَق العالمةِ بينهما؟" (١٠٠٠)

لا يمكن أن نصدق أن "القانوني" لم يحب "خُرَّم" على الإطلاق، وأن أشعاره التي كتبها من أجلِها كانت مجرَّدَ مسرحيّاتٍ من الشعرِ الغنائيِّ العاطفِيّ، ولا أنه كانَ يراها مجرَّدَ امرأةٍ تُخَفِّفُ عنه وحدَتَهُ.

ولكن عشقه إياها لم يصِلْ إلى حدِّ الجنون، ولو أنَّ الأمرَ كان كذلك فهل كان من الممكن أن يصبرَ السلطانُ مدَّة طويلةً من الزمانِ -هي على

<sup>(</sup>۱۰۸) أ. نور بيقال (Baykal)، " السلطانة خُرَم "، مجلة " التاريخ الشعبي "، ۲۰۱۱م، الجزء الثاني، العدد ۱۹، ص ۲۹. (۱۰۹) أ. نور بيقال (Baykal)، " هل جعلت "السلطانة خُرَم" زوجها القانوني قاتلا؟ "، التاريخ الشعبي، ۲۰۰۶م، الجزء الرابع، العدد ٤٤، ص ٤٥.

الأقلّ سبعة عشر سنةً- على كلام "خُرَّم" من أجلِ القضاءِ على مصطفى وليّ عهدِه؟

وهل كان بمقدورِهِ أن يَقِفَ طِوالَ هذه السنواتِ ضِدَّ رغبتِها المتَّقِدَةِ هذه دون أن ينفِّذَها؟

وهل كان "القانونيُّ" سَيَسْمَحُ بأن يُشَكِّلَ الأميرُ مصطفى خطرًا على كرسيِّ سلطنتِهِ؟

أَلَمْ يَشُكَ "سليمان القانوني" -ذو الدهاء العسكري والسياسي المنقطع النظير - أبدًا في الوشايات التي كانَتْ تقومُ بها "السلطانة خُرَم" في حق الأمير مصطفى؟ يبقى لنا أن نَذْكُرَ أَنَّ هذه الوشايات التي كانتْ تقومُ بها من أجلِ أن تضمن وراثة العرش لأحد أبنائها كان عليها أن تستمِر معدة سبعة عشر عامًا على الأقل وذلك من تاريخ مقتل الصدر الأعظم "إبراهيم باشا" عام (١٥٥٣م) وحتى إعدام الأمير مصطفى عام (١٥٥٣م)!

إذًا كيف كان القانوني يحكم بهذا الشكل!؟

قام "بالي (Bâli) بك" الذي أظهرَ بطولاتٍ كبيرةً في حربِ "مُوهَاجُ" بكتابة خطابٍ إلى السلطان القانونيّ يطلبُ منه -وهو يذكرُ ويُعَدِّدُ الإنجازاتِ التي قام بها في الحربِ- أن يعيِّنهُ كوزيرٍ عندَهُ، وإذا نظرنا إلى الرَّد الذي أرسلَهُ السلطانُ "القانونيّ" إلى "بالي بك" فإننا نَجِدُهُ لافتًا للانتباه حيث يقول فيه:

"إن الخدماتِ التي قدّمتها من أجلِ دينِ الإسلامِ ومنِ أجلِ الدولةِ العليّةِ لمْ تدْهبُ عندنا سُدّى، أتمنى لك السعادة والتوفيق، وأن يرضى الله عنك، وأن يطَهِر الله وجهك ويُنوِّره في العالمين، إنك تريدُ أن نُنْهِم عليك نظيرَ الخدماتِ التي قدّمتها، إننا لن نمنحك درجة قائد لواء فحسب، ولكن سنمنحُك -دون تردُّدٍ-

رتبة أمير الأمراء، لكن لا تغتر بهذا، واعلم أن كلَّ شيء للهِ ومن عندِ اللهِ وحده، ولا تفعَلَنُ شيئًا لتنالَ رضانا نحنُ، بل اصنَغ كلَّ شيء لتفوزَ برضا الله، وحذار أن تُخطِئ فتطلبَ شيئًا منا نحن العباد الفانين، لا تُصَغِّر نفسَكَ عندنا، ولا تتسؤلُ من أحد ".

...

لقد كان "سليمان القانوني" حاكمًا يراعي الأمورَ الدينيَّةَ بشكلٍ كاملٍ، لقد كان صاحبَ قلبٍ رحيم لدرجةِ أنه كان حريصًا حتى على ألا يُؤلِمَ نملةً.

ففي إحدى المرّاتِ وبينما كانَ يتجوَّلُ في حديقةِ القصرِ ذاتَ يومِ رأى مجموعةً وفيرةً من النملِ وقد أخذَ يغزُو إحدى شجراتِ الكُمّثرى، وعلى هذا النحو رأى أن الشجرةَ ستنهارُ فأرسلَ هذا البيتَ من الشعرِ إلى شيخِ الإسلام "أبو السعود أفندي":

إذا ما كان النمل يؤذى الأشجار، فهل هناك من إثم في قتله؟

وقد ردَّ شيخُ الإسلامِ على هذا السؤالِ بهذهِ الفتوى التي جاءَتْ هيَ الأخرى في صورةِ بيتٍ شعريِّ:

غدًا عندما تقوم الساعة، ستأخذ النملة حقها منك (١٠٠٠).

إِنَّ مَن يُنَبِّهُ كُلَّ مَنْ حُولَهُ بِضَرُورةِ القيامِ بِكلِّ عَمْلٍ مِن أَجْلِ نَيْلِ رَضَا الله، ويعتني بالدين ويرعاه لدرجةِ أنَّهُ يطلبُ فتوى كي لا يغتصِبَ ولو حتى حقوقَ نملةٍ، هل من الممكنِ يا تُرى أن يأمُرَ حاكمٌ يتمتَّعُ بهذا القدرِ من الرأفةِ والرحمةِ بقتلِ ابنِهِ دُونَ أي ذنبٍ؟

<sup>(</sup>١١٠) إن 'أبو السعود أفندى" يشير بطريقة رقيقة في هذا البيت إلى الحكاية التي وقعت بين النملة ونبى الله سليمان والتي ورد ذكرها في سورة النمل.

١٠ ----- [خُرَم ومِهْرِمَاهُ]

## رجلُ دولةٍ عاشقٌ للعدالة

لقد كان السلطان "سليمانُ القانونيّ" قبلَ أيِّ شيءٍ رجلَ "قانون" ومساواةٍ وعدالةٍ إلى جانبٍ كونِهِ رجلَ دولةٍ.

لقد عُرِفَ "السلطان سليمان" كحاكم باسم السلطان "القانونيّ"، وقد أتَتْ هذه التسميةُ بسببِ لائحةِ قوانينَ كانُ قد أَصدَرَها وتضمّنَتُ الأُسُسَ الإداريّةَ والماليّةَ والقضائيّةَ التي تقومُ عليها الدولة.

لقد جعلَ رجالُ القانونِ العثمانيُّون اللوائِحَ القانونيَّة التي تمّ إعدادُها مستقاةً من الشريعةِ الإسلاميةِ والتي أصبحَ يَتِمُّ تطبيقُها من خلالِ تلك اللوائح، بحيثُ إنّ أيَّ شخص يرتكبُ الجرمَ أيًّا ما تكونُ درجتُه فقد كانت تُطبَّقُ عليه نفسُ الأحكامِ الجزائيّةِ وذلك بشكلٍ متساوٍ سواءً أكانَ هذا الشخصُ غنيًّا أو فقيرًا، من عامَّةِ الناس أو من أصحابِ السَّلْطَةِ، من عليَّةِ القوم أو مِنْ صغارِ الناسِ. (١١١)

لقد كانت القوانينُ مستمَدَّة من الأحكامِ الإسلاميّةِ وكانت تستنِدُ على المبادئ التي تراعِي المساواة والعدالة بين البشرِ.

\* \* \*

لقد كان السلطانُ يرغبُ في الاجتماعِ برجالِ العلمِ في "دار السعادة" (أي: إسطنبول) وحتى إذا كانَ هؤلاء العلماءُ موجودين ببلدانٍ أجنبيَّةٍ، وفي الواقعةِ التي سنحكِيها الآن يتَّضِحُ بشكلٍ قوي الأهمية التي كان السلطانُ يوليها للعلمِ والعلماءِ والقيمة التي كان يمنحها للعدالةِ وأهلِ الجدارة:

<sup>(</sup>١١١) إن هذا المنهج من العدل والإنصاف والذي سار عليه "سليمان القانوني" كان السبب في أن يكون هناك تمثال نصفيًا له في متحف الكونجرس بواشنطن.

بعد أن ترقَّى "رمضان زاده محمد جلبي"("") إلى رتبةِ "نِيشَانْجِي (Niṣancı)"("") عُيّن حاكمًا لـ"حلب" أوَّلًا ثمَّ لإحدى مقاطَعاتِ مصرَ وذلك بجهودِ معارضيه، ثم بعد ذلك عُيِّنَ كمسؤولٍ عن مقاطعةٍ من مقاطعاتِ مصرَ، ولكن "القانونيّ" بعدَ أن وجدَ أنَّ وظيفةَ "نِيشَانْجِي" في الحكومة قد أصبَحَتْ خاويةً أصدرَ فرمانًا ذكرَ فيه:

"لقد أوكلت هذا المنصب إلى محمد الذي تولى أمر "المورا (Mora)".

لكن الصدر الأعظم "رستم باشا" كان يريد أن ينال هذا المنصب شخص آخر؛ لذا فقد ادَّعى أن "رمضان زاده محمد جلبي" متنازلٌ عن هذه الوظيفة ويريدُ البقاءَ في مصرَ، لكن السلطانَ بفراسَتِهِ أدرك الغرضَ الحقيقيُ في نفسِ الصدرِ الأعظم وأصدرَ أمرًا مخالفًا لما كان يسعى إليهِ قائلًا:

"ليس من المناسب إرسال ذوي الخبرة وأصحاب الكفاءات العالية إلى خارج إسطنبول، بل العكش هو الصحيح، لأنّ قدومهم من مصر ومن سائر البلدان إلى مركز الخلافة وعاصمة السلطنة هو الصواب".

وعقبَ ذلك تمَّ تعيينُ "رمضان زاده" في منصِبِ "نِيشَــانْجِي" الســـلطنةِ وظلَّ به حتى وفاتِه. (١١١)

<sup>(</sup>١١٢) "رمضان زاده " الذي ولد في "مرزيفون" تم تعييه عام (١٥٥٣م) في منصب "أمين دفتر" وفي العام النالى تم تعييه في وظيفة "رسول الكتاب"، وقد تم تعيين "رمضان زاده" في منصب "نيشانجي" نظرًا لمنتجاح والكفاءة التي أظهرها في موقعه كمسؤول عن الضرائب والسجلات العقارية، وبعد أن عمل بكل من "حلب" و"مصر" فقرة فقد تم تعيينه للمرة الثانية في نفس المنصب عام (١٩٦١م). وقد تم دفن " رمضاتن زاده " الذي توفي عام (١٩٥١م) في فناه "أمير بخاري"، ويعرف " محمد شلبي " بكتابيه اللذين ألفهما وهما كتاب "سير الأنبياء العظام وأحوال الخلفاء الكوام وومناقب آل عثمان" بالإضافة إلى كتابه الصغير "تاريخ نيشانجي".

<sup>(</sup>١٩٢) كانت وظيفة "يشأنجي" تمثل منصبًا ذى مقام عال حيث كان صاحبها عضوًا بالإدارة المركزية العثمانية في الديوان السلطاني، وكان يعهد إليه بطغراء السلطان العثماني، وبناء على لائحة القوانين التي سنها السلطان "الفائح" فقد كانت مرتبة "نيشانجي" من الدرجات العالية في إدارة الدولة وكانت تأتى في الأهمية بعد منصب الوزير وقاضي المسكر و"الباش دفتردار".

<sup>(</sup>١١٤) ﴿ طَأَشُكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ٦.

## آهِ يا سليمان، لقد نجوتَ بنفسِكَ وأمّا نحنُ؟!

لقد أوصى "السلطان سليمان" بأن يتم دفنُ دُرْجِ خزانتِهِ إلى جوارِهِ، ولهذا السبب فقد تم بعد وفاتِهِ احضارُ دُرْجِ خزانتِهِ إلى المقبرةِ، لكنّ العلماء اعترضُوا على وضع دُرْجِ الخزانةِ في القبرِ وعلى دفنِهِ مع جثمانِ السلطانِ وبينما كانَ النقاشُ يدورُ حولَ إذا ما كانَ يجوزُ أو لا يجوزُ أن يُدفَنَ درجُ الخزانةِ في القبرِ إذا بالدرجِ يقعُ على الأرض وتتناثرُ الأوراقُ التي كانت موضوعة فيهِ، وكانتْ هذهِ الأوراقُ عبارةً عن الفتاوى التي تلقّاها السلطانُ من شيخ الإسلام "أبي السعود أفندي".

لقد أرادَ السلطانُ سليمانُ بوصيّتِهِ تلك أن يُبَيِّنَ أنَّ كلَّ ما قامَ به من أعمالٍ كانَ على أساسِ من العدالةِ ومراعاةِ الحقوقِ الإسلاميّةِ.

عندما رأى شيخُ الإسلام "أبو السعود أفندي" الذي شاركَ في مراسمِ الجنازةِ هذا المشهدَ قال وقد اختنقتْ كلماتُه وسطَ الدموع:

"آه يا سليمان، لقد نجوتَ بنفسِكَ، أما نحن؟!"

لقد استطاع السلطانُ "سليمان القانونيُّ" أن يُمَثِّلُ الإسلامَ خيرَ تمثيلٍ بعدلِـهِ ومراعاتِـه للحقوقِ، إلـى جانبِ إنسانيّتِهِ وأخلاقِهِ السـاميّةِ، وبهذا الشكل استطاعَ أن يتغلّبَ على القُوى التي كانَتْ تواجِهُهُ.

وقد كان دهاؤُهُ السياسيُّ يفوقُ الوصفَ، لقد تمكَّنَ "القانوني" من أن يُؤسِّسَ دولةً عظيمةً حكمتِ العالمَ طِوالَ القرونِ ليس فقطُ بالقوّةِ العسكريّةِ، ولكن أيضًا بالمناوراتِ السياسيّة التي كان يجيدُها، كما أثرَ

من الناحية السياسية في الأحداث الاجتماعية الحاصلة في أوربًا وتدخّل فيها بدهاء وحنكة إلى أن نجح في الاستفادة منها إلى أقصى درجة، أما فيما يخصُّ أوجة النقد التي وُجِّهت إلى "القانوني" فقد كانت هناك مجموعة من الانتقادات المكرَّرة التي تعرضَت لها سيرة حياته، وعلى وجه الخصوص تلك الادّعاءات التي تناولت موضوع (تأثير النساء عليه)، ولكن تلك الادعاءات لا تعدو في النهاية سوى أن تكونَ مجموعة من الإشاعات التي تُشْبِهُ البالوناتِ التي نُفِخَتْ أكثرَ من اللازم، فهي في النهاية الإشاعات التي تُشْبِهُ البالوناتِ التي نُفِخَتْ أكثرَ من اللازم، فهي في النهاية والمنطقيّة. (١١٠)

...

أليس من الظلم -ولو في نظر الإنسان العادي على الأقل- أن يُحَمِّلَ الكاتبُ "دانِشْمَنْد" مسؤولية بداياتِ سقوطِ الدولةِ العثمانيّةِ في عام (١٩٥٨م) للسلطانةِ خرّم زوجةِ القانونيِّ مع أنها ماتت عام (١٥٥٨م) أي قبلَ بدايات السقوطِ بأربعةِ قرون تقريبًا!؟

ويرى الكاتب نفسُه في كتابِهِ المسمّى "الأحداث التاريخيّة المسلسلةُ في الدولة العثمانيّةِ" أن "السلطانة خُرَّم" مذنبةٌ بموتِهِا المفاجِيْ! ياللعجب! وكأنها ماتت برغبتها وطلبها! فيقول:

"بوفاة "السلطانة خُرُم" عام (١٥٥٨م) وبعد أن تسبّبت في إعدام الأمير المسكينِ مصطفى من أجلِ ضمانِ أن تُضبِحَ ولاية العهدِ في صالح ابنها "بيازيد"، نجدُ أنها قد جعلتِ الساحة خالية أمامَ أنصار "سليم" مما كان له نتائج كارثية على الدولة العثمانية، وهكذا نجد أن تلك المرأة قد تسبّبتُ في إلحاقِ الأذى بالدولة

<sup>(</sup>١١٥) أَكْسُونُ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٣٧.

١٠٤ ------ [خُرَم ومِهْرمَاهُ]

العليَّةِ العثمانيَّةِ سواء أكان ذلك في حياتها أو حتى بعدَ وفاتِها."(٢١١١

فنفهمُ من كاتبِ هذهِ الكلماتِ أنهُ ربَّما يرفعُ تهمةَ انهيارِ وسقوطِ الدولة العثمانيّةِ عن السلطانةِ خرَّم لو أنَّها أخْرَتُ وفاتَها وموتَها بعضَ الوقتِ! وهل هذا كلامُ رجلٍ عاقل؟! وهل هي التي اختارَتْ زمانَ وتوقيتَ موتها!؟

## الأبناءُ الذين يتمرّدُونَ على الآباءِ

هل كان التاريخُ العثمانيُ خاليًا من الأبناءِ الذين أعلنُوا التمرُّدُ على آبائِهِم؟ فمثلًا: ألمْ يتحدَّى "السلطان سليم ياووز" والِدَهُ "السلطان بيازيد"؟ ألم يُزِحُ السلطان "سليم ياووز" -بمساعدةِ العسكرِ ورغبَتِهِم - والدَهُ عن العرشِ ويجلس مكانَهُ؟! وعلى حينِ أنَّ تلك الحادِثَةَ المُهِمَّةَ التي وقعت في حياةِ "القانوني" كانت حاضرةً في الأذهان، فهل من الممكنِ الاعتقادُ بأن السلطانَ لم يُبالِ بحادثةِ الأمير مصطفى ؟! وكما حاولنا عرضَهُ وتقييمَهُ في الأقسامِ السابقةِ فإن السلطانَ كان مشغولًا بـ"بقاءِ الدولةِ والحفاظِ على سلامةِ استمراريَّتِها" أكثر من انشغالِهِ بشكوكِهِ ومخاوفِهِ الشخصيَّةِ على سلامةِ استمراريَّتِها" أكثر من انشغالِهِ بشكوكِهِ ومخاوفِهِ الشخصيَّة

<sup>(</sup>١١٦) لقد تم تعين "الأمير سليم" وليًا للمهد نظرًا لأنه كان الأكبر سنًّا، أما "الأمير بيازيد" فقد كان محبوبًا من والدته وتحت حمايتها، وقد كانت هناك قناحة لدى أي شخص بأنه إذا كان اختيار السلطان الجديد بيد "السلطانة خُرّم" فإنها كانت ستولي "بيازيد" على العرش، لكن "السلطان سليمان" كانت لديه رغبة قوية في أن يخلفه "الأمير سليم" من بعده، أما "بيازيد" الذي كان يعلم هذا الأمر فقد كان يسمى بكل الطرق من أجل أن ينقذ نقسه من المصير الذي كان يسمى بكل الطرق من أجل أن ينقذ نقسه من المصير الذي كان يستظره ومن أجل الإفلات من الموت المحتوم على يد جلادي أعيه، وقد قرر "بيازيد" أن يجرب حظه ويصارع من أجل العرش بدلًا من أن يستظر الموت. (بوصبيك، مذكرات سفير في عصر "القانوني"، أنقرة ١٩٥٣، ص ٤٨).

كان "القانوني" في صف ابنه "سليم" عندما اندلع الصراع بين الأخوين وأرسل له العون بقيادة "صوكوللو محمد باشا"، وقد فر "بيازيد" هاربًا بعد أن هزمت قواته في المعركة التي وقعت بين الأخوين عام (١٥٥٩م) عند السهل "قونيه (٨٥٣١م)"، وثلا هذا أن التجأ إلى إيران مع ابنائه الأربعة وحوالي ألف رجل من رجاله، أواد "القانوني" أن يسلم إليه "بيازيد"، وفي النهاية وافق شاه إيران الذي لم يستطيع أن يقاوم رغبة السلطان فقام بسليم الأمراء شنقًا في "قزوين" في يوم السادس من تشرين الأول/أكتوبر من عام (١٩٥١م) حيث تم إحضار جناميتهم إلى الأناضول ودفنوا في مدينة "سيواس". (علي آفتاش، مجلة العالم التركي الناريخية، إسطنبول - ١٩٨٧م، ص ٧٤).

والنفسيَّةِ، وكان هذا الشاغِلُ بالنسبةِ لرجل دولةٍ قويٍّ بحجمِ القانونيِّ أمرًا له الأولويّةُ عنده ويفوقُ كلّ اهتمام آخر.

إن سعيَ الأمير مصطفى للتعاونِ مع شاه إيران كانَ من الممكنِ أن يُودِي إلى حربٍ أهليّة، وهو ما كان سيُعرِّضُ الدولةَ العليَّة في حالِ حدوثِ ذلك إلى أضرادٍ كبيرةٍ وشُرُودٍ مستطيرةٍ، وبالنسبة لحاكم كان يُطبِّقُ على نفسِهِ أوَّلا وقبلَ الجميعِ القوانينَ التي تكفلُ الحفاظ على الدولةِ، أفلا يكونُ قيامُ الأميرِ مصطفى بالتعاونِ مع الأعداءِ واختيار طريقِ التمرُّدِ على الدولةِ بمثابَةٍ زعزعةٍ لأركانِ الدولةِ السياسيَّةِ والاجتماعيّةِ؟.. وهكذا نرى أن إزاحة "السلطان سليمان" للأمير مصطفى وقيامَهُ بالتضحيّةِ بابنِهِ وفَلْ ذلك لضمانِ بقاءِ الدولةِ باستمرارِها، وأيضًا من أجلِ الحيلولةِ دونَ حدوثِ حربِ أهليَّةٍ.

إن فكرة أنَّ إعدامَ الأمير مصطفى كان مرتبطًا بعلاقة العِشْقِ التي جمعَت السلطانَ "القانونيُّ" وزوجته "خُرُّم"، وأنَّ إعدامه كان مرتبطًا أيضًا بالدسائس والوشاياتِ التي كانت تقومُ بها "السلطانة خُرُم" لهي فكرة ساذَجة وضحلة إلى أقصى درجة! بلْ هي فكرة نابعة عن عدم معرفة بالدولة العثمانيَّة وحاكِمِها العظيم حقَّ المعرفة! وأيضًا فإن مثل هذا المنهج في التفكير ينم عن عدم إدراكِ وجهة النظرِ التي كانتُ لدى السلطان وعن عدم فهم العواقبِ السيَّية التي كان يحرصُ السلطان أن يحميَ الدولة منها في ذلك الوقت.

# أينَ هي الرسائلُ المُزَوّرَةُ؟

هل حقًا كان الأميرُ مصطفى يسعى لعقدِ تحالُفٍ مع شاهِ إيران؟! أم أنَّه كما تُشِيعُ بعضُ الادِّعاءاتِ كانَ ضحيَّةٌ لمؤامرةٍ ثلاثيّةٍ أركانُها هم "خُرّم ومِهْرِمَاهُ ورستم"؟! وبعبارةٍ أوضح هل كان السلطان "سليمان القانوني" هو الآخرُ ضحيَّةُ للتقاريرِ المُلَفَّقَةِ التي فبركَها هذا الثلاثيُّ المتآمرُ؟!

ألم تكنُ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" -باعتبارِها ابنة السلطان- تُحِبُ أباها السلطان بنفسِ القدرِ أو أكثر من محبَّةِ أمِّها خرّم لأبيها السلطان؟! أكانَ من الممكنِ أن تكونَ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" مشتركة في عملية موجَّهة ضِدً والدِها السلطان، وأن يكونَ لها دورٌ في مؤامرة تؤدِّي إلى موتِ أخيها الأكبرِ مصطفى، ألم تشعُرُ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" بأيِّ قلقٍ من أنْ يعلمَ والدُها "السلطان سليمان" بهذا الأمرِ؟!

إن هناكَ اذِعاءاتِ بأنَّ الصدرَ الأعظمَ "رستم باشا" قد فبركَ خطاباتِ مزوَّرَةً منسوبةً إلى الأميرِ مصطفى بعد أن تلقَّى الأمرَ بذلكَ من حماتِهِ "السلطانة خُرَّم"، ألم يكنُ "رستم باشا" صهرًا للسلطان "سليمان" كما كان صِهرًا للسلطانة "خُرَّم"؟!

أَلَمْ يأمُرِ السلطانُ بقتلِ "إبراهيم باشا" رفيقَ حياتِهِ وأعزَّ أصدقائه قبلَ سبعةً عَشَرَ عامًا -كما أوضحنا في الأجزاءِ السابقةِ - بسببِ الأخطاءِ العديدةِ التي نُسِبَتْ إليه؟! أكانَ من الممكنِ أن يتجراً "رستم باشا" على خيانةِ "سليمان القانونيِّ" والتحرُّكِ ضده واثقًا في وعودِ حماتِهِ "خُرُّم"؟! ومن يا ترى كانَ يجرُّوُ أو يستطيعُ خداعَ "القانونيّ" ملفِّقًا ومُفبرِكًا خطاباتٍ مزوَّرةٍ؟! أليس من الأقلِ خطورةً والأكثرِ أمانًا أن يقف "رستم باشا" في صفّ الخرَّم" ؟!

إن الفكرة القائلة بأن "رستم باشا" قد أعدَّ خطاباتٍ مزوَّرة لتكونَ دليلًا ضدَّ الأمير مصطفى هي فكرة يصعبُ على الإنسان العاقلِ قبولُها بل تكادُ تكونُ مستحيلةً.

يبقى أن نذكرَ ما قاله "دَانِشْمَنْد" عن التأثيرِ الكبيرِ للخطاباتِ المزوَّرةِ التي تحدَّثَ عنها "روبرتسون" في كتابه "تاريخُ الامبراطورِ شارل كانت" -والتي لم تأت المصادر العثمانية على ذكر لها- حيث يذكرُ لنا "دَانِشْمَنُد" معتمدًا على الروايةِ المذكورةِ في نفسِ المرجِعِ أنَّ "رستم باشا" أرسلَ دليلَ الخيانةِ الذي يحوي الخطاباتِ المُزوَّرةَ المرسلة إلى "السلطان سليمان".

بالإضافة إلى ذلك يذكرُ الكاتبُ أنَّ روايةَ الخطاباتِ المزوّرةِ مثبتةً وموجودةٌ في بيتِ الشعرِ الموجودِ بالهامشِ (۱۱۷) وكذلك أيضًا بالوثائقِ، حيث نجدُ بيتَ الشِغرِهذا يُصَدِّقُ هذه الروايةَ في المرثيَّةِ المشهورةِ والمقروءَةِ في كلِّ مكانِ والتي نَظَمَهَا وأعدَّها "يحيى بك". (۱۱۸)

لكن المثيرَ للعجبِ أنّنا لا نجدُ أثرًا لتلكَ الخطابـاتِ المُزَوَرَةِ لا في الأرشيفِ العثمانيّ ولا في أيّ أرشيفٍ آخرَ بأيِّ مكانٍ في العالم.

وفاةُ "السلطانة خُرَّم" عن عمرِ يناهزُ السادسةَ والستينَ

لقد أصبحت "السلطانة خُرَّم" -التي تُعتَبَرُ من أكثرِ نساءِ القصرِ العثمانِيِّ قوَّةُ خلالَ العصرِ الذي عاشَتْهُ- رمزًا لحبِ الخيرِ والحماسةِ، وتكادُ تكونُ هذه السلطانةُ قد اقتربَتْ أن تكونَ شريكةً لزوجِهَا السلطان في هذا المجال.

<sup>(</sup>١١٧) واحد أو النان من أهل الفساد المنحرفين كانا هما حطب الحريق،

واحد أو اثنان قاما ينزوير الخطاب فكانا السهم الذي قتله. ١١) ألبس من المضحك أن يعتبر الكاتب أن هذا البيت الذي في ,

<sup>(</sup>١١٨) - ألبس من المضحك أن يعتبر الكاتب أن هذا البيت الذي في مرثية الشاعر بمثابة وثيقة تاريخية وأن يجعل إدعائه معتمدًا على هذا البند ؟!

و إلى جانبِ الأوقافِ التي شيّدَتْها "السلطانة خُرَّم" في إسطنبولَ والقدسِ فقد أمرت بتحويلِ إحدى التكايا التي كانت تُعرف باسم "قَرِيَه (Kariye)" إلى مدرسة دينيّة، وقد خَصَّصَّتِ الأوقافَ ذاتَ الدخلِ المرتَفِعِ لجميع المؤسَّساتِ التي أنشأتُها وعلى رأسِها كلّية "خَاصَكِي".

. . .

وقبيل عام (٥٥ ١م) كانت والدة السلاطين -حضرة خَاصَكِي السلطانة الكبرى العتيقة (١١٠) - "خُرَّم" (٢٠٠) تصارعُ الأمراض، وفي نهاية عام (١٥٥٧م) وأثناء تواجُدِها في "أدرنه" مع زوجِها "السلطان سليمان" اشتدَّ عليها المرض، ورغم كلِّ الجهودِ التي بَذَلَهَا أطباءُ القصرِ عند عودتِها في مطلع ربيع عامِ (١٥٥٨م) إلى إسطنبول إلا أن "السلطانة خُرَّم" تُوفِيَتُ عن عمرٍ يناهزُ السادسة والخمسينَ بحيثُ يمكنُ القولُ أنها قد ماتت في سنٍ مبكِرةٍ نوعًا ما، فكانت وفاة "السلطانة خُرَّم" في السادس والعشرين من جمادى الآخر من عام (١٦٥هم) الموافق في السادس والعشرين من جمادى الآخر من عام (١٦٥هم) الموافق بتشخيصِ سببِ وفاة "خُرَّم" بأنه حُمَّى الملاريا! إلا أنَّ الموتَ بسببِ بشخيصِ سببِ وفاة "خُرَّم" بأنه حُمَّى الملاريا! إلا أنَّ الموتَ بسببِ المنطقِ أنَ وفاة "السلطانة خُرَّم" قد جاءت نتيجة مرضٍ مختلفٍ تمامًا المنطقِ أنَّ وفاةً "السلطانة خُرَّم" قد جاءت نتيجة مرضٍ مختلفٍ تمامًا عمّا قاله الأطاء (٢٠٠٠).

<sup>(</sup>١١٩) - حضرة خاصكي السلطانة الكبرى العتيقة: لقب أطلق على السلطانة خرم، ويقصد منه التبجيل والتكويم والإحترام.

<sup>(</sup>١٢٠) حيث كانت تسمى والدة السلاطين، حضرة السلطانة المبجلة الأولى...

<sup>(</sup>١٣١) - بَلْطَجِي، المصدر السابق، ص ٤٩٨ -

<sup>(</sup>١٢٢) طَاشُكِيزانْ، المصدر السابق، ص ٢٧.

[السُّلطانة "نُحُرُّم"] ------ ١٠٩

ونجدُ الرحالةَ المشـرِقِيَّ "قطبَ الدين المكِّيِّ"(٢٢٠) يذكرُ لنا ما يلي في كتابه "الفوائدُ السنيَّةُ في رحلة المدينة والروميّة":

"لقد توفِيّت والدةُ السلاطين يوم السبتِ في السادسِ والعشرينَ من جمادى الآخر بعد أن تَعَسَّرَ شفاؤها من مرض عضالٍ ألمَّ بها قبلَ فترةٍ، ولقد شُيِّعَت جنازةُ أمِّ السلاطين وملجأِ المساكين السلطانة "خَاصَكِي" طيُّبَ اللهُ ثراها ودامَتْ عِصْمَتُهَا حتى جامع "بيازيد" الذي وصلَتْهُ محمولةً على أكتافِ الوزراءِ، (۱۲۱) وبعد أن قُضِيَتْ صلاةُ الجنازةِ التي أمَّهَا المفتي الأعظم تمَّ دفئها على يدِ المفتي الأكبرِ شيخِ الإسلام، وقد عمَّ الحزنُ على أهلِ إسطنبولَ بوفاتِها. "(۱۲۰)

# الضريحُ الذي منحَ الحياةَ لحديقةِ الربيع

بعدَ أَنْ دُفِنَتُ "السلطانة خُرَّم" في مقبرَةِ جامِعِ "السليمانيّة" أُقيمَ لها ضريح هناك حيثُ أَمَرَ السلطانُ "القانونيّ" فيما بعدُ بتشييدِ مقبرةٍ كبيرةٍ لها، ونجدُ أنه قد كُتِبَتْ آيةٌ قرآنيَّةٌ ذاتُ حَجْمٍ كبيرٍ على الرخامِ المُثَبّتِ في إطارِ القُبَّةِ الخاصَّةِ بضريحِ "السلطانة خُرَّم" ذي الثمانِ زوايا.

ويتميّزُ مدخلُ ذلك الضريحِ بأنَّ له رواقًا وبابًا وكلا جانبيه مزيَّنٌ بلوحاتٍ خَزَفِيّة، وعلى هذه اللوحات نجدُ آياتٍ من القرآن الكريم قد

<sup>(</sup>١٦٣) ولد "قطب الدين مكي نهروالي" في "لاهور" عام (١٩٥١م/١٩هـ)، درس لفترة في مكة، وفي الأعوام التالية تم تعيينه مفني وقاضي لمدينة مكة نتيجة لعلو مكانته وتقدير رجال الدولة له. قام "مكي" بزيارتين إلى إسطئبول كانت أولاهما عام (١٩٥٦م) حيث اجتمع في كلا الزيارتين برجال الدولة العثمانية وكذلك دخل في نقاشات علمية مع الملماء، وفي عام (١٩٦٥م) أرسل إلى مقر الخلافة بصفة مبعوث من شريف مكة المبيد "حسن ابن نومي" مع رجاء وطلب منه بإعفاء رئيس الانكشارية "بيري" الذي كان بالمدينة المنورة. وفي عام (١٥٦٧م) تم تعيين "مكي" من قبل السلطان "القانوني" كأول مدرس للمذهب الحنفي في المدرسة (السلمانية)، وفي عام (١٥٩٢م) توفي الشيخ "مكي" في مكان يسمى "الجنة المعلى".

<sup>(</sup>١٣٤) لقد حملت "السلطانة خُرم" عدة ألقاب سواء في حياتها أو بعد وفاتها، وصار من الثابت أن هذه السيدة قد استحقت الكثير من الألقاب العظيمة وقد تمتعت السلطانة بالاحترام وكانت لها مكانة مميزة بين أفراد الأسرة الحاكمة. (١٣٥) - طَانْتُكِيرانُ، المصدر السابق، ص ٢٠.



ضريح "السلطانة خُرّم" في حظيرة جامع السليمانية في إسطنبول

كُتِبَتْ بالخَزْفِ أيضًا بالإضافة إلى عباراتِ "لا إله إلا لله" و"سبحان الله" و" الحمد لله"، وعند الدخولِ من بابِ الضريحِ نرى أعمالًا خزفيّةً مزخرفةً صفراء تعودُ إلى القرنِ السادسَ عشرَ، وعلى النافذةِ نلاحِظُ آياتٍ قرانيّةً مكتوبة أيضًا على اللوحاتِ الخزفيّةِ التي تعلوها، أما حوائطُ الضريحِ فعليها أعمالٌ خزفيّةٌ تكادُ من روعتِها تَمَسُّ القلبَ وتُشْعِرُ الإنسانَ بأنه في حديقة من حدائقِ الربيعِ، وفي نهايةِ الحائطِ نجدُ إطارًا من النقوشِ الخزفيّةِ البديعة والخلابةِ، أما زخارفُ قبّةِ الضريحِ التي تحمِلُ سماتِ عصرِها فقد ضاعت نتيجةً عمليّاتِ الترميم (٢١١).

\* \* \*

ومن أجل خدمة ضريح "السلطانة خُرَّم" فقد تمَّ تعيينُ عدد كبير من الموظفين، وكان هؤلاء الموظفونَ ينقسمون إلى مجموعات متنوعة، أمَّا مجموعة القرَّاء فقد كانت تتكوّنُ من واحد وثلاثين قارئًا تقرأُ هذه المجموعة جزءًا من القرآن الكريم في أوقاتِ الصبح والظهر والعصر، هذا بالإضافة إلى مجموعة الحراسة والتي كانت تتكوّن من ستة وثلاثين شخص يقومون بأعمالِ الحراسة، أما المجموعة الأخيرة التي كانت تعملُ في خدمة الضريح فقد كانت تتكوّن من تسعة أشخاص عُهدت إليهم أعمالٌ مختلفة، ومن خلال ذلك يُفهَمُ أن عددَ العمال بلعَ مائةً وثمانيةً وثلاثين شخصًا يعملُ يوميًا في خدمة الضريح.

...

لقد نجحت "السلطانة نحرَّم" في أن تَلْفِتَ نظرَ "القانوني" من بينِ جواري القصر الكثيرات، حتى إنها استطاعَتْ في النهاية أن تُصبِعَ

(۱۲۱) مَالُوكَ شَاهُسُوفَاذِ أَوْظُلُو (Haluk Sehsuwarogiu)، " إسطنبول على مر العصور"، العلمق التاريخي لجريدة العديدة عند من العصور "، العلمة التاريخي لجريدة

١١٢ ------ [خُرَم ومِهْرِمَاهُ]

محظيّت والأقرب إليه من بينهِن، كما تمكّنت من أن تفوز بحق العِنْق بعد أن أنجبت للسلطان أمراء، وكانت تتمنّع عن لقائه حتى نالت في نهاية الأمر ما كانت تصبو إليه؛ إذ عُقِدَ قرانُها على السلطان بشكل رسمي، للأمر ما كانت تصبو إليه؛ إذ عُقِدَ قرانُها على السلطان بشكل رسمي، لقد أحبّها "القانونيُّ كثيرًا لدرجة أنه قد شيّد الأوقاف باسمها، حيث أمر بتشييد دار لإطعام المحتاجين في كلٍّ من مكة المكرمة والمدينة المنورة، كما قام ببناء دار أخرى وخان للقوافل وجامع في منطقة "جسر مصطفى باشا" بمنطقة "أدرنه" وذلك على شاطئ "مَريع (Meriç)"، كما أمر بإقامة الكثير من السّبل المجانية في "أدرنه" وجلبَ لها الماء، وأرسل إلى أهالي الحجاز -متصدّقًا عن زوجته السلطانة المرحومة - عام (١٥٦١م) صدقات الحجاز -متصدّقًا عن زوجته السلطانة المرحومة - عام (١٥٦١م) صدقات الحجاز -متصدّقًا عن زوجته السلطانة المرحومة - عام (٢٥١م)

### حكاياتٌ ملفَقةٌ من نسج الخيال

إنّ بعضًا من المؤرّخين الأتراك وبعضًا من المؤرّخين الغربيّين الذين يُصدرون الأحكام -في حقّ حريم السلطان عمومًا، وفي حقّ السلطانة خرّم، خصوصًا- كان هدفُهم ومبتغاهم الإساءة إلى كلّ ماقامت به السلطانة خرّم، حتى صاروا يسعون جاهدين بكلّ وسائلِهم المتاحة إلى إظهار هذه السيدة المحبة للخير ذات الفِطْنة وصاحبة الفراسة على أنها منبعٌ للشرّ والفساد.

فَمِنْ جُملةِ الأعمالِ التي تُنسَبُ لمؤلّفين اعتُبِرُوا من الكُتّاب العالميين والمشاهيرِ بسببِ الرواياتِ والسِّيرِ الذاتيَّةِ التي كتبوها عن السلطان "القانونيّ" كتابُ "فيرفاكس دونى (Fairfax Downey)" (۲۲۷) و "هارولد لامب

<sup>(</sup>١٢٧) ولد "فيرفكس دونى" عام (١٨٩٤م) تخرج في جامعة "ياله" وعمل كصحفي، عرف ككاتب في التاريخ المسكري، واشتهر عندنا بكتابه عن التاريخ المثماني الذي صدر تحت عنوان"The Grande Turke. Suleyman The نفي صدر تحت عنوان"Magnificent. Sultan of The Octomans. أو "المركي المبخل، السلطان العثماني "سليمان العظيم"، وقد توفي في ولاية "نيو هامشير" في الولايات المتحدة الأمريكية عام (١٩٩٠م).

(Harold Lamb) "(١٢٨) فإننا لا نجدُ سوى قصصٍ لا تعتمدُ على أي أساسٍ من الصحةِ وتبدو في صورةِ حكاياتٍ شخصيةٍ تُصوِّرُ "خُرَّم" والسلطانَ "القانونيَّ" على أنهما كانا كيانًا واحدًا لا يفترقانِ عن بعضِهما البعض، وإن العاقل والمتدبّر ليعلمُ أنّ تلك الولفاتِ ما هي إلا أعمالٌ خياليّةٌ وقصص خرافيّة، وإنه لَمِنْ إضاعةِ الوقتِ كذلكَ أن نجلِسَ لنَنْقُدَ هذه الحكايات والروايات والتي نراها في الغالبِ تأخُذُ شكلَ الأسطورةِ دون أن تستنِدَ إلى أي حقيقةٍ أو معلومةٍ صحيحةٍ أو برهان.

\* \* \*

إننا نَجِدُ في المقابلِ أنَّ "قطبَ الدين المكّيِّ" -الذي كان من العلماء المشاهيرِ في تلك الفترة- يذكرُ لنا أنَّ "السلطانة خُرَّم" قد انشأتِ الكثير من الأوقافِ والأعمالِ الخيريّة في عدَّة مدنٍ عثمانيّة، وعلى رأس هذه الأعمال ما نجده في مكة المكرمة والمدينةِ المنوّرة والقدسِ الشريفِ، كما يذكرُ كذلكَ لنا أنَّ كلَّ أهلِ إسطنبولَ قد تأثّروا لوفاتِها.

# هدفهم معاداة الدولة العثمانية

إن هناكَ فئةً كبيرةً من مؤرِّخي الغربِ قد اغتنمَتْ كلّ الفُرَصِ لكي تفصح عن عداوتِها للدولة العثمانيّةِ، وقد بذلَ أولئِك المؤرِّخون قُصارى جُهدهم لكي يحقِّقوا غايتَهم في النيلِ من شموخِ ومكانةِ الدولةِ العثمانيّةِ، مستغلِّينَ بذلك كلَّ الأحداث، ومستخدمينَ شتَّى الوسائل.

<sup>(</sup>١٦٨) ولد "هارولد لامب" في ولاية "نيو جبرسى" بالولايات المتحدة عام (١٨٩٧). أنهى دراسته في جامعة "كولومبيا"، اهتم أثناء فترة دراسته بتاريخ الشعوب الأسيوية ثم تفرغ بعد الحرب العالمية الأولى لعمل الأبحاث الناريخية. ونظرا لأعماله العلمية فقد نال عام (١٩٣٣م) بعلينة "سان قرانسكو" جائزة مجموعة "الكومونولت"، وهو معروف لدينا بفضل دراساته التي تناول فيها "جنكيز خان" و"تيمورلنك" والسلطان "القانوني".

وقد كانت الحوادث المتعلقة بمقتل "إبراهيم باشا" والأمير مصطفى إحدى حلقات سلسلة الأحداث التي استغلَّهَا هؤلاءِ الكُتَّابِ الغربيون من إجل إثبات ادِّعاءاتِهم والوصولِ إلى غاياتِهم.

لقد كان الهدفُ من هذه المحاولاتِ هو التقليلُ من القامةِ العاليةِ والهامةِ المرفوعةِ التي كان يمثِلُها السلطان "القانونيّ" الذي رفعَ رايةَ الإسلامِ عاليًا، واستطاعَ أن يصنعَ لنا أزهى عصورِ الدولةِ العثمانيَّةِ وأن يجعلَ كلّ أوروبًّا ترضخُ لقوَّةِ الهلالِ (أي: الإسلام) الذي انطلَقَ من البلقان فاستطاعَ أن يملأً بأصواتِ نِعالِ خيولِهِ العثمانيّةِ أرجاءَ القارةِ الأوروبيَّةِ.

لقد حاول هؤلاء أن يطبعوا في الأذهانِ صورةً عن "سليمان القانوني" توحي بأنه عجوزٌ خائرُ القُوى، أسيرٌ لغرائزِه، ضعيفُ النفسِ بلا إرادةٍ، ظالم، قاسي القلب، قتلَ ابنَهُ بلا شفقةٍ إرضاءً لِعِشْقِه، لقد قام هؤلاء بمحاولاتِ التشويهِ المتكرِّرة لسيرةِ حريمِ السلطانِ العثمانيِّ، وكانت وسيلتُهم في ذلك هي "السلطانة خُرَّم" وابنتها "مِهْرِمَاه" من خلالِ تصويرِ تلك القاماتِ الشامخةِ على أنها شخصيّاتٌ شيطانيةٌ وفي أسفل السافلين.

ومع الأسفِ فقد انساقَ كُتَّابُنا ذوو الميولِ الغربيّة هم الآخرون وراءَ هذه الادِّعاءات والأكاذيبِ، فسقطوا في حماقة ترديدِ الهراءاتِ والمقولات غيرِ المنطقية عن "سليمان القانونيّ" مثلَ مقولةِ "البطلُ المسكينُ الذي انساقَ مخدوعًا بالأباطيل".

إن مما يجبُ على المؤرِّخِ أولًا: أن يضعَ يدَه على الوثائِقِ السليمةِ قبلَ أن يشعَ على الوثائِقِ السليمةِ قبلَ أن يشرعَ في تقييمِ الأحداثِ، ثم يدقِّقُ النظرَ والفحصَ في المصادرِ والوثائِقِ التي بين يديهِ حتى يتأكدَ من صحتها من خلالِ العقلِ والمنطقِ، كما يجب على المؤرِّخِ أيضًا أن يجتهدَ في تحرِّي وفهم الأهدافِ التي يحملُها أصحابُ هذه الوثائِقِ، إن المؤرِّخ العادل لا يوجِّهُ للشخصيًّاتِ

التاريخيةِ افتراءاتٍ بلا سندٍ أو ادعاءاتٍ بلا دليل، حيث إنه لا يمكنُ تقييمُ السوادث أو الأشخاصِ بشكلٍ صحيحٍ من خلالِ مثلِ تلكَ الافترءاتِ والادعاءاتِ، فإنّ المؤرّخ لا يكيلُ الإهاناتِ ويُصدِر الاتهاماتِ إلى أعلامِ التاريخ بشكلٍ تعشّفِيّ دون دليل.

إن بعض مؤرِّ خينا لم يقوموا بتحليلٍ وافٍ للأحداثِ التاريخيّةِ، ولم يستوعِبُوا بشكلٍ سليم العلاقة الحتميّة بين السببِ والنتيجةِ، حتى إنهم مع الأسفِ ضاقت أفقهُم وصاروا يتعاملونَ بانحيازِ تامٍّ مع الأحداثِ التاريخيّة.

ونلاحِظُ أن هـؤلاءِ المؤرّخين -في أغلب أحوالهم- لم يفعلوا شـيئًا سوى إعادةِ وترديدِ أفكارِ وأقوالِ الكُتّابِ الغربيّين.

إن أحدَ مؤرخينا الكبار وهو الأستاذ الدكتور "أ. ذكى وليدى توجان (Zeki Velidi Togan)" يقول لنا:

"إن ممّا يجبُ على المؤرِّخِ أن يجتهدَ ليتأكَّدَ من معرفةِ أيِّ عاملٍ من العواملِ المؤرِّخِ أن يجتهدَ ليتأكَّدَ من معرفةِ أيِّ عاملٍ من العواملِ المؤرِّخِ أن يعلم جيِّدًا التركيبةَ النفسيَّةَ للبشرِ، وأكثر من ذلك فإنَّ على المؤرِّخِ أن يُدْرِكَ الطبيعةَ النفسيَّةَ للشعوبِ والمجموعاتِ وذلك من أجلِ أن يكونَ قادرًا على فهمِ الأحداثِ التي وقعَتْ في الأزمِنةِ الماضية وكذلك على فهمِ الأشخاصِ والجماعاتِ التي لعبت دورًا في تلك الأحداث فهمًا صحيحًا). "(١٦٠)

ومن الباحثين المهمِّين في التاريخ نجـدُ "محمد نيـازي (Mehmed)" الذي يقول لنا معلِّقًا على هذا الموضوع:

<sup>(</sup>١٢٩) أ.د أحمد ذكي وليدي تُوجَانُ (Togan)، " الأساس في التاريخ "، إسطنبول -- ١٩٨٥م، ص ١٠٧.

"على المؤرخ عندما يدرُسُ كلَّ الأبعادِ المحيطةِ بالواقعةِ التاريخيةِ التي بين يديه أن يتحلَّى بدقةٍ وحرصِ العالِمِ الخبيرِ الذي يقفُ في المختبرِ العمليِّ، وعليه أيضًا أن يكونَ محايدًا إلى أقصى درجةٍ في مواجهةٍ ما يسجَلُه من وقائِع."(١٣٠)

\* \* \*

"إن المسؤولية عن هذه الجريمة التاريخية المهولة تقعُ على عاتق السلطانة خُرَّم" ذاتِ الأصلِ البولنديِّ أو الروسيِّ والتي قامت بها بالاشتراكِ مع عريسِ ابنتِها المقرّبِ منها "رستم باشا" الكرواتى الذي كان أداتها لتنفيذِ مآربها السياسيّةِ ".

وذلـك لأنّ البشـرَ لا يختـارون بإرادتهــم الأعـراقَ أو الشـعوبَ التي ينتمونَ إليها.

"لا شك في أنَّ "السلطانة خُرُم" كان لها دورٌ في وفاةِ الأميرِ مصطفى، إذ من المحتملِ أنها لم تكنُّ ترغبُ في وجودِ أيِّ عائِقٍ أمام أحدِ أبنائِها في طريقِ تولِّي الحكمِ عند وفاةِ القانونيّ ".

إن المؤرِّخَ المحايدَ لا يسمحُ لنفسِهِ أن يُصدِرَ أحكامًا عامَّةً فيما يتعلَّقُ بمُجملِ أحداثِ التاريخ، فلا يستخدِمُ تعبيراتٍ مثلَ؛

"...هؤلاء الناس الذين انعدمَ عندهم الضمير"

أو:

<sup>(</sup>١٣٠) محمد نيازِي أُوزْدَمْيز (Özdemir)، فلسفة التاريخ التركي، إسطنبول – ٢٠٠٨م، ص ٩٤.

"...لقد كانت تلك إحدى الفترات التي استطاعت فيها عناصرُ غيرُ تركيةٍ سواء من الرجال أو النساء الاستيلاء على مقاليدِ الحكم وعلى القصر العثماني..."

لقد كان في تاريخ العثمانيين الكثيرُ من العناصِرِ غيرِ التركيّة التي لا تُعدّ ولا تُحصى والتي خدمت الدولة العليّة والعالم الإسلاميّ الحنيف، فنجدُ العشراتِ من رجالِ الدولةِ ابتداءً من "صوكوللو (Sokullu» إلى "كوبورلو (Köprülü» والذين لا ينتمون إلى أصول تركيّة ولكنّنا نَجِدُ أنهم قد قاموا بخدَمَاتٍ جليلةٍ للدولةِ، وجعلوا حياتَهم وقفًا على الدولة العثمانية من أجل إعلاءِ شأنها.

إِنَّ تاريخ العثمانيين يحوي الآلافَ من الجواري اللاتي كُنَّ ضمنَ الحريمِ واللاتي كُنَّ ضمنَ الحريمِ واللاتي كُنَّ من جميعِ الجنسيَّات، فكانت منهن ذاتُ الأصلِ الإيطاليِّ أو الروسيِ أو البولنديِّ أو الأوكرانيِّ أو الجورجيِّ أو الشركسِيِّ أو غيرِها من الأصولِ، وقد تمكَّن قسمٌ من هؤلاءِ الجواري أن يكونَ جزءًا من حريمِ السلطانِ لتصبحَ الواحدةُ منهنَّ مُشتَفْرَشَةُ (kadinefendi) أو محظيةً (haseki)، بل إنَّ بعضَهُنَّ قد علا شانُها أحيانًا فوصلت إلى درجة أن تحمِلَ لقبَ "السلطانة الوالدة".

فمن السلطانة "نوربانو (Nurbânu)" إلى "برتفنيال (Pertevniyal)" ومن الحديجة طرخان (Tarhan)" إلى "بزمي عالم (Bezmiâlem)"، نجدُ الكثيرَ من نماذج السلطانة الوالدة واللاتي ضربْنَ المثلَ في الشفقة والرحمة، وكانت غاية حياة هؤلاء السيدات هي تقديم الجدمة للناس، حيث تعلقت قلوبُهُنَّ بالله وبحبيبه الرسول ، كذلك نجدُ أنَّهُنَّ قد سعيْنَ من خلالِ الأوقافِ الخيريَّةِ الكثيرةِ اللاتي أقمنها إلى ضمانِ تحقيقِ التكافلِ الاجتماعيّ داخلَ المجتمع.

## أعمال "السلطانة خرم" الخيرية

### أفضل الأعمال الخيريّةِ هو تأسيسُ وقفٍ

لقد كانت الدولة العليّة تستوعب الناس من كلِّ دينٍ ومذهبٍ وعِرقٍ، رجالًا ونساءً، وتصبغهم بصبغتها، وبذلك جعلت كثيرًا من الأسخاص الذين نشؤوا في بيئات مختلفة وينتمون إلى أفكار متباينة، يخدمون الإسلام والقرآن.

لقد أصبحت "السلطانة خُرَّم" بالنسبة للسلطان "القانوني" هي السلطانة المُقَرِّبَةُ إلى قلبه، فصارت بذلك سيدة القصر الأولَى، أما "السلطان سليمان" فهو باعترافِ المُؤرِّخين الغربيِّينَ والأتراك على حدٍّ سواء، يُعتَبَرُ واحدًا من أقوى حُكَّام العالَم على مرِّ التاريخ.

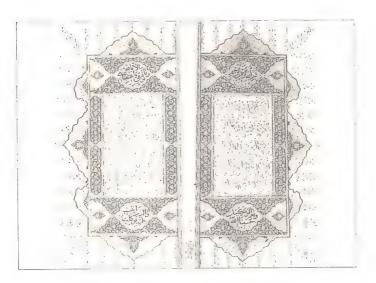
لقد استطاعت "السلطانة خُرَّم" التي كان "السلطان سليمان" شغوفًا بها ويُكِنُ لها حبًّا شديدًا، أن تحيا حياةً سعيدةً مليئةً بالهناء والسرور، ورغم أنها لم تكن لديها أيّة أطماع دنيوية، فقد سَعَتْ من أجل نَيلِ رضا الله ﷺ (۱۳۰) وشفاعة الرسول ﷺ ببناء الكثيرِ من الأوقافِ الخيريّة، تحدوها الرغبة في خدمة الإنسانية والمجتمع(۱۳۰).

\* \* \*

<sup>(</sup>١٣١) ﴿ وَاللَّهِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِلُونَ ﴾ (شورَةُ البَقْرَةِ: ٨٣/٢).

<sup>(</sup>١٣٢) ﴿ رُوي عَنْ أَبِي مُرَيْرَةَ عَلَى أَنْ رَسُولَ اللَّهِ \$1. قال: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ الْفَطْعَ عَنْهُ حَمْلُهُ إِلَّا مِنْ أَسْدُقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمَ يَتَشَفّعُ بِهِ، أَوْ وَلَدِ صَالِح يَدْعُو لَهُ ". (مسلم، الوصية، ١٤).

لا يوجد شك في أن إنشاء الأوقاف من أفضل الأعمال الخبرية التي تبقى للإنسان، إن الوقف يظلُ مستمرًا في القيام بواجبه بلا انقطاع حتى بعد موت صاحبه، ولا يتوقف ما دامت الدنيا قائمة.



الصفحتان الأولى والثانية في لائحة وقف "السلطانة خُرّم" (أرشيف وزارة الأوقاف، رقم-٢٨/K)

ولقد أُشيرَ في لائحةِ الوقفِ الذي بَنَتُهُ "السلطانة خُرَّم"، وهي سيدة ناضجة في سنّ السادسةِ والثلاثين من عمرها، عام (١٥٤٠م/٩٤٧هـ)، إلى عجزِ الإنسانِ أمام القدرة الإلهيّةِ، وإلى أن الحياةَ في الدنيا قصيرةً، كما بين غمضةِ عينِ وانفتاحِها.

والكلمات التاليةُ في لائحة وقف السلطانة "خَاصَكِي" تُبَيِّن لنا مدى حُبِّها لِعَمَـلِ الخير والمعروف، وقَدْرَ ما تَمَتَّعَتْ به من حماسةٍ وجهدٍ في هذا الصدّد:

"لقد أَغْدَقَ ذلك الوَقْفُ بالنِّعَمِ والخيرات على كلِّ الأهالي، كما بُسِطَتْ موائدُ الخير في شتّى البقاع، لقد كانت نِعَمُ ذلك الوَقْفِ وافرةً منتشرةً، كالأنهار التي ينال كلُّ إنسانٍ نصيبَه منها، ونَدُرَ مَنْ لم يَنْهَلْ مِن مَعِين هذه النعم والجيرات الوفيرة، وكان الناس يأتونَهُ من كلّ حَدَبٍ وصَوْب، ومن كل مكانٍ قريبًا كان أم بعيدًا".

"لقد أرادت السلطانة أن تستمر خيرات هذا الوقف الوفيرة، وأن تظلً متوفِّرة ومفتوحة أمام الفقراء والمحتاجين بدون انقطاع إلى يوم القيامة".

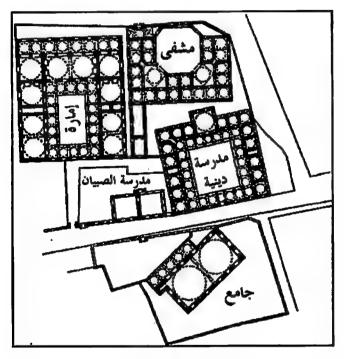
"اللهم لا تَقْطَعْ غَيْثَ إحسانِها عن السائِلينَ، ولا تَحْرِمُ أحدًا كَرَمَها، ولا تَـرُدُّ أَحَدًا خَـاوِيَ الوِفَاضِ مِن عندها، ولْيَهْطِلُ على الناس إحسانها ومَدَدُها كالأمطار المباركة المُتتَابِعة"(١٣٣).

# المجمع الذي بُني مكان سوق "أَوْرَتْ (Avrat)"(١٣٤)

كان "السلطان سليمان" الذي حكم أرجاء المعمورة، مع زوجته

<sup>(</sup>١٣٣) فِعْمَةَ طَأَشُكِيرَانُ (Taykırun)، كتاب " حصاكي "، إسطنبول - ١٩٧٢، ص ٤٢-٤٤.

<sup>(</sup>١٣٤) - أَوْرَثْ: تعني بالتركية المرأة ، ولقد تغير اسم المكان هذا وتعافيت عليه أكثر من تسمية، وهو الآن يشتهر باسم منطقة الفاتح. (المترجم)



مخطط مجمّع "نحاصَكِي السلطانة خُرّم" في "خَاصَكِي/إسطنبول"

"السلطانة خُرَّم" أثناء الإشراف على بناء مجمع "خَاصَكِي"، ولم يَتَوَانَ عن تقديم الدعم المطلق إلى زوجته؛ من أجل إنجاح هذا المشروع.

وكان المهندسُ التركئُ الذي عُهِدَ إليه بمهمةِ إنشاءِ هـذا المُجَمَّعِ، وخلد ذِكْرُه، هو المعماري الكبير "سِنَان"، ذلك الفنان المعماري الذي عمَّتْ شُهرتُه الآفاقُ(١٣٠٠.

بُنِيَ "مجمع خَاصَكِي" في ميدان "أركاديوس (Arkadius)" الذي يُعتَبر واحدًا من أربع ساحاتٍ رئيسيَّةٍ في إسطنبول في عهد البيزنطيين (١٣١٠)، حيث تقع هذه المنطقة على إحدى هضاب إسطنبول السبعة.

وقد سُـمِّيَ هذا الحيُّ بعد فتح إسطنبول باسم حي "باشجي حاجي (Başçı Hacı)"، (۱۳۷۱) ثم أصبح يطلقُ عليه بعد تَشْيِيدِ بناياتِ وعمائرِ الأوقافِ اسمَ سوق "أَوْرَتْ (Avral)" أي: النساء (۱۳۸).

وظلت المنطقة تحمل هذا الاسم لمدَّة تزيدُ عن أربعمائة عام، حتى أواخر القرنِ التاسع عشر.

(١٣٥) لقد كان المجمع الخيري الذي أنشأته "السلطانة خَاصَكِي"، هو أول الأعمال التي قام بها "سِنَان" بعد أن تم تعيينه كمهندس معماري؛ حيث استطاع هذا المجمع أن يقدم إلى الفن المعماري إضافة متميزة ومختلفة.

(٣٦١) أقام الإمبراطور البيزنطي "أركاديوس" في هذا المكان عام (٣٠ ٤م) بإقامة عمود بارتفاع أربعين متزا؛ ليحمل اسم والده "ثيودوس"، أما ابنه "ثيودوس الثاني" فقد قام بوضع تمثال لوالده بجوار الممود، ويمكن أن ترى بقايا هذا العمود اليوم في المنطقة نفسها! حيث تبدر في صورة كتلة حجرية.

(١٣٧) كان طُبَاخ الكِزاع "الحاج محمود" هو كبير طهاة الكِزاع لدى السلطان "الفاتح"، وكان من الشخصيات المعروفة في ذلك العصر، وقد قام ذلك الشخص فيما بعد بإنشاء مسجد صغير في المنطقة التي تحمل اسمه، لكن هذا المسجد احترق تمامًا في الحريق الذي وقع عام (١٩١٨م).

(۱۳۸) بعد أن تم تأسيس المجمع، أمر السلطان "سليمان القانوني" بتأسيس سوق للنساء في المنطقة نفسها، وقد لُهُهم هذا الأمر على مَخْتَل اللَّقْف مِن قِبَل السلطان تجاه زوجته، وبناءً على ما يذكره "ممبوري (Mamboury)" الذي ألف كتاب "دليل إسطنبول": إن هذه السوق المفتوحة التي تُعرَف باسم سوق "أؤرَث" التي ترتادها النساء على وجه الخصوص من أجل البيع والشراء، كان يتم العمل بها في أحد أيام الأسبوع، وذلك في المنطقة السالف ذكرها، إن مصطلح سوق "أورت" لا يشير إلى بقاء بيع الجواري فيه على ذلك الوقت أو أنه سوق تباع فيه النساء الأسيرات.

لقد صار "حيُّ خَاصَكِي"(١٣١) حيًّا محبوبًا ومميّزًا منذ عام خمسمائة ميلاديّة حتى يومنا هذا.

ولم يكن من قَبِيلِ الصدفةِ أن يقومَ السلطان باختيار هذه المنطقةِ من أجل تخليد ذكرى محبوبتِهِ السلطانه "خُرَّم" التي أُغْرِمَ بها.

إن هذه المنطقة التي أحبُّها البيزنطيون قد تعلَّق بها العثمانيون أيضًا.

...

وقد بدأت مجموعةُ أبنيةِ "خَاصَكِي" بجامعٍ صغيرٍ ذي قُبَةٍ واحدةٍ في سوق "أَوْرَتْ" من عام (١٥٣٨م)، ثم توسَّعت في العام التالي لذلك التاريخ؛ حيث أُلحِقَت بها مدرسة دينيَّةٌ ومدرسةٌ للصبيان(١٠٠٠).

وقبل الانتهاء من بناء كلِّ من مجمع "شهزاده (Şehzâde)" الخيري، ومجمع "السليمانية" كان "مجمع خَاصَكِي" قد صار مركزًا اجتماعيًّا كبيرًا بعد أن أُضيفَ إليه مشفى ودار لإطعام المحتاحين.

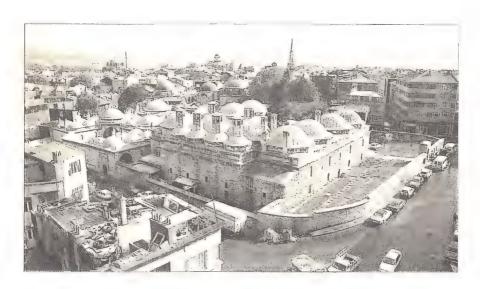
وقد كان الجامع في شارعٍ مُحاذٍ لـ"مجمّع خَاصَكِي" بالقُرْبِ منه، أما المدرسةُ الدينيّةُ، ومدرسةُ الصبيان، والمشفى، ودارُ إطعامِ المحتاجين، فعلى الجانبِ الآخرِ منه.

#### كلمة "محمد" بالخط الكوفي

إن الجوامع في المجمّعات العثمانيّة الخيريّة، تُعتبرُ هي البناء الرئيس في المُجَمَّعِ أو الوقف، وكان النظام المُتَّبَعُ أن تشيَّدَ حولَ الجامعِ وفي محيطه باقي البنايات المُلحَقة بذلك الوقف.

<sup>(</sup>١٣٩) لقد أخذت هذه المنطقة اسم "خَاصَكِي" مع بداية القرن العشرين.

<sup>(</sup>١٤٠) " "دُوغَانُ كُويَانُ (Dogan Kuban)"، "مجمع خَاصَكِي" موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول -٢٠٠٣م، الجزء الرابع، ص ٥.



المنظر العام لمجمّع "خَاصَكِي السلطانة خُرَم" في "خَاصَكِي/إسطنبول"

ويناءً على لوحة جامع "خَاصَكِي"، المحفوظة اليوم في متحفِ "جِينِيلِي كُوشْكْ (Çinili Köşk)" بقصر "طوب قابي"، فقد شُيِّدَ الجامعُ فيما بين عامَيْ (١٥٣٩/١٥٣٨م).

وفي هذه اللوحةِ المنقوشةِ، يُذكر بشكلٍ وجيزٍ المراحلُ التي مَرَّ بها الجامع، على النحو الآتي:

"لقد شُرع في بناء هذا الأثر من قِبَل "السلطانة خُرُم" عام ١٥٣٨ م ٩٤٥/ ٩٩هـ)، وقد تطرُّعت السلطانة وبشكل خيري في تجهيز و بالكامل، وبسبب ضيق المكان، وعدم اتساع الجامع لأداء صلاة الجماعة، فقد تَمَّتْ توسعتُه، بإضافة قُبَة أخرى، بفضل جهود "حسن بك" المسؤول عن الوقف في عهد السلطان "أحمد الأول" عام (١٦١٢م)، وذلك بعد مُضِيّ أربعة وسبعين عامًا على إنشائه، وتم إجراء هذا التعديل من قِبَل المهندس المعماري "صدفكار (Sedefkar) محمد آغا"(١١٠).

...

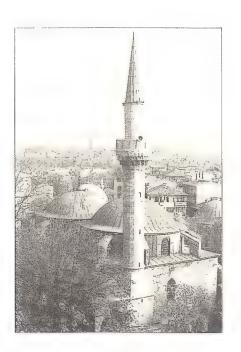
كان جامع "خَاصَكِي" يُشبه قبل ترميمِهِ الجوامعَ العثمانيَّةَ التي شُيدَة واحدةٍ مُشَيَّدةٍ فوقَ مكانٍ مربَّعِ الشكلِ، وكان يُستخدَم تعبير "جامع ذو قبّةٍ واحدةٍ" من أجل الإشارة إلى هذا الطِّرازِ من الجوامع العثمانية.

عند الوصولِ إلى مدخلِ الجامع، وبعدَ اجتيازِ بابِ الحديقةِ، نجدُ أمامَنا مكانَ الصلاة، ورُوَاق الجامع الذي تحمله ستةُ أعمدةٍ -وقد انمحى جمالها المعماري؛ جرّاء إقفالِ المسافاتِ التي بينها بالزجاجِ والحديدِ حاليًا- وقد كانت هذه الأروقةُ تغطّي فحسب الجزءَ الأماميّ من المكان القديم ذي القبّةِ الواحدةِ، الموجود في هذا الجامع والذي تمّ تشييدُه في

<sup>(</sup>١٤١) "نسمًا دُوغَانُ (Sema Doğan)"، "مجمع خَاصَكِي"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول -٢٠٠٢م، الجزء السادس عشر، ص ٢٧٠.

عهدِ السلطانِ القانونيِّ، يعني أنه لا يوجد رُوَاق أمام القسم الإضافي الذي أُنشِئ وأُضيفَ بعد ذلك بإلحاق قبّة أخرى في عهد السلطان "أحمد الأول".

\* \* \*



مسجد "خَاصَكِي السلطانة خُرّم" في "خَاصَكِي/إسطنبول"

وداخلَ البابِ الرئيسي لجامعِ السلطانة "خَاصَكِي" ذي الشكل المستطيل، نجدُ أنَّه تمَّ عملُ باب ثانٍ أصغرَ قليلًا، وقد زُيِّنَ هذا البابُ الثاني، وكُتب على جوانبه بالخطِّ الكوفيِّ ناحيةَ اليمينِ عبارة: "لا إله إلا الله"، أما على اليسارِ فقد كُتِبتُ كلمة محمد ﷺ أربعُ مرّاتٍ بشكلٍ مستديرٍ.

ويُلاحَظُ أن محاريبَ الجوامعِ العثمانيَّة تكونُ في منتصفِ حائطِ القبلةِ دائمًا، وعندما كان جامع "خَاصَكِي" ذا قُبَّةٍ واحدةٍ، فقد كان محراب القبلةِ دائمًا، وعندما كان جامع "خَاصَكِي" ذا قُبَّةٍ واحدةٍ، فقد كان محراب المسجد واقعًا في منتصف حائطِ القبلةِ، لكن بعد أعمال التوسيعِ التي أجريت للجامع، فقد تمَّتْ زيادةُ طولِ حائطِ القبلةِ بمقدارِ الضعفِ، ونتيجةُ لهذه الزيادةِ في الطولِ، فقد أصبحَ من الضروريِّ أن يتغيَّرَ مكانُ المحراب أيضًا حيث أُلْغِيَ مكانُه الأصلي بإحلال عمودٍ كبيرٍ محلَّهُ، ليُصْبِحَ موضعُ المحرابِ الجديدِ في مكانٍ آخرَ، وليقعَ متوسطًا بين القُبَّينِ.

#### هل المعماري "سِنَان" هو من أنشأ الجامع؟

إن عملية توسيع جامع "خَاصَكِي"، وما صاحبها من إضافة مساحة جديدة للجامع، أدَّت إلى تغيير مكان المحراب الأصلي، وحدوث تحوُّل في شكل الجامع من الشكل المربّع إلى الشكل المستطيل، ويمكن أن نقول بتعبير آخر: إن الشكل الخارجي للجامع قد أصابه شيء من الانحراف عن نُسَقِهِ القديم.

ففي حين كان طول حائط المحراب القديم (١١,٦٥) مترًا، فقد صار طول الحائط الجديد (١١,٩٠) مترًا، وبما أن طول كلِّ حائطٍ من الحوائطِ المتبقية في الجامع هو (١١,١٠) مترًا، فهذا يعني أن القسم الجديد الذي تمت إضافته يعتبر أكبر إلى حدِّ ما.

إن الأعمدة التي تم رَفْعُها بين كلا القِسمين قد أَفسدتْ شكلَ الجامع، وهو ما يمكن اعتباره نتيجة حتميّة من الناحية الهندسيّة، كما أُحْدَثَت إضافة قسم جديد إلى الجامع انتقالَ موضع جلوسِ السلطانِ العثمانيّ، ليصبحَ في القسمِ الجديدِ، في حين ظلَّ المنبرُ كما هو في المكان القديم.

وعلى هذا النحو، فإننا إذا نظرنا إلى الجامع من ناحية الفِناء، يتَّضِح لنا بشكلٍ جليِّ ذلك المكان الذي ضُمَّ فيه القِسمانِ القديم والجديد معًا.

. . .

تتَمَيَّزُ البناياتُ التي يضمُّها "مجمَّع خَاصَكِي" بأنها على النمطِ ذاته، وتتشابه فيما بينها، بينما نجدُ مجمع البنايات في الوقت نفسه بعيدًا من ناحية التصميم عن جامع "خَاصَكِي"، ويمعنى آخر: فإن الجامع لا يُشبه أعمال المهندس المعماري "سِنَان"، سواءً أكانت أعماله السابقة أو اللاحقة.

إن هذا الجامع الذي بُنِيَ وشُيِّدَ تحت رعاية "السلطانة خُرَّم" هو بعيدٌ -من ناحيةِ الفنِّ المعماريّ- كلَّ البُعدِ، عن أن يُعَدَّ من ضمنِ الأعمالِ الرائعةِ التي صمَّمها وأبدعها المعماريُّ العظيم "سِنَان" ولذلك فنحنُ لا نستطيعُ أن ننسُبَ بناء هذا الجامع إليه.

وثُمّة دليلٌ آخر على أن هذا الجامع ليس من أعمال "سنان"، وهو كونه ضعيفًا جدًّا إلى جوار الجوامع التي أمر السلطانُ "القانوني" وزوجته "خُرَّم" "سنانًا" بتشييدِها باسم أفراد عائلتيهما، بالإضافةِ إلى أنه لا يحملُ قيمةً من الناحيةِ المعماريّةِ.

كما لا يمكن أن نَعْقِدَ مُقارَنةً بين هذا الجامع وبين جامع "الشَّليْمانيَّة" أو جامع "السَّلِيميَّة" اللذَينِ يُعَدَّانِ على رأسِ الأعمالِ الرائعةِ والفريدةِ الخاصَّةِ بالمعماريِّ "سِنَان"، ولكن إذا دققنا النظر في هذه الأبنية فإننا نجد بعض بناياتِ المجمّعِ، سواءً أكانت بناية المعهد أو دارُ إطعامِ المحتاجين أو المشفى أو المدرسة، نجد بعضها يحمل طابَعَ وبصمة "سِنَان" بشكلٍ قَطْعِيّ، عندها يمكن القول بأن بعض ملحقات الجامع -وليس كلُّها-، مثل: المِثْذُنَةِ، والأرْوِقَةِ، والصُّفَّة الأخيرة، هي من أعمال "سنان" فقط (١١٢).

هذا، وقد تم تعيين المعماري "سِنَان" في الأساس عام (١٥٣٩م) كبيرًا للمهندسين المعماريّين لاستكمالِ إنشاءِ هذا الجامع؛ لأن التصميم الهندسيُ المخاصُ بجامع الوقفِ لم يَخظَ بالإعجابِ المطلوبِ، فقد كان ذلك التصميمُ فاشلًا من الناحيةِ الجماليّةِ في ذلك الوقت؛ فتحوّلت مهمّةُ إكمالِ بناءِ الجامع إلى "سنان" بعد أن أعفي باقي المهندسين من هذه المُهِمَّة، فجاءَ "سِنَان" وحاولَ جاهدًا من أجل أن يُنقِذ على الأقلّ الواجهة الخارجيّة للجامع، مُنشِئا قُبيلَ الانتهاء من أعمال بناءِ المسجدِ أقسامَ المَنارةِ والأَرْوِقَةِ ومكان الصَّفَّة، حتى إذا اكتمل بناء الجامع عُهِدَ إلى "سِنَان" مهمّة إنشاءِ واستكمالِ باقي الأبنيةِ المُلحقةِ بالمجمّع.

### اللوحات الخزفيَّةُ المفقودةُ

تعتبر المدارس الدينيَّةُ من الأقسام التي لا يمكن إغفالُها في المجمَّع؛ إذ إن هذه المدارس تُعَدُّ بحقٍ نماذجَ مُعبِّرةً عن مدى الاهتمام الذي أَوْلاه حُكَّامُ ذلك العصر بالعِلْم والمعرفة(١١٣).

<sup>(</sup>١٤٢) - طَأَشُكِيرَانَ، المصدر السابق، ص ٩٩-١٠٠.

<sup>(</sup>١٤٢) كانت تعطى الأهمية في المقام الأول لبناء المعارس الدينية بين المؤسسات التي تبنى حول المسجد وذلك في الأثار المثمانية الأولى التي توجد في " إصطبول " أو تلك التي نجدها في مراكز الدولة القديمة مثل " إزنيك (السائلة الأولى التي توجد في " إسطنبول و" أو تلك التي نجدها في مراكز الدولة القديمة مثل " إزنيك (السلمانية " وثمانية مدارس في مجمع " فاتح " بإسطنبول دليلاً واضحًا على الأهمية التي كانت تمتح للعلم، وكان يتم ترتيب المعارس بناء على مستواها العلمي، حيث كانت مدارس " ثمانية " هي أعلى المعارس مرتبة بين مدارس إسطنبول، وكان يليها مباشرة مدارس " السلمانية " و "خاضكي"، وعند تعين المدرسين في هذه المعارس لم يكن يسمح إلا فيما ندر بالانتقال الفجائي إلى المراتب العليا دون المرور بالمراتب الأولى.

وفي عام (١٥٣٨م)، بعد أن تم الانتهاء من بناء الجامع، ذلك البناء الأوَّل في مجمَّع السلطانة "خَاصَكِي"، شُرعَ في بناء المدرسة الدينية، ويُعتَبر هذا الأثر من الأعمال العظيمة التي خَلَفَها لنا "سِنَان"، ويُعدُّ بحقٍ نموذجًا رائعًا في فن رسم المُنمُنمَات، ومن خلال الكتابة المُدوَّنة على باب مدخل المدرسة يتَّضِحُ لنا أن هذه المدرسة الدينيَّة قد تَمَّ إنشاؤها في عام مدخل المدرسة يتَّضِحُ لنا أن هذه المدرسة الدينيَّة قد تَمَّ إنشاؤها في عام (١٥٣٩م)، لكن هذه الكتابة لم تعدُّ موجودة الآن كما كانت في سابق عهدها بل أصبحَ مكانها خاويًا، وصارت هذه الكتابة معروضة الآن في متحفِ "جِينيلِي كُوشْكُ (Çinili Köşk)"، بحيث نراها هناك وهي مزدانة بقِطَع بديعة ورائعة من الخزف، الذي يعودُ إلى القرنِ السادسَ عَشَرَ، كما كُتِبَ تاريخ إنشاءِ هذه المدرسة الدينيَّة مرَّة ثانية بحِسَاب الجُمَّل (ننا) في البَيت الشَّغري إنشاءِ هذه المدرسة الدينيَّة مرَّة ثانية بحِسَاب الجُمَّل (ننا) في البَيت الشَّغري الموجودِ على هذه اللوحة الخزَفيّة، وفوق هذه القطعة الخزفيَّة التي يعلوها جُزءانِ ناقصان من جَرًاء كَسْر لَحِقَها - نَجِدُ كَلِماتٍ قد كُتِبَتُ؛ نحو: يعلوها جُزءانِ ناقصان من جَرًاء كَسْر لَحِقَها - نَجِدُ كَلِماتٍ قد كُتِبَتُ؛ نحو: يعلوها جُزءانِ ناقصان من جَرًاء كَسْر لَحِقَها - نَجِدُ كَلِماتٍ قد كُتِبَتُ؛ نحو: يعلوها جُزءانِ ناقصان من جَرًاء كَسْر لَحِقَها - نَجِدُ كَلِماتٍ قد كُتِبَتُ؛ نحو:

"يا قاضيَ الحاجات... يا مُجِيبَ الدَّعَوات... يا وَلِيً الحسنات... يا رحمن... يا رحيم..."

بحروفٍ كبيرةٍ بيضاء ذاتِ خلفيَّةٍ زرقاء، وتبدو أمامنا هذه الكتابة وقد أُحِيطَتْ بإطارٍ رقيقٍ لتزيينِ الحواشي، كما كُتِبَ فوق تلك القطعة الخزفية أيضًا آية الكرسيِّ والبسملةِ بلَونٍ أصفرَ يميل إلى الفيروزيِّ، أما في منتصفِ القسم الشَّفْلي منها فقد كتب التاريخ (٤٦ ٩ هـ/١٥٣٩م).

أما القطعةُ الخَزَفِيَّةُ الثانيةُ، الموجودةُ على باب قاعة الدروس -التي تعد هي الأخرى من أكثر النماذج الفنيَّةِ جمالًا وروعةً في مجال الفنِّ الخزفي في القرن السادس عَشَرَ فقد أُرسِلَتْ هي الأخرى مع القطعةِ المخزفيَّةِ (١٤١) جناب المُبْلل: نوع من العاب يُجْمَل فيهِ لكل حرف من المُبْووف الأبجدية عَدَدْ من الواجد إلى الألف على نَرْتِب خَاص. (المنرجم)

الأولى، الموجودة فوق الباب الرئيسيِّ للمدرسة، إلى متحفِّ "جِينِيلِي كُوشْكْ"؛ حيث تَمَّ رفعهما من أماكنهما بعد أنْ كانتا على وشكِ السقوط.

وعلى هذه اللوحةِ الثانية، كُتِبَتْ الآيةُ الثامِنةَ عَشَرَ من سورة الحشر (\*\*') في القرآن الكريم، بالخطِّ الروميّ الأصفرِ فوقَ خلفيَّةٍ خضراء<''<sup>١٤١</sup>.

كما لوحظ أنَّ أماكنَ المرايا الخاصَّةِ بنوافذِ المدرسةِ التي تُطلُّ على شارع "خَاصَكِي"، قد أصبحت خاويةً تمامًا، لكن من المُؤَكَّد أن تلك الأماكن كانت مغطَّاةً بقِطَعٍ من الخزفِ عند افتتاحِ تلك المدرسة، واليوم مع الأسف، فإن "مجمَّع خَاصَكِي" لم يَعُدُ به أيُّ أثرِ للقِطَع الخزفيَّةِ الرائعةِ التي عَمَّتُ شُهرتها الآفاق، والتي كانت تُذكِّرُ الناظرينَ إليها بموسم الربيع.

وللأسف الشديد، فإن الذي قضى على تلك الآثار الفنّيّة الرائعة ليس تعاقُبُ الزمان بل يد الإنسان.

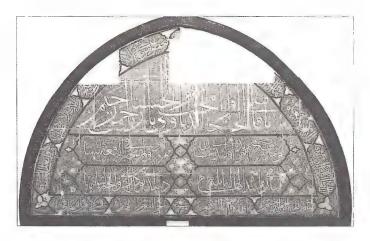
### المدرسة تحوّلت إلى ملجأ

تعتبر مدرسة "خَاصَكِي" من الناحية المعماريَّة أشرًا فريدًا من ضمن الآثار التي حَمَلت لنا طابع وبصمة الفنان المعماري "مِنَان"، عند الدخول من باب المدرسة نجد فناء واسعًا ذا حوض، وحوله غرف الطلاب، ويليها قاعة المدرس، كما نجد فناء آخر به رُواق أحاطت به الأبنية المغلقة من شلاث جهات، وتقع قاعة الدرس في وسط الرُّواق الذي يواجه الباب، وكانت قاعة الدرس، يِقبَيها التي يصل حجمها إلى ٦,٨ أمتار، زائدة عن محيط المدرسة وخارجة عنها، وقاعة الدرس مُقسَّمة إلى سِتِ غُرَفٍ

<sup>(</sup>١٤٥) ﴿ فِمَا أَيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهِ وَلْتَنْظُو نَفْسَ مَا قَلْمَتْ لِغَدِ وَاتَّقُوا اللهِ إِنَّ الله تَجِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (شرزة المعني: ١٠٨٠٥. - طَالُهُ يَكِيرًا لَهُ اللَّهِ عَلَيْهُ مَا مُعَمَّدًا لَهُ اللَّهِ مَا ١٤٠٨. - طَالُهُ يَكِيرًا لَهُ اللَّهِ عَلَى ١٠٨٨.



مدرسة "خَاصَكِي السلطانة خُرّم" الدينية في "خَاصَكِي/إسطنبول"



أحد الميازيب والحفر الخزفية على إحدى نوافذ مدرسة "خَاصَكِي السلطانة خُرَم" الدينية (متاحف آثار إسطنبول، متحف القصر الخزفي، معروضة رقم: ٤٤/٤١٥)



مُوزَّعةٍ على الجانبين، ثلاثةٌ منها عن اليمين وثلاثةٌ منها عن الشمال، أما فِناءُ المدرسة فقد قُسِّم إلى عَشْرِ غُرَفٍ موزَّعةٍ هي الأخرى على الجانبين، خمسةٌ عن اليمينِ وخمسةٌ عن الشمال، تتميَّزُ كلُّ الغُرَفِ بأن لها قِبابًا، وبداخل كلَّ واحدةٍ منها يوجدُ موقدٌ صغيرٌ.

وقد بُنِيت أَقْـوَاسُ الـرُّواق بالحَجَـر الأبيـضِ والأحمـر على نحو مُتَنـاوِب، فـكلَّ لَبِنَـةٍ بيضـاءَ تليها لبنةٌ حمـراء، وكلّ لبنةٍ حمـراءَ تليها لبنةٌ بيضاء، وهكذا.. أما الأعمدةُ فقد شُيِّدت مِن الرخام وحجر السُمَاقِي. (١٤٠٠)

...

وقد تَعَرَّض هذا الأثرُ الرائع على مرّ الزمن إلى أضرارٍ وتلفيًاتٍ منذ أن قام "سِنَان" ببنائه؛ من جراء الحوادث والـزلازلِ والحرائقِ، ففي عام (١٨٩٤م) وقع زلزالٌ ضخمٌ تعرَّضتِ المدرسةُ على إثرِهِ مع بقيّة بناياتِ "مجمَّع خَاصَكِي" إلى الضرر الشديدِ، لكن في أوائل عام (١٨٩٦م) تمُ ترميمُها.

وبناء على تقرير المعاينة والفحص الصادر في الثاني من أيلول/سبتمبر (١٩١٤م)، فقد أُخرِجت المدرسة من الخدمة؛ نظرًا لحالتها التي كانت تستدعي الإصلاح والترميم، حيث نبتتِ الأعشابُ على قِبَابِ المدرسة المباركة، وفي أواخرِ عام (١٩١٨م) أصبحت المدرسة تُستخدم كمطبخٍ من قِبَلِ الجنودِ، وفي الأعوام اللاحقةِ فقد تحولتِ المدرسة - لفترة من الزمن- إلى مأوى للمرضى النفسيّين، وبعد أن تمَّ إجراء عملياتِ من الإصلاحِ والترميمِ من قِبَل المديريَّةِ العامَّةِ للأوقاف، في الفترة الممتدَّة بين عامي (١٩٦٧-١٩٦٩م) صارت المدرسة تُستخدَمُ، ولفترةٍ طويلةٍ، كمركزٍ تعليميِّ بإسطنبول، تابع لرئاسةِ الشؤونِ الدينيَةِ.

<sup>(</sup>١٤٧) - سَمًا دُوغَانُ، الْمصدر السابق، ص ٣٧١.

#### لا يليق بالإنسان اللجوء إلى (الواسطة)

بناء على المصادر التاريخية فقد كانت مهنة التدريس في مدرسة "خَاصَكِي" خلال عصر القانوني، تُعادلُ مهنة التدريس في المدارس الكبرى الموجودة في تلك المرحلة، أو كان التدريسُ في مدرسة "خَاصَكِي" يُشَكِلُ جسرًا للوصول إليها(١٤٠٨).

وحَسَبَ ما ورد في الوثائق التاريخية، فإن "كِينَالِي زَاده (Kinalizâde) على شلبي"، الذي يُعَدّ مِن كبارِ علماءِ عصرِهِ، قد قام بالتدريسِ لمدَّةِ ثلاثِ سنواتٍ في مدرسة "خَاصَكِي"، (١٤٠) وبعد أن نال "علي شلبي" الترقيئة بعد عمله في مدرسة "خَاصَكِي"، نجدُه قد انتقلَ إلى العملِ في مدرسة "صحنِ ثمان" التابعةِ لجامعِ "الفاتح"، ثم ترقَّى للعمل بالتدريس

(١٤٨) كان يذكر في اللوائح التي تنظم حمل الأوقاف بشكل واضبح الحالة العلمية والشخصية للمدرسين، ففي اللائحة التي تنظم حمل "وقف السلطانة خَاصَكِي" توجد تعبيرات مثل: "تنشأ المدارس من أجل رفع شأن العلم والتعليم، ومن أجل تبجيل واحترام العلماء الكبار بين أفراد الشعب"، بالإضافة إلى ما سبق، فيذكر أن المدرسين كان يتم اختيارهم من العلماء ومن بين أولئك المشهود لهم بالفضيلة والأدب بين الناس، ومن بين المعلوم عنهم بِسُغةِ العلم واللين من بين أمثالهم، وأيضًا من بين ذوي الشمعة والمكانة، ومن بين أوائل الناس في عصرهم، ومن أولئك الاشخاص المتفوقين وسط أقرانهم، وفي لاكحة الوقف يُغير بوضوح عن الشموط الواجب توافرها في المعلم:

"يجب أن يكون المدرس قادرًا على تعليم الآخرين، وأن يكون لديه القدرة على التعامل مع المسائل البلمية الدقيقة والمساسة، وأن يكون قادرًا على حل المسائل الدينية والفقهية وفق قواعد وأصول البحث، وذا ذكاء متوقد وقدرة على النقد، ويتم اختياره من بين أقرائه، إن هذه الشروط التي كان يتم مراعاتها عند اختيار المدرسين تدل على مدى الدقة والاهتمام اللذين كان صاحب الوقف يُوليهما في سبيل هذا الموضوع، وفي تاريخ الأوقاف تتضح أيضًا الأهمية المعطاة إلى هذا الأمر عندما نجد أن أعلى أخر كان يتم منحه في الوقف، كان يخصص للمُندَرّس، وكان هذا الأجر يعطى في ذلك الوقت للأشخاص الذين يتربعون على أعلى يصل إلى خمسين درهم في اليوم، لقد كان هذا الأجر يعطى في ذلك الوقت للأشخاص الذين يتربعون على أعلى درجات الإدارة في الدولة المثمانية، وبمكن أن يفهم على نحو جيد مقدار هذا المبلغ إذا أذركنا أن أُجْر كبير المهندسين المعمارين "بنان" كان خمسة وخمسين درهمًا في اليوم.

(١٤٩) إن " محمد علي عوني" في كتابه الذي يحمل اسم "أعلام الأخلاق الأتراك" والذي نشر عام (١٩٣٩م)، يذكر أنه لم يكتب حتى اليوم عمل يصل إلى درجة كتاب "الأخلاق السامية" الذي ألَّفة "كينالي زاده". في مدرسة ِ "السليمانِيَّةِ". وهكذا، نُدرك أن مدرسةَ "خَاصَكِي" كانت تُمَثِّلُ محطّةً مُهمّةً على طريق التعليم الكلاسيكي، في ذلك الوقت.

. . .

ونعرضُ عليكم حكايةً لطيفةً ومسلِّيةً وقعت بين كلٍّ من "كينالي زاده علي شلبي" وشيخِ الإسلامِ الشهيرِ "أبي السعود أفندي":

فنظرًا لسوء العلاقة بين "جيوي زاده (Çivizâde)" وبين أستاذ "كينالي زاده" بالمفتي "أبي السعود أفندي"، وكونِ التعييناتِ تَتِمُّ بتصديقِ الأخيرِ، فإن "كينالي زاده" لم يتمكَّنُ من العمل مُدرِّسًا لفترةٍ طويلةٍ، ومن أجل ذلك فقد أصابه حزنٌ شديد، وفي النهاية تَوجَّة "علي شلبي" إلى شيخ الإسلام "أبي السعود أفندي" آخِذًا معه بعض الأعمال التي كَتَبَها، وعندما رآه "أبو السعود أفندي" بادرَه بالسؤالِ عن سبب الزيارةِ، فرَدُّ "علي شلبي" قائلًا:

"إن من يتقلّدون الوظائف ويعملون بالتدريس، يُحقِقون المدافَهم بكثرة تردُّدهم على أبوابٍ كبارِ رجالِ الدولةِ، أمَّا نحن فقد أَردُنا أن نُحقِقَ رغبتنا في العمل بالتدريس من خلالِ إثباتِ الكفاءةِ العلميةِ المطلوبةِ، فقمتُ بترجمةِ أجزاء من هذه المخطوطات -وأشار بيده إلى المخطوطات التي معه - إلى اللغةِ التركيةِ، فإن كان ثَمَّة أبوابٌ أخرى يَجِب أَنْ نَطرقَها فَلْتُخْبُرُونا بها إذًا!".

قام الشيخ "أبو السعود أفندي" بإلقاء نظرة على الأعمال التي كانت بحوزة على الأعمال التي كانت بحوزة على شلبي"، ثم أمر بتغيينه في الحال في وظيفة مدرّس بمدرسة "حسام الدين" في مدينة "أدرنه"، لكن "أبا السعود أفندي" لم يَفُتُهُ أن يُعَلِّم مَنْ كان جالسًا إلى جواره في ذلك الوقت درسًا لا يُنْسَى، فتوجّه إليهم على الفور قائلًا:

"إن الإنسان العاقل والمنصف يَنَالُ ما يستحقه عن طريق إبرازِ ما لديه من مَواهِبَ وقُدرات، أما أن يتودد إلى هذا وذاك، ويُقدِّم الالتماسات من أجل أن يقضي حاجته، فهذا ليس من المروءة في شيء! "(۱۵۰)

إن هذه الحادثة تُبَيِّن لنا بشكل جَلِيّ طبيعةً شخصيَّةِ "كينالي زاده علي شلبي"، وقدراتِهِ العقليَّةِ على النقاشِ والجدالِ، وفي الوقت نفسِهِ تشيرُ إلى شجاعتِهِ العلميّةِ وحنكتِه في النقاش.

. . .

وإذا رجعنا إلى لائحة وقفِ السلطانة "خَاصَكِي"، فإننا نجدُ أن غُرفَ المدرسة الدينيّة كانت مُعدَّةً لِأَنْ يُقِيمَ بها سِتةَ عَشَرَ طالبًا مجتهدًا حَسَنَ المُحُلُقِ لا يَتَخَلَف عن دُرُوسِ العِلْم إلا لِعُذْرٍ أو داعٍ شرعيّ؛ لِيَكُونُوا بذلك قُدُوةً لغيرهم من الطلاب، (۱۵۰) كان الطلابُ بعد انتهاء الدرس يقومون مع المدرسِ بقراءةِ سورةِ الإخلاصِ ثلاثَ مرّاتٍ والفاتحةِ مرّةً واحدةً، ثم يقومون بالصلاةِ والسلامِ على الرسول رُحَّ، وبعدها يترحُمون ويطلبون المعفرة لروح صاحبةِ الوقفِ "السلطانة خُرُم". (۱۵۰)

<sup>(</sup>١٥٠) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ١٠٦.

<sup>(</sup>١٥١) لقد كان الطلبة الذين يتلقون العلوم العقلية والتقلية في المدارس العثمانية يتبعون نظاما تعليمها يكفل لهم الإقامة الكاملة. وفي هذا النظام التعليمي حلت وبمنتهى السهولة مسألة "اشتراك الطلبة في الإدارة" وهي المسألة التي لا نزال حتى الآن مثار نقاش وجدل في الجامعات. لقد كان الطلبة يختارون من بينهم من يمثلهم، حيث كان هؤلاء الطلبة الذين يتم اختيارهم يحملون اسم "المُثبيد"، وكان هؤلاء المعيدون -على اعتبار أنهم رؤساء الطلبة- يشرفون على الطلاب، وفي نفس الوقت كانوا يمثلون حلقة الوصل أو الواسطة من أجل حل المشاكل بين الطلاب وإدارة المدرسة، وكان المعيد من هؤلاء المعيدين يتلقى أجرا يوميا يبلغ ٥ دراهم. أما بقية الطلاب فقد كان الواحد منهم يتلقى في اليوم درهمين.

<sup>(</sup>١٥٢) ٪ مُويَاحَاتُ كُونُوكُ أُوغُلُو، "مدارس إسطنبول التي بقبت حتى القرن العشرين"، أنقرة - ٢٠٠٠م، ص ٢٩٠-٢٩٠.

# دار "خَاصَكِي" لإطعام المساكين إحدى روائع "سنان" المميّزة

كان القيام بالأعمالِ الخيريةِ مجالًا مميزًا وفعًالًا أولَتُهُ النساءُ أهميةً كبيرة في الدولة العليّةِ العثمانيّةِ، فنجدُ أن السيّداتِ من ذواتِ الثروةِ والقوّةِ والنفوذِ في الدولة العثمانيَّةِ كنَّ يحوّلنَ نفوذهنَّ هذا إلى واقعٍ ملموس، بإنشاءِ المؤسّساتِ الخيريَّةِ الكبيرةِ (الأوقاف)، والمبادرةِ إلى تقديم المساعداتِ والإعاناتِ في إطارِ رغباتِهِنَّ وتطلُّعاتِهِنَّ.

لقد أَنْفَقَتْ تلك السيِداتُ بسخاء حينَ تَبَرُعْنَ بجزء كبيرٍ من ثَرَواتِهِنَّ ووَهَبْنَه لصالح المؤسسات الاجتماعيَّة المختلفة، التي تعمل في ميادين شتَّى، مثل: الصحّة والتعليم وغيرهما، وقد اكتسبنَ شهرة كبيرة وسُمعة طيّبة؛ بسبب إسهاماتهِنَّ في أعمال الخيرِ، والرعايةِ، ومساعدةِ المحتاجين.

وبحلول منتصف القرن السادس عشر -أى في الفترة التي عاشت فيها "السلطانة خُرَّم" - كانت قد تطوَّرت مجالاتُ بناءِ وتشييدِ الأوقافِ الخيريّةِ.

ف"السلطانة خُرَّم" أسهمت في الكثير من الأعمالِ الخيريَةِ خلالَ فترةِ حياتها، وقد تركت لنا الكثيرَ من الأوقافِ، إلا أنها لم تَنْسَ أن يكون لها -أيضًا- عمل خاصَّ يميِّزُها عن الآخرين، فقد قامت "السلطانة خُرَّم" بإضافةِ دارٍ لإطعامِ المساكين، ألحقتها ب"مجمّع خَاصَكِي"؛ لإطعامِ الأشخاصِ المحرومين والمحتاجين الذين لا يجدون الرعاية والعناية اللازمة.

\* \* \*

إن دارَ إطعامِ المساكين، تقعُ اليوم بين شوارع "جَودَتْ باشا" الممتدَّةِ بمحاذاةِ شارع "خَاصَكِي"، ولهذه الدار ثلاثةُ أبوابٍ؛ "الباب الرئيس" ويقعُ بجوارِ السبيل، كما يُطِلُّ على شارع "خَاصَكِي"، وقد دُوِّنَ على هذا البابِ

١٤٠ ----- [خُرَم ومِهْرِمَاهُ]

الأثري بيتٌ من الشِّغر مُحِيَ شَطْرُهُ الأَوَّلُ وبَقِيَ الشطرُ الثاني مكتوبًا على نحو يُمكِنُ قراءته بسهولة، وقد سُجِّلَ تاريخُ إنشاءِ الدار بِحِسَابِ الجُمَّلِ، في البيت الأخير المُدَوَّنِ على ذلك الباب في عام (٩٤٧هه/١٥٤م)(٥٠٠، وهكذا تمَّت إضافةُ بناءِ ثالثٍ إلى الجامع والمدرسة الدينيَّةِ التي حواها "مجمَّع خَاصَكِي"، وهو دار إطعام المساكين(١٠٠٠).

لقد كانت دار "خَاصَكِي" لإطعام المساكين إحدى روائع "سِنَان" المميزة، بحيث يمكنُ القولُ: إن هذا المعماري الفَذَ قد استطاع من خلال هذا الأثرِ أن يخطُو أُولى خطواتِه على سلّم العبقريَّة، وذلك لأن المهارة التي أظهرها "سِنَان" في هذا العمل تفوقُ في سِماتِها وخصائِصِها المعماريَّة باقي بنايات المجمّع؛ حيث إن الطريقة والكيفيَّة التي قام بها "سِنَان" ببناء القِبَابِ والأقواسِ في هذا العملِ كانت على درجةٍ عاليةٍ من الإبداع والدَقة التي تصيبُ من يراها بالذهولِ.

إن هذا البناء الفريد الذي صمَّمَهُ وأنجزَهُ "سِنَان" بيديه، قد استطاع من خلاله أن يعرضَ أمامَ العالم فَنَّه وشخصيَّته إلى جانب عَظَمَةِ العصرِ الذي عاش فيه.

#### اثنان وثلاثون كيلو جرامًا من اللحم يوميًّا

وفي الجِهَةِ الشماليَّة نجدُ دارَ إطعامِ المساكين وقد أُحيطَتْ برواقٍ ذي ثلاث أقواسٍ من جهةِ الشرقِ وخمسٍ من جهةِ الغرب، ونجدُ أن هذه

<sup>(</sup>١٥٢) إن السيد "طَأشُكِيرَانُ " في عمله الذي نشر عام (١٩٧٦م)يقف بإصرار عند عام (١٥٤٠مم/١٩٤٥هـ). لكننا نجد في المجلد السادس عشر من كتاب "السلطانة خُرَم" الذي طبع من قبل مؤسسة (الموسوعة الإسلامية، هيئة الدينة التركية، DIA عام (١٩٩٧م) العبارة التالية: "مكتوب أن دار إطعام المساكين قد أنشنت من قبل "القانوني" عام (١٥٠٠ممه". كذلك نجد الجملة التالية التي تطالعنا في المقالة التي تحمل توقيع "دوغان قوبان" في المجلد الرابع من الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول- ٢٠٠٣م: "بناه على ما ذكر في الكتابة الموجودة على مدخل دار إطعام المحتاجين فقد أسس هذا البناه من قبل "القانوني" عام (١٥٥٠م)".

<sup>(</sup>١٥١) طَأَشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ١١٤.



دار إطعام المساكين "خَاصَكِي السلطانة خُرَم" في "خَاصَكِي/إسطنبول"

الأروقة مغطَّاةً بقبابٍ مثبَّتةٍ على أعمدةٍ ذاتِ رؤوسٍ مربَّعةٍ، أما المطبخُ الذي يقعُ شمالَ صحن الدار فيتكوَّن من مساحةٍ مغطَّاةٍ بقبَّتين كبيرتينِ، وفي الخلف منها يوجدُ قسمٌ لإعداد الطعام ذو أربع قِبابٍ صغيرةٍ ومزودٌ بموقد، وإلى جوارِ ما سبق نجدُ رَدْهَتينِ مستطيلتي الشكلِ ولكلٍ منهما قُبَّتانِ، وتنفتحان على الشارع الموجود في الناحية الغربية من دهاليزَ ذاتِ أقبيةٍ نصفِ دائريَّةٍ. (\*\*)

...

كان من المؤكّد أن هذه المؤسّسة الخيريَّة وهذه الدار المخصَّصة لإطعام المساكين في حاجة إلى إمكانات ضخمة؛ لضمانِ استمرارِ القيامِ بأعمالِها وتقديمِ المخدماتِ التي أُنشِت من أجلها، وبناءً على اللائحةِ الخاصَّةِ بأوقافِ السلطانةِ "خَاصَكِي" والموجودةِ في أرشيفِ متحفِ قصرِ "طوب قابي"، فإن المبالغ الماليّة المخصَّصة لـ"دار خَاصَكِي لإطعام المساكين" كانت تقدر حوالي مائةٍ وعشرينَ ألف آقْجَه، (١٥٠٠) وفي الصفحة الأولى من تلك اللائحةِ نجد أنه من أجل استمرار الخدمة وضمان عدم انقطاعها، فقد خصِصَ لهذه الدار بشكل مُسْبَقٍ ولمدَّةِ عامٍ مبالغُ ماليّةٌ احتياطيّة، بحيث وصل الاحتياطيُّ من تلك المبالغ المالية إلى قرابة ثلاثمائةٍ وتسعةٍ وثمانين وصل الاحتياطيُّة وخمسين آقْجَه، وقد كانت تُستخدمُ في تلك الوثيقة عبارة:

"المبلغ المتبقي احتياطي لنفقات الدار العامرة لإطعام المساكين"(٧٥٠).

• • •

ونلاحظ في لائحة وقفِ السلطانة "خَاصَكِي" أن هناك اهتمامًا بالغًا بجوانب عديدةٍ؛ كجودة الطعام الذي يتم طَهْوُه بدار إطعام المساكين،

<sup>(</sup>١٥٥) كُوبَانْ، المصدر السابق، ص ٢٧٢.

<sup>(</sup>١٥٦) آفْجه: وهي عملة عثمانية من الفضة من عيار ٨٥ ويبلغ وزنها ١,٦٤١ جرام

<sup>(</sup>١٥٧) - طَأَشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ١١٥-١١٦.

وكيفيَّةِ مراقبة المواد اللازمةِ لتجهيزِ المأكولات، بالإضافة إلى قواعدَ محدَّدةٍ لتوزيع الطعام، وكان من الشروطِ الواجب توافرها في المواد الأساسيّةِ التي تُعَدُّ منها الأطعمة أن تكون من أجود الأنواع، وأن تُستَخدَم البهارات، مثل: الكمُّون والفلفلِ والبصلِ والنعناعِ والزعفرانِ؛ لتحسينِ طعم ونكهةِ المأكولاتِ.

ووِفْقًا لما وردَ في تلك اللائحة، فإنه كان يتمُ إعدادُ وجبتين كلّ يوم، وكان يتمُ إعدادُ وجبتين كلّ يوم، وكان يتمُ صرف خمسين أوقيَّةٍ من اللحم (حوالي أربعة وستين كيلو جرامًا) كلَّ يومين، -باستثناءِ أيامِ المناسباتِ الخاصّةِ والأعيادِ- هذا، وإذا أمعنًا النظرَ في تلك الإمكانيات التي كانت مخصَّصّةً للحم، فإننا سنندرك بشكلٍ جَلِيٍّ مدى الكرم وسَعَةَ اليدِ تجاة الفقراءِ والمُعْدَمِينَ.

وكانت الأطعمةُ الرئيسيَّةُ في دار إطعامِ المساكين هي المأكولات التي تُعدُّ من القمحِ والأَرُزِّ، أما في الأيّام الخاصةِ فقد كان على رأسِ المأكولات التي يتمُّ إعدادها (الأرز باللحم البقري)، ويوسعنا أن نذكرَ أن هذه الوجبة كان يدخل في إعدادها الأرزُّ والزُّبُد والحِمِّصُ والبصلُ، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك أصناف أخرى تُقدَّم في الوقف، مثل: "زِرْبَا (zerda) (2irba) قَمْ (£kşi Aş) (2irba) و"عاشوراء".

وكانت الوجبات المطبوخة تحتوي على مكوِّناتٍ غنيَّة بالبروتين والدهونِ والكربوهيدرات والفيتامينات، كما كان يتمُّ تحديدُ مقدارِ الموادِ المستخدمةِ من أجل ضمانِ أن يكونَ مذاقُ الطعام المُعَدِّ على خير وجهٍ،

<sup>(</sup>١٥٨) صنف من الحلوي يصنع من العنب الأسود واللوز والتين والمشمش والبرقوق والعسل والزعفران.

<sup>(</sup>١٥٩) - صنف من الحلوى يصنع من العنب الأسود والعنب الأحمر والتين والمشمش والبرقوق والنمناع وفاكهة مجففة على هيئة ررق.

١٦٠) صنف من الحلوى يصنع من الأرز والزعفران والعسل والزبدة.

١٤٤ ----- [خُرَم وبهْرمَاهُ]

كمـا أُخِذَ فـي الاعتبار تَكْلِفَةُ الحطب الذي سيسـتعملُ فـي طهيِ الطعام، وإضافتُهُ إلى إجماليّ الحساب(١٦٠٠).

\* \* \*

كما ذُكِرَ كذلك في لاتحة الوقفِ أوصافُ الأشخاصِ الذين سيستفيدون من هذه المؤسَّسةِ الخيريَّةِ.

وتم السماحُ للموظّفين الذين يعملون في هذه الدار، وكذلك للموظفين الذين يعملون في المشفى، والمدرسةِ الدينيَّةِ، والجامعِ إلى جانب الطلبةِ الذين يدرسون في المدرسةِ أن يتناولوا الوجباتِ التي كانت تُجهَّز في الدار، بالإضافة إلى ذلك، فقد كان يتمُّ تقديمُ الطعام باستمرارٍ لأربعةٍ وعشرينَ فقيرًا ومحتاجًا طوال حياتهم، وفي حال موتِ أحدِ هؤلاء الأشخاصِ، فقد كان يتمُّ تحديدُ الأشخاصِ المحتاجين الجُدُد من خلال البحث الدقيقِ، فقد كانت هناك قواعد صارمةٌ لا تسمح لغير المُستحقِّين بأن يَتِمُّ وضعُ أسمائهم في لائحةِ مَنْ له حتَّ الاستفادة من خدمات الوقف.

أما الأطعمةُ التي كانت تأتي من المطبخ وتزيدُ عن حاجةِ الوقفِ، فقد كان يتمُّ توزيعُها على الفقراء والمحتاجين، بشرطِ أن يتمَّ أكلُها في القاعةِ المُخصَّصةِ لتناولِ الطعام داخل هذا الوقف.

#### التعليمُ الدينيُّ في مدارس الصِّبْيان

كانت المدارسُ الدينيَّةُ، ومدارسُ الصبيان (١٢٠٠ - فيما قبل مرحلة التعليم الأساسية - يمثِلانِ أهم عنصرٍ في النظام التعليميِّ والتربويِّ في

<sup>(</sup>١٦١) - طَأَشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ٤٩.

<sup>(</sup>١٦٢) الصبيان كلمة عربية الأصل وهي جمع لكلمة "ضبي"، وتعني الولد الذكر الصغير، أما مدرسة الصبيان فهي مدرسة أنشث للطلاب الذكور الصغار، إلا أنها برغم تستبها باسم الأولاد الذكور أي الصبيان فقد كانت تدرس فيها البنات الصغيرات أيضًا، وكانت مدارس الأولاد والبنات منفصلة عن بعضها في الأغلب الأعم في الدولة العثمانية، أما تلك المدارس المختلطة فقد كان الأولاد والبنات يجلس كل منهم في صفوف خاصة به في الفصل الواحد.

الدولة العثمانيَّة، ولم تكن الدولة هي من تُنشِئُ هذه المؤسَّسات التعليميَّةِ، بل كان يُشيِّدها العلماءُ والأغنياء وميسورو الحال من أبناء الشعبِ وكبارِ رجالِ الدولة، مثل: السلطان، والصدر الأعظم، والوزير، والسلطانةِ (١١٢).

وكان الأشخاص الذين يقومون ببناء مدرسة للصِّبْيان يُخصِّصون أيضًا مواردَ ماليَّة كافيةً؛ للوفاء باحتياجات المدرسة، وتوفير الدعم اللازم لكي تتمكَّنَ تلك المؤسَّسة التعليميّة من القيام بنشاطها بشكل مستمرٍّ، ولهذا فكان يتمُّ تخصيصُ وقفٍ ليكون مصدرًا ماليًّا متجدِّدًا يكفي لتغطية كافَّة المصاريف المتعلِّقة بالمؤسَّسة، مثل: المبالغ الماليَّة اللازمة للاعتناء بالمدرسة بعد إنشائها، وتوفير الإصلاحات التي قد تتطلَّبُها، هذا إلى جانب مرتَّباتِ الموظَّفين العاملينَ فيها، والمصاريفِ اللازمة لإطعام وإيواء الطلبة الذين يتلقّون العلم في المدرسة، (١٢٠٠) وهكذا، كان يتمُّ الإنفاق على مؤسَّسات التربية والتعليم من غير اللجوء إلى أيَّة أموال من خزانة الدولة (٢٠٠٠).

وفي وقف "السلطانة خُرُم"، كان يُشتَرط أن يكونَ التعليمُ الدينيُّ في المدرسة موجَّهًا فقط للأطفال المسلمين، بالإضافة إلى تعليمِ قواعدِ اللغةِ كدروس تكميليَّةٍ، وكانتِ إدارة المدرسةِ تشترطُ في المعلِّم ومن معه

<sup>(</sup>١٦٣) بناء على الدراسة التي قام بها "المعلم جودت" عام (١٩٩٩م)، فقد كان في إسطنبول مائة وثلاثة وثمانون وقفًا وتسمةً وثلاثون مدرسةً تم إنشاؤها من قبل سلطانات وسيدات القصر. وقد أُنشِئَتْ أول مدرسة للصبيان من قبل السلطان "محمد الفاتح"، وذلك ضمن مجمع الفاتع حيث أخذت اسم "دار التعليم". (إسماعيل قَرَه، مدارس الصبيان، إسطنبول- ٢٠٠٥م، ص ٢٦.

<sup>(</sup>١٦٤) نجد أن بعض المدارس في الأوقاف كانت تقدم الطعام للطلاب والعاملين بها، إلا إننا نجد بعض المدارس الأخرى تصرف لكل طالب مبلغًا ماليًا كل يوم وذلك في مقابل أن يقوم كلّ واحدٍ من الطلاب بقراءة جزء من القرآن، وفخر الدين بُوزُدَاغُ (Bozdoz)، مدارس الصبيان، الجزء الثامن من اصدارات ندوة السلطان " أيوب "، إسطنبول. ٢٠٠٤. ص ١٦٧).

<sup>(</sup>١٦٥) - فخر الدين يُوزُدَاغُ، مدارس الصبيان، الجزء الثامن من اصدارات ندوة السلطان " أيوب "، إسطنبول، ٢٠٠٤م، ص ١٣٤.

من مساعديه، صفات يجبُ توافُرُهَا فيهما، ومن بين هذه الصفاتِ الواجب توافرها: الأخلاقُ القويمةُ والصفاتُ الحميدةُ، وأن يكون صديقًا مُقرّبًا من الطلاب، كما كان من ضمنِ الصفاتِ المنتظر توافرُها في المعلم، أن يكون في تعامُلِه مع الطلاب كالأب الشفيق، كما اشتُرط في المعلم أن يكون مجيدًا إجادةً تامةً لأحكام (٢١٠) القرآن الكريم. (١١٠)

## حديقة ألعاب للأطفال

كانت مدرسة "خَاصَكِي" للصبيان تتكوَّنُ من قسمين، وتقع بين المدرسة الدينيَّة والبابِ الرثيسِ لدارِ إطعامِ المساكين، وكانت هذه المدرسة في شكلِها المعماري تُعبِّرُ عن البساطة والجمالِ، الذي يتلاءمُ مع شخصيَّة "سِنَان".

وتتَّخِذُ المدرسة شكل وحدة معماريَّة مربَّعة الشكلِ تتكوَّن من قسمين، القسم الأول منهما له جانبان يُضْعَدُ إليه بسلَّم ذي أربع درجات، وطرفا هذا القسم الأول مفتوحان تُجَمِّلُهُما القناطرُ والأروقةُ ذاتُ الأعمدة الرخاميَّة الأثريَّة، أما القسم الثاني من المدرسة فعبارة عن قاعة مغلقة للتعليم، كلا القسمينِ في المدرسة له سقفٌ مُسْتَو، بحيث إنَّ كلَّ المساحاتِ مغطاة بسقفٍ مثبتٍ، أما الساحة ذاتُ الحوضِ التي في مواجهة البناء، فعلى الأرجح أنها كانت تُستخدَم كحديقة ألعابٍ للأطفال.

ولم يتسنَّى لأحَدِ حتى الآن معرفةُ تاريخِ إنشاء هذه المدرسة على سبيل الجزم والقطع؛ حيث لم يُدوَّن عليها تاريخُ الإنشاء، لكن الأعمال

<sup>(</sup>١٦٦) كان تعليم الدين الاسلامي هو الهدف الرئيس والوظيفة الأساسية المنوطة بمهنة التدريس في مدارس الصيان، وإذا كانت الفاية الرئيسة من تأسيس هذه المدارس "في الغالب" هو رعاية اليتامى والفقراء فقد كانت هذه المدارس كذلك تظهر صدق الروح والمشاعر التي توليها الطبقة الدنيا من المجتمع للتعليم الدينى. أما أولئك الذين كانت ظروفهم الاقتصادية جيدة فقد كانوا يرسلون أبنائهم ليتلقوا شكل من أشكال "التعليم الخاص".

(١٦٧) طَأَشْكِوانْ، المصدر السابق، ص ١٦٤.

المزخرفة برسم زهرة "اللينوفر (linüfer)" التي نراها موجودة على بناء المذخرفة برسم زهرة "اللينوفر (linüfer)" المدرسة تشير إلى أنَّ كلاهما قد تمَّ الانتهاءُ منه في وقت واحد، أي في عام (١٥٣٩م). (١٦٨)

إن مدرسة "خَاصَكِي" للصِّبْيان تُمثِّل لنا نمطًا معماريًّا مختلفًا، من خلال شكلِها الفريد والمميَّز عن باقي المباني ذات القِباب.

### سبيلُ الماءِ

في الطرف الشمالي من شارع "خَاصَكِي" نجد سبيلًا للماء من الحجر المقطوع، الذي يعود تاريخ إنشائه إلى القرنِ السادس عشر من الميلاد، حيث نراه يقع تجاه الأبواب الثلاثة التي تمثل مدخل المجمّع، متخِذًا مكانّه بين أبواب مدرسة الصبيان ودار إطعام المساكين.

وفوق هذا السبيل توجد قطعة من الرحام كتب عليها ما يشيرُ إلى أنه قد تم ترميمُه في عام (١٧٩٩م/١٨٠ه)، ويأخذُ هذا السبيلُ شكلَ قوسٍ حادٍ حجريٍ منحوتٍ داخلَ إطارٍ مربّعٍ على النمطِ الكلاسيكيّ، وعلى الحجرِ ذي النقوشِ والزخارفِ الخاصِ بهذا السبيلِ نسرى كتابة بخطٍ مقوَّسٍ مستديرٍ، وقد حُملت هذه الكتابة بواسطةِ عمودين رخاميّين، ومع الأسف، فقد توقّف نزولُ المياهِ من السبيلِ بسبب كثرةِ وتكرارِ رصفِ الطريقِ إلى أن أصبحَ الطريقُ أعلى من مصدرِ ننولِ المياهِ، مما اضطر إلى إيقافِ هذا السبيلِ عن الخدمةِ حينما انخفض جزء منه عن مستوى الطريق وذلك في عام (١٩٩٧م). (١٦٠٠)

<sup>(</sup>١٦٩) ضمًا دُرغَانْ، المصدر السابق، ص ٣٧١.



سبيل "خَاصَكِي السلطانة خُرّم"

وهذا هو البيتُ الثاني من المقطوعةِ الموجودةِ أعلى الكتابة:

"ماءُ السبيلِ يفيضُ كماءِ زمزم ومن يدِ الخَضِرِ شربتْ كلُّ الكائنات شرابًا طهورًا"(۲۲۰).

\* \* \*

#### مشفى "خَاصَكِي" الأثر الوحيد من ميراث القرن السادس عشر

إن مشفى "خَاصَكِي" الذي تم بناؤه في عام (١٥٥٠م/٩٩٥ه) يُعتبرُ البناءَ الأخيرَ الذي تم إنشاؤُه ضمنَ أبنيةِ "مجمّع خَاصَكِي"، وهو يمثِّل مستشفى "خَاصَكِي" الموجود اليوم.

وفي الأثر الذي تركّهُ لنا "أَيوَان صَرَاي (Ayvansarayi)" والمسمّى "حديقة الجوامع" نجده يشير بحساب الجُمَّل إلى تاريخ إنشاء الوقف الرئيس الذي يعود إلى "السلطانة خُرُم"، حيث يذكر لنا أن تاريخ إنشاء هذا الوقف هو عام (١٥٥١م)، وهو ما يشير بشكلٍ واضحٍ إلى تاريخ إنشاء المشفى.

وفي الثالث عشر من حزيران/يونيو من العام نفسِهِ، تم وضع حجرِ الأساسِ لبناءِ جامع "السليمانية" الذي يعتبر من أعظم وأروع الجوامع، وفي كتاب "تذكرة البنيان" يذكر لنا المعماري "سِنَان" هذه الجملة المتعلّقة بذلك الأثر الفريدِ:

"تم إرساءُ أساس هذا الجامع المنيفِ في وقتٍ شريفٍ وساعةِ سعيدةِ!"

...

<sup>(</sup>١٧٠) إبرهيم حلمي طَانِيشِيكُ (Timesik)، " سُبُل مياه إسطنبول "، إسطنبول - ١٩٤٣م، المجلد الأول، ص ١٩٦٠.

يقعُ مشفى "خَاصَكِي" في الجهةِ الجنوبيّةِ المقابلةِ للمدرسةِ الدينيّةِ ومدرسة الصبيان، وبمحاذاةِ دارِ إطعام المساكين الواقعةِ في جهةِ الشرقِ.

إن هذا المشفى الذي ظلَّ يُقدِّمُ خدماته في المبنى نفسه لمدَّةِ ثلاثمائةٍ وأربعةٍ وثلاثينَ عامًا، يُعتبرُ المشفى الوحيدَ الذي يعودُ إلى القرن السادسَ عَشَرَ، ولا يزالُ يعملُ حتى الآن في إسطنبول، لكنَّ الجزءَ الأكبرَ من هذا المشفى -الـذي ربَّما يكونُ قد أُنشِى قبلَ أو بعدَ هذه البناية - قد انهدمَ ولم يتبقَّ لنا منه أيّ أثرٍ، أما الأقسامُ المتبقِّيةُ حتى الآن من مشفى "خَاصَكِي" فقد استُخدِمت ولا تزالُ تُستخدمُ لأغراضِ مختلفةٍ أخرى. (٧١)

لقد صمَّم المعماريُّ "سِنَان" هذا المشفى الذي قُدِّرَ له أن يصمُدَ حتى عصرِنا الحاليِّ، على طِرَازٍ معماريٍّ مختلفٍ عن تلك الطُّرُزِ التي كانت تُصمَّم على أساسِها المشافي الفارسيّة والسلجوقيّة والعثمانيّة القديمة، ونجح في أن يُشيِّد مشفى يضم ثمانين سريرًا على مساحةٍ صغيرةٍ.

#### فِنَاء المشفى ذو الحوض

يتميَّزُ المشفى بغُرَفِهِ ذات القِبَابِ التي تقع في محيطِ خمسةِ جوانب من فِناء المشفى أمَّا الأماكن الواقعة في الشرق والغرب والجنوب من الفِنَاء الثُّمَاني الشكل، فنجدها مشيدة من الحجر المقطع والمنحوت، وتأخذ شكل صَفَّينِ مستديرين بالتناسق التام فيما بين بعضهما البعض وتعلوهما قُبَّتين مُزدوجتين .

<sup>(</sup>١٧١) لم يتبق من مشفى "الفاتح" -كما يخبرنا "منافينوس" الذي عاش في القرن السادس عشر- سوى حاتط صغير متهدم من إجمالي خمسة وعشرين قية، وقد أنشئ بعد ذلك بسنوات العديد من المنازل فخل هذا المشفى الذي كان الأول في إسطنول، أما المشفى الذي أنشأه السلطان "بيازيد الثاني" فلم يعد معلومًا مكان إنشائه، ولكن المصادر التاريخية تتفق على أن هذا المشفى كان يوجد داخل نطاق مجمع "بيازيد".

أما في الجنوب الشرقيّ والجنوب الغربيّ من المشفى، فنجدُ أن هناك وحداتٍ كبيرةٍ مقوَّسةٍ ومقنطرةٍ ومنفتحةٍ على الفناء، وفوقَ كلِّ جهةٍ من هاتين الجهتين -الجنوبِ الشرقيّ والجنوبِ الغربيّ- قُبَّةٌ كبيرةٌ وضخمةٌ، كما نجدُ هناك غرفتينِ مستقلّتين تقعانِ بين المشفى ودار إطعام المساكين الملحقةِ بالقسمِ الخلفيّ، ويُعتقدُ أنَّ هاتين الغرفتين كانتا تُستخدَمان من أجل تجهيزٍ وإعدادِ الأدويةِ (٢٧٠).

إذا جئنا إلى الحوضِ الذي يقعُ في منتصفِ الفناءِ الأساسيِ للمشفى، فإننا نجدُ أنه قد صُمِّمَ بحيثُ يأخذُ شكلُهُ الخارجيُّ منظرَ شجرةٍ تحيطُ بها مجموعةٌ من الزهور، أما اليوم فإننا نجدُ أن أرضيَّةَ الحوضِ قد صارت مغطَّاةً بالرخام المُتنوَع والمختلفِ الأشكال.

وليس من المعلوم على وجه اليقين، ما إذا كان الشكلُ الأصليُ للمبنى قد تَعرَّض -خلال الثلاثماثة وعشرين عامًا التي سبقت عام (١٨٧٠م)- إلى تغييراتٍ طرأت عليه أم لا؛ حيث إنه ليس مُتاحًا لدينا اليوم الرسومُ الهندسيَّةُ أو المعلوماتُ المتعلِّقة بالمشروع، سواءٌ أكانت تلك المعلوماتُ متعلِّقةً بتشييدِ البناءِ أم بعمليًاتِ الإصلاحِ والترميم؛ لذلك فلسنا على علم يقينيِّ بحجم التغييرات أو الأضرارِ التي لحقت ذلكَ الأثرَ العظيم الذي خلَّده لنا المعماريُ "سِنان".

# الكلمةُ الفطَّةُ توجِعُ المريض

لقد أُعلِنَ بتاريخ (١٥٥١م/٩٥٨هـ) عن الصفاتِ التي يجبُ أن تتوافرَ فـي الأطبـاءِ الذين سـيتولَّون وظائفَهم في أقســامِ المشــفى التابـــعِ لوقفِ "السلطانة خُرَّم"، وها هو ملخُصُ تلك الصفات:

<sup>(</sup>١٧٢) - سَمًا دُوغَانُ، المصدر السابق، ص ٣٧١.

الأطباءُ الذين سيعملونَ في المشفى يجبُ أن يكونوا على علم ودراية بقوانينِ الطبِّ والحكمة، وأن يكونَ لديهم إحاطة بتفاصيل كلُّ هذه المسائل، كما يجب أن يكون الطبيب متخصِّصًا في مجاله، وليس طبيبًا عامًّا، وأن يكون لديه سابقُ خبرةٍ في تخصُّصِه، وأن يكونَ قد أمضى فترةً طويلة يمارسُ فيها الجانبَ التطبيقيَّ في مجال تخصُّصه، ويتم اختيار هؤلاء الأطباء من بين الأشخاص الذين قضوا فترةً زمنية أطولَ في الممارسة والتطبيق.

لقد كان يُشترطُ في كلِّ واحدٍ من هؤلاء الأطبّاء الذين سيعملون في المشفى أن يكونَ من الذين يقومون بعملِهم على خيرِ وجه، ومن الذين يشهد لهم بحسنِ السيرِ والسلوكِ، وسلامةِ القلب، وكرمِ الأخلاق، وحُسنِ السجيّةِ، والرحمةِ، ولينِ القولِ، وحلاوة اللسان، ولطافة المعشرِ، وبشاشة الوجهِ، ورقّة الطبعِ، ويرجو الخيرَ لجميعِ الناس؛ القريبِ منهم والبعيدِ، كان لزامًا على هؤلاء الأطباء أن يتعاملوا مع المرضى بمنتهى الرحمة والشفقة، كما يتعامل الصديقُ مع صديقِهِ المقرّب فيرعاه، ولا يعامله بصورة فظّةِ أو غليظةٍ على الإطلاق (٢٧٠).

لقد كان لزامًا على الطبيب في ذلك المشفى ألّا ينطِقَ بأيَّة كلمة سيَّنة أو منفَّرة ولو نادرًا، وذلك لأن الكلمة الفظَّة تكونُ أحيانًا بالنسبة لبعضِ المرضى أكثر إيلامًا من أشد الأوجاع، وقد وصل الأمرُ إلى درجة حتى إنه ربّما كنا نجدُ الطبيب من هؤلاء يتحرّى في كلامه مع المريض ألطف العبارات، ويستخدم عند سؤال المريض أكثر الطرق لينًا وشفقة، وهذا لأن الكلمات الرقيقة التي تُوجَّه للمريض إذا ما كانت ستقدَّر بالمال فستكون

<sup>(</sup>١٧٢) طَأَشَكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ١٣٣.

بالنسبة لهذا المريض أغلى قيمةً من جنَّةِ الكوثر وأحلى طعمًا من الزلالِ والسلسبيلِ، فالمريضُ في النهاية محتاجٌ بشدةٍ إلى الكلمة الطيِّبة. (١٧١)

إن الطبيبَ الناجح يَفْرِدُ أُجنِحةَ الرأفةِ والشَّـفقةِ على المرضى ويَبْسُطُ لهم مظلَّةَ العنايةِ والرعايةِ.

كان كلُّ واحدٍ من الأطباءِ يأتي المشفى صباحًا ويباشِرُ عملَه، فيطُّلِعُ على أحوالِ الأشخاص المرضَى ذوي البلايا والعلل، ويعاينُ بنفسِه أمراضَهم وآلامَهم، فيقيسُ نبضَهم ويلاحظُ مستوى الإدرارِ لديهم، ويُلقِّقُ في الأعراضِ المعهودةِ للمرض، كان الطبيبُ يسألُ عن كلِّ الأمورِ المتعلِّقة بالمريضِ سواءُ الصغيرة أو الكبيرة ولا يهملُ حتى أدق الأشياء الخاصَّة به، ثم بعد ذلك يداوي كلَّ واحدٍ من المرضى معطيًا له أفضل العلاجات وإذا ما كانت حالةُ المريضِ تتطلَّبُ أن يتكرُّرَ قدومُه إلى المشفى فإن الطبيبَ كان يسارعُ في الحالِ ودونَ أيِّ تقاعسِ للقيام بما عليه من واجب، ولقد كان الأطباءُ ملتزمينَ ويشكلٍ كاملٍ برعايةٍ هذه الشروطِ وعدمِ إخلال أو إهمال أيِّ منها.

إن هذه الصفات الروحيَّة والعمليّة والتي كان مطلوبًا توافُرُها في الأطباء العاملون بمشفى الوقفِ نجدُها اليومَ محلِّ طلَب ومناطَ أولويَّة قصوى بالنسبة لباقي الصفاتِ المطلوبِ توافُرُها في الوقتِ الحاليِّ عند الأطباء، وفي اللاثحة التي تُنظِّمُ عملَ الوقفِ يُذكرُ أنه من الضروريِّ أن يكون الأطباء العاملين بالمشفى على علم ودراية بالمسائلِ الطبيّة والعلمية، كذلك فقد كانت تُراقَبُ وتُلاحظُ أيضًا أدقُ تصرفاتهم تجاة المرضى وبشكل كانت تُراعى فيه هذه الناحية إلى أقصى درجة.

<sup>(</sup>١٧٤) طَاشْكِيزانْ، المصدر السابق، ص ١٣٣.

وإذا نظرنا إلى المواصفاتِ التي كان من المطلوبِ توافُرُها في أطباءِ مشفى الوقفِ فإنّنا نجدُ أنها تعكِسُ فكرًا متطوِّرًا للغاية ينطوي على أفكارَ أكثر تقدُّميَّة من قَسَم الحكيم "هيبوقراطيس"(١٧٠) الذي يُعَدُّ بمثابةِ "قانونِ أخلاقيّ" في عالم الطبِّ المعاصِر.

فمشلًا لا نجدُ في "قسم هيبوقراطيس" أيَّ ذكرٍ للتأثيرِ القويِ الذي تُحدِثُ الكلمةُ الطيبةُ واللغةُ اللطيفةُ على المرضى، كما لا نجد ذكرًا على الإطلاق لضرورةِ أن يُظْهِرَ الطبيبُ للمرضى الرأفةَ والاهتمامَ الشخصيّ، إننا لا نجد من بين كلمات "قسم هيبوقراطيس" ذكرًا واضحًا وصريحًا للصفاتِ الواجب توافرُها لدى الطبيب.

## العلاج يُمنح أيضًا خارج نطاق المستشفى

من بين الأطباء الذين كانوا يعملون في مشفى "خَاصَكِي" الذي كان يوظّفُ ما يقاربُ الثلاثين شخصًا نجدُ أنَّ كبيرَ الأطباءِ كان يبلغُ أجرُهُ اليوميّ ثلاثين درهمًا، أما الطبيبُ الثاني فقد كان أجرُه خمسةً عشرَ درهمًا، أما الطبيبانِ المختصّانِ بالعيون -واللذان يكونانِ على درجة عالية من التمكُّنِ في تخصُّصِهما ويتميّزانِ بمهارةِ اليدِ والدقّةِ في وصفِ العلاجِ إلى جانبِ البراعةِ في تشخيصِ المرضِ وتقييم الحالةِ المرضيّةِ دونَ الوقوعِ عانبِ البراعةِ في تشخيصِ المرضِ وتقييم الحالةِ المرضيّةِ دونَ الوقوعِ في أخطاء - فقد كان الواحدُ منهما يتقاضى أجرًا يوميًا يبلغُ خمسةَ دراهم، في أخطاء وقد كان الواحدُ منهما يتقاضى أجرًا يوميًا يبلغُ خمسةَ دراهم، في حين أنَّ الباقينَ من نفسِ تخصُّصِهما كانوا يتقاضون ثلاثة دراهم يوميًا، كذلك فقد كان بالمشفى اثنانِ من الجرًاحينَ الماهرينَ في مجالِهم، والقادرين على مداواةِ كلِّ أنواعِ الجروحِ، والتعاملِ معها بشكلٍ إسعافيّ،

<sup>(</sup>١٧٥) - " هيبوقراطيس " (٤٠٠ق. م- ٣٧٥ق. م). ولد هذا الطبيب البوناني الذي يعرف بـ" أبو الطب " في (استانكوى)، وبناء على هذا الطبيب فقد كانت أولى مبادئ الطب هي القاعدة التي تقول (أولا: لا توقع الضرو) أو بمعنى آخر الوفاية خير من العلاج، وعندما يدنا الأطباء الشبان حياتهم العملية فإنهم يقسمون "قَسَم هيبوقراطيس" المعروف.

حيث كان الواحد منهم يتقاضى خمسة دراهم أمّا الباقون من نفسِ تخطّصِهم فقد كانوا يتقاضون ثلاثة دراهم، وكان هناك أيضًا صيدليًان يتمتّعان بالمهارة في إعداد وتحضير الأدوية والأشربة، حيث كان كلَّ منهما يتقاضى ثلاثة دراهم، وإلى جانبِ الأطبًاء فقد تمّ تعيينُ أربعة من الممرّضين لكي يقوموا على خِدْمة المرضى في المشفى، وكان كلُّ واحدٍ من هؤلاء الممرّضين مسؤولٌ عن رعاية أمور المرضى، والقيام بما يتطلبه ذلك من الإسراع في قضاء حوائجهم ورعاية أمورهم وتلبية طلباتهم بأسرع وقت، بحيثُ لم يكن يقصِّر أيُّ واحدٍ من هؤلاء الممرّضين في المكوث إلى جانب المرضى، أو تلبية ما يحتاجونه بأي وقت، وفي النهار لا نجدُهم يتأخّرون عن القيام بواجباتهم المتعلّقة بالمرضى كما لا نراهم يُبدون أي تراخ أو تقاعمي في أداء هذه الواجبات، وفي الليل فقد كان كلُّ اثنينِ من هؤلاء الممرّضين الأربعة يتابعون الخدمة بشكلٍ متناوب، وكانت أجرتُهم اليوميّة تُقدّرُ بثلاثة دراهم. (٢٠١)

\* \* \*

لقد أمرَتُ "السلطانة خُرَّم" بأن يُصرفَ كلُّ يوم مبلغ مائة وخمسين درهم يُخَصَصُ من أجل العلاجِ والشرابِ والطعامِ والمستحضراتِ العلاجيّةِ وما شابَهها، حيث أنَّ كلَّ هذه الأشياء تُوزَّعُ حسبَ احتياجات المرضى المتواجدين في المشفى.

وكان النظامُ القائمُ في المشفى ألّا تُعطى الأدويةُ إلا للقاطِنين في المشفى والمقيمين فيها للعلاجِ، لكن هذا النظام كان يُستثنى منهُ كلَّ يومِ اثنين وخميس من كلِّ أسبوع، فقد كان يستطيع الأطباء -في يومي الإثنين والخميس- أن يعطوا هذه الأدوية والمستحضرات العلاجية إلى

<sup>(</sup>١٧٦) طَافْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ١٣٤.

الأشخاصِ الوافدين من خارجِ المشفى، وكان يُشترطُ عند توزيعِ هذه الأدوية أن توزَّع على من يرغبُ الأدوية أن توزَّع على من يرغبُ في الحصولِ عليها لبيعها، وبناءً عليه فإن الطبيبَ يُقرِّرُ الأمر وفقًا لما يمليه عليه ضميره. (۱۷۷)

#### كان مشفى الوقف مركزًا علاجيًّا

كان الجزءُ الخامسُ من اللائحةِ التي تُنَظِّم عملَ الوقف والذي يحملُ تاريخَ (٩٥٨هـ/١٥٥١م) هو الجزءُ المتعلِّقُ بالمشفى، فهذا الجزءُ يختصُّ بما يحدِّدُ مهمَّةَ المشفى:

"إن المشفى يعالجُ كلَّ أنواعِ الأمراضِ، والوقفُ قد خُصِّصَ لعلاج جميع حالات المرض والعلل دون استثناء".

ويفهم من هذه العباراتِ أنَّ المشفى لم تكنْ مؤسَّسة مقتصرة على علاجِ المجانين فقط، ولكنها كانت مؤسَّسة عامَّة وشاملة علاج جميعِ المرضى، ومفتوحة على اتِساعها لكلِّ الحالاتِ المرضيةِ، وإذا لم يكن مشفى الوقف على هذا النحوِ -من الشمولِ في العلاج- فلا داعي إذًا لذكر عبارة "كل أنواع الأمراض"، فهذه الجملة الصغيرة والمختصرة تُمَثِّلُ في الوقتِ نفسِهِ جوابًا على كثيرٍ من العباراتِ الخاطِئةِ غيرِ الدقيقة التي أثيرت حول المشفى."(١٧٨)

فعلى الرغم من أنَّ هذا المشفى كان نبعًا للشفقةِ والرحمةِ، واعتبارًا من تاريخ تأسيسِه لم تكن بِه أيّ تفرقةٍ في المعاملةِ حيث كان على الدوام فاتحًا ذراعيه ومستقبلًا لكلِّ صنوفِ المرضى، كذلك نجدُ أنَّ هذا المشفى كانَ يعملُ بكلِّ طاقتِه على مداواةِ آلامِهم، إلا أنّه مع الأسفِ الشديدِ

<sup>(</sup>١٧٧) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ١٣٤.

<sup>(</sup>١٧٨) طَاشْكِيزانْ، المصدر السابق، ص ٤٥.

أصبح فيما بعدُ مجرد مكانٍ لِمَن لا يجِدُ مأوًى أو سكنًا، فصار مكانًا للعجزة وملجاً للنساء السجيناتِ أو النساء اللاتي لا يجِدْنَ بيتًا وملجاً، وأصبحت هذه المؤسّسة تُؤوي كلّ هؤلاء الأصنافِ من البشرِ وتقدِّمُ لهمْ ما يحتاجونَه من علاج.

. . .

لقد تعرض "مجمع خَاصَكِي" الذي يُمَثِّلُ وقفَ "السلطانة خُرَّم" لعمليّة إصلاحٍ وتجديدٍ في عام (١٧٤٨م)، وفي عام (١٨٤٣م) كانت هناك مراسلاتٌ تُوصِى بضرورة إجراءِ عمليّة ترميم جديدة وإصلاحات، وحتى عام (١٨٦٩م) كانت المستشفى تابعة لإدارة الأوقاف، ثم تحوّل بعد هذا العام ليكون مخصّصًا تحت تصرُّف مديريّة الشرطة، وظل يُستخدم "سِجنا نسائيًا" إلى أن حُول إلى مستشفى خاصِّ بالنساء لاحقًا(١٧١).

ظلْ مشفى الوقف بعد ذلك أحدَ عشرَ عامًا تابعًا لإدارة مديرية الشرطة، وكان يَتِمُ مداواةُ المريضاتِ هناك من قِبَلِ أطباءِ الشرطة، وأحيانًا كان يتمُ فتحُ قسمِ العياداتِ من أجلِ المريضاتِ اللاتي يفِدْنَ من الخارجِ، والخلاصةُ أن مشفى الوقفِ أصبحَ بعيدًا كلَّ البعدِ عن مهمّتِهِ الأصليّةِ التي تم تحديدُها في اللائحةِ التي تُنظِّمُ عملَ الوقفِ.

وفي آذار/مارس من عام (١٨٨٠م) تم نقلُ إدارة مشفى الوقفِ وعُهِدَ بها إلى البلديَّةِ، كما تمَّ نقلُ النساءِ المريضات والمحكومِ عليهِنَّ إلى مشفى النساءِ الجديدِ الذي أصبحَ مكانهُ في منطقةِ "السلطانِ أحمد".

وفي هذا التاريخ وبسبب ضيقِ المكانِ والحالةِ المتردِّيةِ التي وصلَ إليها مشفى الوقف، فقد تمَّ الإعدادُ لتأسيسِ مشفَّى جديدٍ، ولذلك فقد (۱۷۹) في ذلك الوقت كانت مذه المستثنى تعرف بين الناس باسم (زندان خَاصَكي).

أُمِّمَتْ عِدَةُ بناياتٍ مجاورةٍ للمشفى وخُصِّصَتْ لتكونَ جزءًا منه، وفي عام (١٨٨٥م) قامت البلديَّةُ بشراءِ قصرِ "مورالي (Morale) على شفيق بك" وتمَّ ضمَّه هو الآخرُ إلى المشفى، وبهذا الشكل فقد ارتفعتِ الطاقةُ الاستيعابيَّةُ لمشفى الوقفِ لتصل إلى مائة سريرٍ، وفيما بعد فقد انضمَّ أيضًا إلى مساحةِ المشفى قصرُ "صالح باشا". (١٨٠٠)

### خمسةٌ وثلاثون عامًا في إدارة الشؤونِ الدينيَّةِ

تم في عام (١٨٨٤م) افتتاحُ المشفى الجديدِ، وبعد أن تم الانتهاءُ من التعديلاتِ التي بدأت في عام (١٨٨٣م) جرى البدءُ في نقلِ المرضى إلى المستشفى الجديدةِ، وأما المشفى القديم فقد أصبحَ خاويًا تمامًا من وجود أيّ شخصٍ.

وفي عام (١٩٤٦م) رُمّم مشفى الوقف، وأُعِيدَ إلى الخدمةِ من جديدٍ في صورةِ عيادةٍ طبِيَّةٍ، وفي عام (١٩٦٣م) تم البَدْءُ في عمليَّة إصلاحٍ وترميم للمشفى امتدت أحدَ عشرَ عامًا إلى أن تم الانتهاءُ منها بالكامل عام (١٩٤٧م)، وقد شملتُ هذه الاصلاحاتُ كلَّ أنحاءِ المجمَّعِ، وبناءً على الاتفاقيَّةِ التي وُقِعَتْ بين المديريَّةِ العامَّةِ للأوقاف و" كلوب مديترينيان (Club Mediterraineen)" فقد تم إجراءُ عمليَّة ترميم وإصلاحاتٍ جديدةٍ على كلِّ أجزاءِ المجمّعِ باستثناءِ الجامعِ وذلك بهدفِ استخدامِها لأغراضٍ سياحيَّةٍ، ولكن وبسببِ ردودِ الفعلِ الواسعةِ التي صدرت على الأخصِ من سُكًانِ المنطقةِ فقد عدَلَتِ الأوقافُ عن قرارِها وقامت بتخصيصِ من شُكًانِ المنطقةِ فقد عدَلَتِ الأوقافُ عن قرارِها وقامت بتخصيصِ مورةٍ "مركزِ تعليميِّ للخدمةِ العامَّةِ"، واعتبارًا من يوم العشرين من كانون صورةِ "مركزِ تعليميِّ للخدمةِ العامَّةِ"، واعتبارًا من يوم العشرين من كانون

الثاني/يناير من عام (١٩٧٦م) فقد تمَّ البَدْءُ في تنظيم دوراتٍ تعليميّةٍ مِهنيّةٍ للوُعَاظِ والمُفتين في البنايات التابعةِ للمجمّعِ والذي أصبحَ يلعبُ دورًا كبيرًا في هذا المجالِ تحتَ اسم "مركز خَاصَكِي التعليمي الخاصّ بإسطنبول التابع لرئاسةِ الشؤون الدينيَّةِ". (١٨١)

وفي العام (٢٠١٠م) أصبح "مجمَّع خَاصَكِي" خاويًا حيث تم نقلُ المركز التعليمي منه إلى بناية جديدة في منطقة "بنديك (Pendik)" في إسطنبول، وأصبح "مجمّع خَاصَكِي" يقِفُ منتظرًا أن تحدِّد المديريَّةُ العامَّةُ للأوقافِ الجهة الجديدة التي سيكونُ الوقفُ تابعًا لها.

## حمامُ "خَاصَكِي" الكائنُ في منطقةِ السلطانِ أحمد

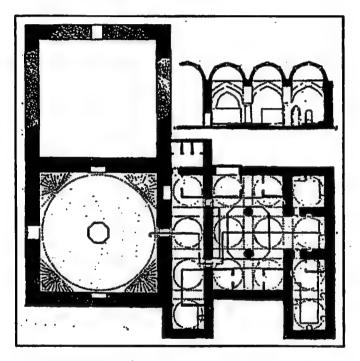
من الآثار التي أمرت "السلطانة خُرَّم" بتشييدِها في إسطنبول حمامً راثعٌ يقعُ في ميدانِ "السلطان أحمد" حيث يُعْرَفُ هذا الحمام باسم حمام "أياصوفيا" أو حمام "خَاصَكِي"، ويُفهَمُ من الكتابةِ الموجودةِ على هذا الأثرِ التاريخيِّ الذي نراهُ في الناحيّةِ الجنوبيّةِ من "أياصوفيا" والذي صُمِّمَ من قِبَلِ المعماريِّ "سِنَان" أنَّ عامَ إنشائِهِ يعودُ إلى سنةِ (٥٥١م/١٥٩هـ)(١٨٠٠).

إنَّ هـذا الحمام المُزْدَوَجَ الذي يُعتَبَرُ من أكبرِ الحمَّاماتِ العثمانيَّةِ في إسطنبول تمّ تشييدُه في المكان الواقع يبن جامعي "أياصوفيا" و"السلطان أحمد" بسببِ ضيق المساحة المجاورةِ لجامعِ "أياصوفيا" وأيضًا بسببِ عدم إمكانيَّةِ إنشاء حمَّامٍ آخرَ بالقربِ منه.

لقد صُمِّمَ المبنى على هيئةِ حمّامٍ مزدوجٍ، ويمتدُّ بشكلٍ مستقيمٍ من الشمالِ إلى الجنوبِ، وأحدُ قِشمَيْ الحمام -المماثلين لبعضِ على البعضِ

<sup>(</sup>١٨١) - سُمَّا دُرِغَانُ، المصدر السابق، ص ٣٧٢.

<sup>(</sup>١٨٢) م. بَاهَا طَانْمَانُ (Tunmun)، "حمام خَاضكي"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، ٢٠٠٣م. الجزء الرابع، ص 2.



مخطط "حمام خَاصَكِي السلطانة خُرَم" خَطَّهُ Heinrich Glück



باستثناء بعض التفاصيل- مُخصَّصٌ للرجال وهو الموجودُ في ناحيةِ جامِعِ "أياصوفيا"، أما الآخر فهو مخصّصٌ للنساء وهو الموجود في ناحيةِ جامعِ "السلطان أحمد"، وفي الجزءِ الشماليِّ من القسمِ الخاصِّ بالرجال الذي يأخُذُ مدخلُه شكلَ جامعٍ نجدُ هناك رواقًا مؤلفًا من خمسِ وحداتٍ، وهو ما لا نراه موجودًا على الإطلاقِ في الحماماتِ الأخرى (١٨٠٠).

وتحتَ "البسملةِ" التي نجدُها مكتوبةً على بابِ مدخّلِ القسمِ الخاصِّ بالرجالِ نجدُ أبياتًا من الشِّعْرِ يعودُ تاريخُها إلى عام (٩٦٤ه) تُنسبُ إلى شاعر لقبُهُ خدائى (Hüdâi)".

> "لو كنتَ ترجو رؤيةَ جنةِ الفردوسِ والرضوانِ، فتعالَ إلى حمامِ السلطان لتتنزَّهَ وتجدُ الصفاءَ.

فمن داخلِ النهر الجاري يخرجُ السلسبيلُ ونهرُ الكوثرِ، وألحانُ هذا الماءِ للشاربِ هيَ ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ عندما دخل "خدائي" إليه شاهدَ حديقةَ جنةِ عدنٍ في الحال لقد حكى التاريخُ عنه أنه حمامُ الجنةِ السلطاني الأبديّ)(١٨٠٠)

### نوافير على شكل الحِيتان

يذكرُ لنا الرحالةُ "أوليا جلبي" أن حمامَ "خَاصَكِي" الذي كانَ يُعتبرُ حمامًا لأعيانِ وأشرافِ القومِ، والذي كان يُعَدُّ أيضًا من أكبرِ وأجملِ حماماتِ السوقِ بإسطنبولَ، كان قد أُنشِئَ من أجلِ تأمينِ وتوفيرِ النفقاتِ التي تحتاجُها أوقافُ "السلطانة خُرَّم".

<sup>(</sup>١٨٣) - طَأَنْمَانُ، المصدر السابق، ص ٤.

<sup>(</sup>۱۸۱) - أحمد آفْكُونْدُوزُ (Akgündüz) - سعيد أوزتورك (Öztürk)، "جامع آيا صوفيا من الكنيسة إلى المتحف". إسطنبول، ٢٠٠٦م. ص ١٥٦

وقد كانت توجدُ-سابقًا- في وسطِ القسمِ الخاصِ بالرجالِ ميضاة في ساحتِها ثلاثُ نوافيرَ كلِّ منها على شكلِ الحيتان، يفيضُ منها الماءُ في ساحتِها ثلاثُ نوافيرَ كلِّ منها على شكلِ الحيتان، يفيضُ منها الماءُ في حوضِ رخامٍ مُجزَّإ إلى شرائح، وقد كانت هذه النافورةُ الفريدةُ التي من المحتملِ أنها جُلِبَتْ غنيمةً من الغربِ- مصونةً ومحفوظةً إلى أن تنتهي عمليّةُ ترميمِ الحمامِ التي أجرِيَت عام (١٩٨٦م) لِتُعادَ إلى مكانِهَا وسطَ الحوضِ من جديد (١٩٨٩م).

أما أهمُّ ما يميِّزُ القسمَ الخاصّ بالنساءِ من الحمامِ عن القسمِ الخاصِّ بالرجال هو كونُ مدخلِهِ متَّجِهًا نحو الجهةِ الغربيَّةِ، كما أنَّ هذا القِسْم قد صُمِّمَ بحيث يكون بدون رواقٍ، إن الفسيفساءَ الحجريَّة الملوّنة الموجودة في مصاطبِ التدليكِ، والأعمدة الرخاميّة الخلابَة والأحواض التي تعكِسُ ملامِحَ الأسلوبِ الكلاسيكيِّ تُبَيِّنُ وتُوضِّحُ لنا خصائِصَ حمام "خاصَكِي" الفريدة والتي استطاعت أن تحافظ على رونقِها وتبقى إلى يومِنا هذا. (١٨٦)

## حمامُ تحوَّلَ إلى خزانٍ للبنزين

لقد ظلَّ الحمامُ قابعًا في قلبِ منطقةٍ سكنيَّةٍ مزدحمةٍ حتى حدث حريتُ "إسحق باشا" الذي وقع عام (١٩١٣م)، حيث أصبح الحمام في أسوإ حالاتِه وأيامهِ خصوصًا بعدَ الحريقِ، وبحلول عامي (١٩١٦-١٩١٧م) تمَّ البدءُ في إجراءِ مجموعةٍ من التعديلات بعد أن طُرِحَت فِكرةُ تحويلِ الحمامِ إلى متحفٍ، فتمَّ فتحُ ممرٍّ في الحائطِ الذي كان يفصِلُ قسمَ الرجالِ عن قسمِ النساءِ، كما جُدِّدَ الرواقُ الموجودُ في مدخلِ قسمِ الرجالِ، لكن فيما بعدُ تمَّ التخلِّي عن فكرةٍ تحويلِ الحمامِ إلى متحفٍ. «١٨٠)

<sup>(</sup>١٨٥) - شمَاوِي أَبِجَه (Semavi Eyice)، " حمام خَاصَكِي "، إسطنبول، ١٩٩١م، الجزء الرابع، ص ٢١١.

<sup>(</sup>١٨٦) - طَأَنْمَانْ، المصدر السابق، ص ٤.-

<sup>(</sup>١٨٧) - أَيِجُه، المصدر السابق، ص ٢١١.

وقد كانت هناك فكرة لهدم حمام "خَاصَكِي" في عصر الجمهورية، إلا أنَّه نَجَا من تلك المحاولة، وعلى الرغم من ذلك نجدُ أنَّ الحمّام قد تعرَّضَ للتخريبِ والدمارِ بسببِ استخدامهِ استخداماتٍ غيرِ مناسبة حتى إنَّ أرضيّاتِه قد دُمِّرَ قسم منها، وفي أوّلِ الأمرِ أصبح هذا الأثرُ التاريخيُّ مُخْزَنًا للجازِ والبنزين تابعًا للبلديّة، ثم تحوَّلَ بعد ذلك إلى مخزنِ للورقِ تابع لإحدى المطابع الحكوميّة، ووصلَ الأمرُ إلى أكثر من هذا حيث نجدُ أنّ الحمام قد بلغ به الحالُ إلى درجةِ أنه قد صارَ يُستخدَمُ لفترةٍ كمخزنِ فحم (١٨٨).

وفي عام (١٩٨٨م) نُظِّمَتْ في الحمام بعضُ المعارضِ الفنيَّةِ المعارضِ الفنيَّةِ المعاصِرةِ ضمنَ فعاليات "البينالى (Bienai) الفنِّ الدولي" والتي تُقامُ كلَّ سنتين وذلك بعد إجراءِ أكثر من عمليّةِ ترميمٍ سابقةٍ في الفترةِ الممتدّةِ من (١٩٥٧م) وحتى (١٩٥٨م).

\* \* \*

إن المبنى -مبنى دار الفنونِ التاريخيّ - العظيمَ الواقعَ في القسم المقابلِ للجِهةِ الشرقيّةِ من "أياصوفيا" والذي كان يُسْتَخَدَمُ كدارٍ للقضاءِ، إن ذلك المبنى قد تحولَ إلى رمادٍ تمامًا في الحريق الذي اندلع ليلة الرابع من كانون الأول/ديسمبر من عام (١٩٣٣م)، وفي أثناءِ ذلك الحريقِ تمكّنَ البناءُ المُجاوِرُ وهو حمّامُ "خَاصَكِي" من أن ينجُو من خطرٍ كبيرٍ كاد أن يصيبَهُ هو الآخر، فقد تمكّنَ رجالُ الإطفاءِ في اللحظةِ الأخيرةِ من إنقاذِ هذا الحمامِ قبل أن يصِلَهُ الحريق، حيثُ تسنّى لهم واستطاعوا إخلاءَ المكانِ من الموادِ المشتعلةِ كالبنزينِ والجازِ والتي كانت تُخَزّنُ في ذلك الوقتِ بالحمام (١٨٥٠.

<sup>(</sup>١٨٨) أيجه، المصدر السابق، ص ٢١١.

<sup>(</sup>١٨٩) - إِلْحَانُ ٱقْجَايُ، " جامع أياصوفيا "، أنفرة – ١٩٦٨م، ص ١٠١.

١٦٤ ---- [خُرَم ومِهْرِمَاهُ]

إن حمامَ "خَاصَكِي" يُعتبَرُ من الآثارِ الهامَّةِ التي خلَّفها لنا تاريخ العمارة العثماني، حيث يُعتبر هذا الحمّامُ في نوعِهِ من أعظمِ الآثارِ التي شيَّدها المعماريُّ "سِنَان" ويُعَدُّ بجدارةٍ رمزًا حقيقيًّا لفنِّ العمارةِ العثمانيَّةِ.

### دار "خَاصَكِي" لإطعام المحتاجينَ في القدسِ الشريف

لقد تمكّنَتُ "السلطانة خُرَّم" التي تعتبر من أقوى نساءِ الدولةِ العثمانيّةِ العليّةِ في القرنِ السادسَ عشرَ من بناءِ مُجَمَّعِ خيريٍّ في مدينةِ القدسِ الشريف إلى جانبِ مكَّة المكرَّمة والمدينةِ المنوّرة.

ويتألَّـفُ هـذا المُجمَّــعُ مـن جامــعِ وخــانٍ للقوافــلِ ودارٍ لإطعــامِ المحتاجينَ ملحقٍ بها خمسٌ وخمسون غرفةً.

وبالإضافة إلى القسم الرئيس من دار إطعام المحتاجين والمحاطِ بالجدرانِ فقد كان هناك أيضًا سلسلة من البناياتِ الموجودةِ ضمنَ المُجَمَّعِ الخيريِّ والتي شَملتِ المطبخَ والفرنَ وبيتَ المونَةِ ومخزنَ المعدَّاتِ ومخزنَ الفخمِ وقاعةَ الأكلِ ودوراتِ المياهِ إلى جانبِ الخانِ والاشطَبْلِ (١٠٠٠).

تقعُ دارُ إطعامِ المحتاجين التي بدأتُ تُقَدِّمُ خدماتِها في القدسِ على شارع يُسمَّى "عقبة الست"، لكنّ اسمَ السيدةِ الذي يُطلَقُ على هذا الشارع

<sup>(</sup>١٩٠) مسجد الوقف ليس من المساجد التي تقام بها صلاة الجمعة، ولكنه أقس من أجل أن يتمكن العاملون بدار إطعام المحتاجين والضيوف الذين يحلون بشكل مؤقت بخان القوافل وكذلك المقيمين في المناطق والأحياء القريبة من أن يقوموا بأداء فروضهم الدينية، أما ما يخص خان القوافل فإن هناك معلومات قليلة للغابة تتعلق به، ومن المرجح أن هذا الخان كان يعمل في إطار من كرم الضيافة التقليدي حيث يقدّم الطعام ومكان الإقامة مجانًا لمدّة أربعة أيام للتجار والحجاج وغيرهم من المسافرين.

لا علاقة له بـ"السلطانة خُرَّم" حيثُ إنَّه يعودُ إلى السيّدةِ "طنشق" إحدى سيّدات العصرِ المملوكيِ التي شيَّدَتْ البناية الأولى في تلك المنطقة في نهاياتِ القرنِ الرابعَ عشر، وعندما فتحَ العثمانيُّونَ القدسَ الشريف وذلك القصرَ المملوكيُّ الموجودَ بها وجدوا بداخلِ البنايةِ عدَّة صالوناتٍ واسعةٍ إلى جانبِ غُرَفٍ كثيرةٍ وكذلك بئرَ ماءٍ، بعد ذلكَ قامَ العثمانيُّونَ بتوسيعِ تلك البنايةِ باتجاهِ الشرقِ والجنوبِ، وكي يتمكَّنَ الوقفُ من بقديمِ الخدمةِ المنشودةِ فقد أُضيفَ إليه سبيل كبيرٌ نوعًا ما إلى جانب غرَفِ الطبْخِ، ومعنى هذا أنَّ "السلطانة خُرَّم" لم تأمُرْ هنا بِبناءِ بنايةٍ جديدةٍ تمامًا، وإنما هو تعديل للبناء القديم.

وبعد أن بدأ الوقفُ في تقديم خدماتِهِ خُصّص إيرادُ الكثيرِ من القرى في كلّ من "القدسِ" و"غزةً" إلى جانبِ إيرادِ الحمَّام المزدَوَجِ ليُنفق على احتياجاتِ دار إطعام المحتاجين بعد أن تمَّ شراؤُها.

## الطعامُ كان يوزَّعُ على المسيحيّين أيضًا

كان عدد الأشخاص المكتوبة أسماؤهم في قائمة الأفراد بالوقف عام (١٥٥٧م) - وهو العام الذي كُتِبَتْ فيه اللائحة التي تُنَظِّمُ عملَ هذا الوقف - تسعة وأربعين شخصًا، وقد كانَ لكلِّ واحدٍ من هؤلاء الأشخاص لقب وعملٌ وراتب محدَّد ونصيبٌ من الطعام الذي يُطهى في مطبخ الوقف، وكان العاملون بهذا الوقف مسؤولينَ جميعًا عن الأمور المالية المتعلقة بمتعلقات الوقف وكذلك الحفاظ على سلامة مبانيه وتشغيله بشكل سليم.

وفي أوائلِ الخمسينيَّاتِ من القرنِ السادسَ عشَـرَ كان حَسَـاءُ الأَرُزِّ والبرغـلِ اللـذان يُطْهَـوَانِ فـي قـدورٍ ضخمةٍ يوزَّعـانِ صباحًا ومسـاءً في دار إطعامِ المحتاجين -أكثرِ أجنحةِ الوقفِ نشاطًا- على ما يقرُبُ من خمسمائةِ شخص، وكان الأكلُ اليوميُّ الذي يُوزَّعُ يتضمَّنُ تقديمَ نوعينِ من الحَسَاءِ مع الخبزِ يُطبخانِ مَرَةً في الصباحِ وأُخرى في المساءِ.

وكان الوزنُ المعياريُّ المُحدَّدُ لرغيفِ الخبر المصنوعِ من القمحِ والملحِ والماءِ بعد أن يخرجَ من الفرنِ تسعينَ درهما النه وفي المساءِ كانت تُقدَّمُ وجبةُ حَساءِ البرغلِ الذي يُطهى بإضافةِ الزبدةِ والحمُّصِ والبصلِ والملحِ والكمُّون والكوسا - وقد يتوفّرُ نوعٌ آخرُ من الخضروات حسبَ الموسِمِ - والزبادي والليمون أو الفلفل الأسود، أما في المناسباتِ الخاصَةِ فقد كانتِ الموائدُ العامرةُ تُقامُ للجميع. (١٠٠)

وبناءً على ما ذُكِرَ في لائحةِ الوقفِ والتي تَعودُ إلى عام (١٥٥٧م) فقد كان يُشتَرَطُ في يومِ عاشوراء أن يتمَّ إعدادُ شوربَةٍ تملأُ أربعة قُدُورٍ مع استعمالِ كلِّ الموادِ اللازمةِ والضروريَّةِ من أجلِ إعدادِ الطعامِ، ١٩٢١ وحيث إن الأكلَ كان يخرجُ من مطبخِ دارِ إطعامِ المحتاجينَ مرتينِ في اليوم فقد كانَ عددُ مَنْ تُصْرَفُ لهم وجباتُ الطعامِ يُقاربُ الخمسمائةِ شخصٍ، وهذا العددُ يشملُ المقيمينَ في خانِ القوافِلِ الذي يضمُّ خمسًا وخمسين غرفةً إلى أربعمائةٍ فقيرٍ ومحتاج.

لقد كانَ هناكَ الكثيرُ ممَّنْ يتردَّدُونَ على دار "خَاصَكِي" لإطعامِ المحتاجيس، وأيَّا كانَ نوعُ الناسِ الذين يَفِدُونَ على الدارِ ويَدُقُونَ البابَ

<sup>(</sup>١٩١) حيث إن كل درهم كان يزن حوالي ثلاثة جرامات، فإن كل رغيف كان يخبز من كمية عجين تزن ما يوازي مائين وسبمين جرامًا.

<sup>(</sup>١٩٢) كان ذلك في الليائي والأيام الخاصة مثل ليائي الجمعة "الليائى التي تصل يوم الخميس بالجمعة" وشهر رمضان وأمسيات الليائي المقدمة وأعياد الفطر والأضحى، في تلك المناسبات كان يقدم الخبز كما هو الحال في باقي الأيام لكن بدلًا من الشوربة كان يُقدّم نوع من الحلوى يسمى "زودة" إلى جانب خبز على هيئة حبّات، ومهما كانت مكانة الضيف فقد كانت توضع هذه الأكلات التي يتتظرها كل الوافدين على كل الموائد.

<sup>(</sup>١٩٢) أمي سنجر (Amy Sunger)، الأعمال الخبرية في العصر العثماني، إسطنيول، ٢٠٠٤م، ص ٢١-٧١.

فقد كانَ هناك بالطبعِ فائضًا من الأطعمةِ المجهَّزةِ والمُعَدَّةِ في انتظارِ مَنْ سيأتي، لقد كانَ يتمُّ عملُ كلِّ ما يلزمُ، بحيثُ إن المحتاجينَ لم يكونوا يخرجون أبدًا جَوعَى من دارِ "السلطانة خُرَّم" المخصَّصةِ لإطعامِ المحتاجين، إذ كان يُخشى من أن يتساءَلَ المحتاجونَ: "ألا تستطيعُ السلطانةُ أن تُساعِدَ الجميعَ؟".

في الأعوامِ اللّاحقةِ استمرَّتْ أيضًا تلك الدارُ في الأعمالِ الخيريَّةِ دون توقَّفٍ، فمثلًا يذكرُ أَحَدُ الرحالةِ الفرنسيِّينَ ويُدعى "موريسون (Antoine Morison)" ما شاهده عام (١٧٠٥م) قائلًا:

"لقد كان يُقدَّمُ كلَّ يوم ولكلِّ فقير يأتي إلى هناك حوالي نصفُ كيلو من الخبزِ بالإضافةِ إلى زيتِ الزيتون وصحنٍ من الشوربةِ المطهوَّةِ مع بعض الخضرواتِ والتي كانت تُجَهَّزُ في قدور عملاقةِ لم نرَ لها مثيلًا من قبلُ ". (١٩١٠)

ويذكُرُ نفسُ الرحالةِ الفرنسيِّ أنَّ الطعامَ كانَ يُوزَّعُ في دارِ إطعام المحتاجين بشكلٍ متساوٍ سواءً أكان ذلك للمسلمين أو المسيحيِّين ومعنى هذا الكلام أنَّ المسيحيِّين أيضًا لم يُسْتَثْنَوا من لائحةِ الوقف(١٩٠٠).

\* \* \*

وعلى الرغم من مرور أربعمائة وأربعة وخمسين عامًا على تشييد هذا البناء الذي يُعرَفُ بين الناسِ باسم دارِ السلطانة "خَاصَكِي" لإطعام المحتاجين أو "التَّكِيَّةِ"، إلا أننا لا نزالُ حتى اليوم نرى هذا الصرح واقفًا على قدميه في قلب مدينة "القدس" القديمة التي تُحيطُ بها الأسوارُ، وابتداءً من الأعوام التي تَلَتْ عام (١٩٢٠م) وحتى يومِنا هذا فقد تحوَّلت

<sup>(</sup>١٩٤) - سنجر، المصدر السابق، ص ٣.

<sup>(</sup>١٩٥) - منجر، المصدر السابق، ص ٨٩.

دار "خَاصَكِي" لإطعامِ المحتاجين إلى "دار الأيتام الإسلامية لتعليم المِهَنِ والمهارات" (١٩٠٠ وعلى الرغم من حدوثِ هذا التحوُّلِ إلا أنَّ توزيعَ الطعامِ قد استمرَّ حتى إن اليونسكو (UNESCO) أيضًا في الأعوام التي تَلَتْ عام (١٩٥٠م) قد قامت بتوزيعِ الطعامِ في نفسِ المكانِ، وما زال حتى اليوم يتمُّ وبشكلٍ يوميِّ توزيعُ الطعامِ على المحتاجين في دارِ الأيتام (١٩٠٠).

<sup>(</sup>١٩٦) كانت "دار الأيتام الإسلامية لتعليم المهن والمهارات" حيث كانوا يتعلمون فيها الجرف الصناعية...

<sup>(</sup>۱۹۷) . يوسف أفندى ناتشى (Natshe)، "الأثر العظيم، ذكرياتي مع دار السلطانة خاضكي لإطعام المحتاجين (My Memories of Khassaki Sultan or The The Flourishing Edifice)، القدس، ۲۰۱۰م، ص ۷.

#### **ಿ**ಗಳು

كُلُّ مخلوفٍ لا رببَ أنَّهُ يفنى،

وكلُّ منسامِجٍ في الآخرة لا يندمُ ·

سيذهبُ الجبيعُ ولا أحد على وجهِ الأرضِ يبقى·

لأنَّ الأجَلَ لا محالةً آت.

فلا باقى إلا الله عزَّ وجلَّ.

"السلطانة مِنْهِرِمَاهْ"



### "السلطانة مهرماه"

انتهت أيام الشتاء الباردة وهدأتِ الرياحُ الشتويّةُ العاصفةُ، وقد تساقطتْ أوراقُ الأشجارِ اليابسةُ الصفراءُ على الأرضِ حتى تَبغثَرَتْ واختَفَتْ، وبدأتِ الحياةُ تستأنِفُ مسارَها من جديد، بعد أن هلَّ الربيعُ وبدأ يكسو وجهَ الأرض وأغصانَ الأشجارِ ثوبًا جذابًا أخضر.

نشأت "مِهْرِمَاهْ" الجميلةُ وترغْرَعَتْ في غُرَفِ الحريمِ الفخمةِ كابنةٍ وحيدةٍ للسلطان و"خُرَّم"، إنها تقفُ الآنَ في إحدى النوافِذِ ذاتِ الأقواسِ الحجريّة الحادَّةِ بالقصرِ المزيَّنِ بالخَزَفِ الفيروزيِّ وقد أخذَتْ تُراقِبُ بحرصِ آفاقَ الموجاتِ البعيدةِ التي لا تَصِلُ إلى الساحل.

كانت الأميرةُ محبوبةً جدًّا من والدِها وكان يلبِّي لها كلَّ طلباتِها، فها قدْ بلغتِ الأميرةُ "مهرماه" سنَّ السابعة عشرَ، وقد امتازت بحسِّ مرهفٍ، ونالت حظًّا وافِرًا من التعليم ...

لقد كان القلبُ الرقيقُ لهذه الفتاةِ اللطيفةِ مضطربًا وخفّاقًا ومنتظرًا للأخبارِ السعيدةِ من "ديار بكر"، لقد امتلأ قلبها بالمشاعر التي تفيض أحيانًا على شفتيها لتُنشِدَ قصائدَ من الشِّغرِ أشبهَ ما تكون بالألحانِ الموسيقيّةِ التي تأسِر الأسماع .

لقد قرَّرَ والدُها "السلطانُ القانونيُّ مع أمِّها "خُرَّم" أن يختاروا "رستم باشا" والي "ديار بكر" عريسًا لابنتهم الحبيبة "مِهْرِمَاهْ".... فهل يا ترى سيحظى "رستم باشا" بما يطمحُ إليه، وهل يا ترى ستُشْرِقُ شمسُ السعادةِ على قلب "مِهْرمَاهْ" ؟

\* \* \*

لا نستطيع أن نحدِّد على وجه الدقَّة التاريخَ الذي وُلدت فيه "السلطانة مِهْرِمَاهْ" الابنةُ الوحيدة للقانونيّ و"خُرَّم"، إلا أنه يمكن الوصولُ إلى تاريخِ ميلادِها من خلالِ معرفتِنا بتاريخِ الزفافِ الذي يُفهَم منه أنَّ تاريخَ مولِدِها يوافق عام (١٩٢٢م) (١٩٨٠).

صادف اليوم الذي ولدت فيه "مِهْرِمَاهُ" السنة الثانية من حكم "سليمان القانونيّ واعتبارًا من هذا اليوم أطلقَ عليها والدها اسمًا مثيرًا وهو "مِهْرِمَاهُ" كعلامةٍ على حبِّه الشديدِ لها. وتعني كلمة "ماه" في اللغة الفارسية القمرَ و"مِهْرُ" الشمس. ومن المحتمل أن السلطانة "مِهْرِمَاهُ" قد لُقِبَتْ بهذا الاسم لجمالِها.

لقد حظيت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بحبِّ وحنانٍ وافرٍ نظرًا لأنها كانت ابنةً السلطان الوحيدة التي بقيت على قيدِ الحياة من بين أخواتها فتلقَّتْ تعليمًا جيّدًا في القصر وأُحيطَتْ بالرعايةِ أثناءَ نشأتِها.

ويُفْهَمُ من الأسلوبِ المُمَيَّزِ الذي نَجِدُه في الخطاباتِ التي تعودُ إلى "السلطانة مِهْرِمَاهُ" أَنَّها كانت تجيدُ المناظرةَ والنقاشَ والكتابة، وأنها كانت غايـةً في الـذكاءِ والعلمِ، كما أَنَّها كانتْ تُشبِهُ أَمَّها في كثيرٍ من حركاتها وسكناتها وتصرُّفاتها وأسلوبها. (١١٠)

<sup>(</sup>١٩٨) - أُولُوجَايُ، نساء وينات السلاطين، أَنْقَرَه، ١٩٨٠م، ص ٣٨.

<sup>(</sup>١٩٩) - أُولُوجَايْ، نساء وينات السلاطين، أَنْقَرَه، ١٩٨٠م، ص ٣٩.

لقد كان السلطان سليمان يضْعُفُ أمامَها لدرجة أنه كان يلتِي لها كلَّ طلباتِها في الحالِ، أما "السلطانة خُرَّم" والتي كانت تعلمُ جيدًا مدى تأثيرِ "مِهْرِمَاه" على السلطان فنجدها تتوسّل إلى السلطان وتترجّاه بمكانة مهرماه عنده في سبيل تحقيقِ مطالِبِها ومن ذلك ما وجدناه في إحدى خطاباتها إلى السلطان حيث تقول:

"سلطاني أرجوكَ بمكانةِ كريمتِكَ "مِهْرِمَاهْ" عندك أن...".

ويمكنُ اعتبارُ هذا العمل من جانبِ السلطانة "خَاصَكِي" دليلٌ على مقدارِ المحبَّةِ والشفقةِ التي كان القانونيُّ يمنحُها لابنته "مهرماه"(٢٠٠٠.

لقد حافظت "مِهْرِمَاهْ" من جانِبِها وحتى الموتِ على هذه العلاقةِ والمحبَّةِ التي كانَ يُكِنُها والدُها تجاهَها، كما استطاعت حتى النهايةِ أن تحافِظَ على تأثيرها الكبير ونفوذِها عند السلطان.

...

ولا تزالُ توجدُ حتى اليوم لوحةٌ للسلطانة "مِهْرِمَاهُ" ثلاثيّةُ الاتجاهاتِ معروضةٌ في متحفِ "بازوفيا (Mazovia)" في مدينةِ "بلوك (Plock)" (٢٠١٠) البولنديّة، وقد صُنِعَت تلك الصورةُ على لوح من خشبِ شجرةِ الزيزفون ذي الرائِحةِ العطِرة حيث يظهرُ أنها لوحةٌ زيتيّةٌ قد رُسِمَت بأسلوبِ "تمبرا (tempera)" في الرسم، أما أبعاد اللوحة فهي ١٨,٧ × ١٨,٧ سم، وبالنسبة للرسام فهو غير معروف، (٢٠٠٠) وتبدو "مِهْرِمَاهُ" في الصورة وهي ترتدي

<sup>(</sup>٢٠٠) أُولُوجَاي، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنيول - ٢٠٠١م، ص ٦٦.

<sup>(</sup>٢٠١) مدينة تاريخية تقم على ساحل "فيسكول" في الشمال الشرقي من بولندا.

<sup>(</sup>٢٠٣) هذا اللوحة كانت ملكًا حتى الحرب العالمية الأولى لعائلة "زيميا ميريسكالى سلزنيا" ثم أصبحت في عهدة عائلة "رادزويل" بمدينة "زجره" بالقرب من "وارسو"، وقد سعت هذه العائلة إلى أن تستعيد هذه اللوحة من يد الألمان الذين استولوا عليها في الحرب العالمية الثانية إلى أن انتهى بها الأمر إلى أن تكون لدى جمعية "بلوك" العلمية ثم إلى متحف "بلوك مازوفيا" بعد ذلك.



لوحة "السلطانة مِهْرِمَاهْ"



رداءُ أحمر مزيَّنا بزهرةٍ ذاتِ أربعِ أوراقِ تيجانيّةِ الشكل، ("`") خلفيّةُ اللوحةِ سوداءُ اللونِ ومكتوبٌ على القسمِ العلويِّ منها على اليسار بحروفٍ لاتينيَّةٍ " CAMARIA SOLIMA/İMP TUR/FILIA/ROSTANIS BASSAE/UXSOR/1541 ". فقد كانت السلطانةُ تُعرَفُ في أوروبًا باسمٍ "كاماريا (Camaria) "("'").

### قَملة تشكل المستقبل(\*\*\*)

عندما وصلت السلطانة إلى سنِّ السابعة عشر بداً البحثُ عن زوجٍ مناسِبٍ لها، ينبغي أن يكونَ هذا الزوجُ شخصًا يجمعُ بين معرفتهِ بآدابِ القصرِ إلى جانب وفرةِ العلم وعظمةِ القوّةِ، فكان "رستم باشا"(٢٠٦٠) -حاكمُ "ديار بكر" الذي يعرفُ جيِّدًا بآدابِ القصرِ، والذي درسَ في "أندرون"-من أكثرِ الشخصيًاتِ المناسِبةِ لهذا الأمر.

كان "رستم باشا" بعد أن تلقى تعليمه في "أندرون" قد عُين ليعمل في السطبلِ الخاصِّ بالسلطانِ ثم التحقَ بعدَها بالجيشِ في حملةِ "موهاج"

(٢٠٣) نظرا لوضع الحريم في ذلك المصر فإنه لم يكن من الممكن أن تقف "السلطانة خُرُم" كموديل أمام الرسام لكي يرسم لها لوحة.

(٢٠٤) - سَلْمِينُ كُنْجَالُ (Selmin Kangal)، الحرب والسلام، العلاقات البولندية العثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، أنقرة - ٢٠٠٦م، ص ١١٠).

(٢٠٥) لما انتشر خبر مصاهرة "وستم باشا" بالسلطان لم يتحمل منافسوه ذلك، وادعوا أن رستم باشا مصاب بالمجذام، فبعث السلطان سليمان طبيه المخاص لفحص الباشاء فوجد الطبيب أثناء القحص قملةً في قميص الباشاء وكان من المعترف به في علم الطبّ آنذاك أن القملة لا يمكنها أن تستقر على جسد من أصيب بالجذام، وعلى ذلك سمح للباشا أن يتروّج ابنة السلطان.

(٢٠٦) ولد "رستم باشا" أوائل القرن الخامس عشر (١٥٠٥-٢-١٥٥م) وذلك في إحدى القرى الواقعة إلى الغرب من "سرايفو" و"بوتومير" بالقرب من "سرايفو"، ويروى عن عائلته أنها كانت تحمل لقب "تشيجاليش"، أما عن أصله فبرجح أنه كان ألبائيا أو صربيًا أو بوسئيًا أو كروائيًا، وقد ترك "رستم" سيّد، الغني الذي كان قد اشتراه وانتقل إلى قصر سيّد جديد آخر بمنطقة "جلطه" في إسطنبول مقابل دين كان مستحقًّا على سيده القديم، وقد نجح "رستم" الذي كان يقوم بخدمة سيده الجديد وفي خلال فترة وجيزة في أن يلفت الأنظار إليه بفضل مهارته وموهبته، وهو ما كان السبب في إرساله إلى قصر "طوب قابي" ليكون من عبيد السلطان. (أَرْهَانَ أَقْيُونُجُو (Erham Afyemeu)، "وستم باشا"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٩م، الجزء المخامس والثلاثون، ص ٢٨٨).

عام (١٥٢٦م) حيث عمل في وظيفة "سلحدار (silahdar)" وعند انتهاء الحملة وقبيل عودة السلطان "القانوني" إلى عاصمة الدولة بيوم واحد أُرسِلَ ليعملَ سائسًا لخيولِ القصرِ (٢٠٠٠ وذلك في الثاني عشر من تشرين الثاني/نوفمبر عام (٢٥٢٦م)، وفي عام (١٥٣٦م) عُتِنَ ليكونَ أميرَ الأمراء في "دولقادر" شم بعد ذلك عُتِنَ في ولاية "كارامان" ثم من بعدها انتقلَ إلى "ديار بكر" ليُصبِحَ أميرَ الأمراء هناك. (٢٠٠٠)

لقد كان العريسُ المرشَّح "رستم باشا" رجلًا عسكريًّا يتمتَّعُ بحُنكةٍ وخِبرةٍ عاليةٍ رغم أنه ليسَ وسيم الشكلِ والمَظهَرِ، وكما تروي لنا بعضُ المصادرِ العثمانيّةِ فقد كانت هناك شائعات انتشرت على لسان منافسي "رستم باشا" عن أنه مصابٌ بمرضِ الجذام، (۱۳) لهذا فقد أرسلَ السلطان "القانونيُّ" واحدًا من أطِبّائِه وهو "محمد أغا" إلى "ديار بكر" لكي يتثبَّت بنفسِه من حقيقةٍ هذه الشائعات. (۱۳)

#### صدرًا أعظمَ في سنِّ التاسعةِ والثلاثين

تمَّ عقدُ زواجِ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" على "رستم باشا" وذلك في حفلِ زفافٍ عظيمِ استمرَّت مراسِمُهُ خمسةً عشر يومًا وذلك من يوم الحادي

<sup>(</sup>٢٠٧) - سِلَخَدَارُ: اصطلاح عثماني يطلق على الموظف المسؤول عن حماية أسلحة وذخائر السلطان والوزير والمحافظة عليها.

<sup>(</sup>٢٠٨) حيث كان هو الشخص المسؤول عن الخيول والعناية بها في القصر.

<sup>(</sup>٢٠٩) أَقْيُونْجُو، المصدر السابق، ص ٢٨٨.

<sup>(</sup>٢١٠) مرض جلدي صعب الشفاء وسريع العدوى يظهر في صورة بُفْعِ جلديَّةِ تنتشر في عدَّة مناطق من جسم الإنسان.

<sup>(</sup>٢١١) خِاوِيتْ بَايْسُونْ (Cavit Baysun)، " السلطانة مهر وماه "، وزارة التربية والتعليم، الموسوعة الاسلامية، إسطنبول – ١٩٦٠م العزه الثامن، ص ٣٠٧.

عشر إلى السادس والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر من عام (١٥٣٩م)، حيث أُجْرِيَ هذا الاحتفالُ بالتزامنِ مع إجراءِ حفلِ الختانِ للأميرِ "بيازيد" و"الأميرُ جِهَانْجِرْ"، وفي نفس الوقتِ ومع إجراءاتِ ومراسمِ الزواجِ تمَّ ترفيع "رستم باشا" لينال رتبةً وزير.

\* \* \*

كان النظامُ المُتَبَعُ قبل زواجِ الأميرةِ "مهرماه" أنّ الأميرةَ حينما تتزوَّجُ تنتقلُ مع زوجِها خارجَ إسطنبول وتتبَعه إلى مكانِ إقامتِه، لكنَّ زواجَ السلطانةَ مهرماه قَلَبَ المعادلةَ وألغى العرفَ القديمَ وأنشأ عرفًا جديدًا وتقليدًا بديعًا داخلَ الأسرةِ الحاكمةِ، حيث إن السلطانة خرم وزوجَها القانونيَّ لم يستطيعا تحمُّلَ ألم فراقِ ابنتِهما المدلَّلة الوحيدةِ، فأقامتِ السلطانةُ مهرماه في إسطنبول وأقامَ معها زوجُها، وأصبحتِ العاداتُ بعدَ ذلك الزواجِ التاريخيِّ أنَّ السلطاناتِ يبقينَ في إسطنبول ولا يتبعن أزواجَهانَ خارجَها المراكبة والمنابق المنافقة عادمة عادمة عنه المنافقة عادمة عادمة المنافقة عادمة عنه إلى المنافقة المنافقة عادمة المنافقة عليه المنافقة عليه المنافقة المنافقة عليه المنافقة المنافقة عليه المنافقة المن

. . .

لقد انفتح طريقُ المجدِ أمامُ "رستم باشا" الذي أصبحَ من خلالِ زواجِهِ بـ"السلطانة مِهْرِمَاهُ" قريبًا من الأسرةِ الحاكمةِ، وفي عام (١٥٤١م) وعلى إثرِ عزلِ "لطفي باشا" وتعيينِ "خادم سليمان باشا" مكانّهُ كصدرٍ أعظم فقد تمّتْ ترقيّةُ "رستم باشا" هو الآخرُ ليُصبِحَ وزيرًا ثانيًا، وفي الفترة من (١٥٤١م) وحتى (١٥٤٣م) والتي ظلَّ فيها "رستم باشا" يعملُ كوزيرِ ثانِ للسلطان فقد كان في الوقتِ نفسِهِ مرافقًا للسلطان "سليمان" في حملاتِهِ العسكريَّةِ على المجرِ، كانت خِبْرَةُ وقدرَةُ "رستم باشا" تزدادُ في حملاتِهِ العسكريَّةِ على المجرِ، كانت خِبْرَةُ وقدرَةُ "رستم باشا" تزدادُ المطنول من الأس إلى البوم، إسطنول من الأس الى البوم، إسطنول من الأس الى البوم،

كلَّ يومٍ في مجالِ إدارةِ شؤون الدولة وكان لزوجته "السلطانة مِهْرِمَاهْ" دورٌ كبيرٌ في هذا الأمر.

وبحلول أواخرِ عام (٤٤ مم) وقعت حادثة أصبح "رستم باشا" على إثرِها مهيئًا لكي ينالَ أرفعَ درجة في الديوانِ السلطاني، ففي اليوم الثاني من كانون الأول/ديسمبر من عام (٤٤ مم) وعلى إثرِ الشِجارِ الذي وقع بين الصدرِ الأعظمِ "خادم سليمان باشا" والوزيرِ" دَلِي خُسرو (Dell وقع بين الصدرِ الأعظم "خادم سليمان باشا" والوزيرِ" دَلِي خُسرو (Hüsrev)" فقد أصدرَ السلطانُ أمرًا بعزلِهِما من وظائفِهما وتعيينِ "رستم باشا" الذي كان في التاسعةِ والثلاثينَ من عمرِهِ صدرًا أعظمًا (١٦٠٠).

وكما تذكرُ لنا المصادرُ فقد كان للسلطانة "مِهْرِمَاهْ" و"رستم باشا" بنت اسمها "عائشة هماشاه (Hümaşah)"(٢١١) وولدانِ مدفونان في ضريح "سنان الدين يوسف باشا" الموجودِ داخل مجمّعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في منطقةِ "أسكودار"(٢١٥).

#### عزاء لملك بولندا "زيجموند"

لقد كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" مملؤة بالحيويّةِ كأمِّها "خُرَّم" وكانتُ تهتم بأمورِ الدولةِ وشوونِ السياسةِ الخارجيَّةِ، وكانت "مِهْرِمَاهْ" تمتلك من الشجاعة ما يمكِّنها من إرسال خطاباتٍ إلى ملوكِ وحُكَّامِ الدول من حولِها، ومن ذلك خطابها الذي أرسلته إلى ملكِ بولندا "زيجموند أوغسط"

<sup>(</sup>٢١٣) تدعي بعض المصادر أن "رستم باشا" قد دير بنفسه هذه الحادثة من أجل أن يمهّد الطريق أمامه لكي يصبح الصدر الأعظم.

<sup>(</sup>٢١٤) "السلطانة هائشة " زُوجت إلى "سميز أحمد باشا" الذي تولّى منصب الصدر الأعظم ما بين عامي (١٥٧٩-١٥٨٠م).

<sup>(</sup>١٥) بعد أن تزوجت "السلطانة مِهْرِمَاة" من "رستم باشا" أنجبت منه أكثر من ابن، حيث انجبت منه ابنتها السلطانة "عائشة" التي عاشت حتى العشرينات أو الثلاثينات من العمر، كما أنجبت منه ولدين، وقد دفن هؤلاء الأبناء في ضريح موجود بجامع "أسكودار". " (السجل العثماني، الجزء الأول، ص ٨٣).

بمناسبة جلوسه على عرش بولندا بعد وفاة والده الملك "زيجموند"(١٠١٠) الأوَّل عام (١٥٤٨م)، فنجدها ترسل إلى الحكام خطابات تعزية وتهنِئة كأمِها "خُرَّم"، (١٥٤٨) وعلى إثر رَدِّ الملكِ بخطابِ شكرٍ على الخطاب الذي أرسلتُهُ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" فقد أرسلت له خطابًا ثانيًا وبعثت له بالهدايا مع رسولِ خاصّ (١١٠٠).

...

وفي أول الخطاباتِ التي كتبَتْها "السلطانة مِهْرِمَاهْ" إلى ملكِ بولندا نجدها تقول:

"نما إلى علمِنا خبرُ وفاةِ والدِكم، فنحن كلنا عبيدٌ لله تعالى ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أسألُ الله لكم الصبرَ وأن يبارِكَ ملككُم، آمين... عندما علمنا أنكم قد جلستُم على عرشِ بولندا سعِدْنا

(٢١٦) اعتلى "زيجموند (البه الأخ الصغير لكل من "جان ألبرت (Jan Albert)" و"الكسند (المجاهر)" و"الكسند (المجاهر)" عدم عرش بولندا عام (١٥٤٨م)، حيث ظل يحكم لمدة اثنين وأربعين عام وحتى وفاته عام (١٥٤٨م)، ومن أجل عدم الخلط بين الملك "زيجموند" وبين ابنه الملك "زيجموند أوغطس" فقد اصطلح على تسميته في التاريخ البولندي باسم "زيجموند المجوز (المجوز (المجوز (المجوز المحافة المحافة على عهد الملك "زيجموند" من أن تحتفظ بعلاقة صداقة مستمرة مع الباب المالي -لدرجة إن هذه الملاقة تمثل حالة فريدة في تاريخ الدبلوماسية المثمانية وذلك في مقابل ابتعادها عن المسار السياسي الذي كانت تبعه كل من المجر ومولدونيا.

(٢١٧) كلمات العزاء التي كتبتها "السلطانة مِهْرِمَاة" إلى ملك بولندا نجدها مكتوبة باللون الأسود وبخط الرقعة المركب، كما نجد ختم السلطانة أسفل الرسالة، وهذه الوثيقة المميزة نجدها مسجلة تحت اسم: ،AGAD. AKW; Dz. Tur.

(۱۹۸) إن بداية العلاقة بين بولندا والدولة العثمانية تمتد إلى القرن الخامس عشر، وقد نشأت هذه العلاقة من خلال مساعي إقامة صلح وصداقة بين كل من السلطان العثماني "محمد شلبي" وملك بولندا "جاجيللو (Jagello)"، حيث أشرت هذه المساعي عن فترة سلام امتدت لفترة طويلة، وفي عام (۱۹۸۹م) تم إرسال "ميكولاج فيرلج (Mikola) (Firle)" إلى إسطنبول كأول سفير لبولندا، حيث تم توقيع أول معاهدة رسمية بين بولندا والدولة العثمانية، وفي السنين التي تلت ذلك أبرمت العديد من المعاهدات والاتفاقيات وتم إرسال السفير البولندي إلى الدولة العثمانية بشكل لم يكن له مثيل مع أي دولة أخرى، (نَازَانُ أُولَّجَز (Nazan Oleer)، معرض حرب وسلام، الحرب والسلام، العلاقات البولندية العثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن الناسع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، أنقرة،

كثيرًا ونالنا السرور، ومن أجلِ هذا فقد أرسلتُ إلى جنابكم السامي أحد أصدقاء حضرة الباشا (تقصدُ زوجَها "رستم باشا") مع خطابٍ يقوِي ويدعم صداقتَنَا وهو "حسن آغا"، إنني أرجو من جنابكم أن تُسرِعوا في إعادة إرسال مبعوثنا إليكم وذلك بعد أن يصلَ إلى قصرِكم ويُظْهِرَ لكم الاحترامَ والتبجيلَ، ونرجو بصفة خاصة أن تُساعِدوه على إتمام مهمتِه، إن رجاءنا من الله تعالى أن يليمَ دولتَكم، وليكن حكمُكُم مبارك بإذن الله تعالى ... "

فقيرة الفقراء، خادمتكم "السلطانة مِهْرمَاهْ"...(٢١١).

. . .

أما الخطابُ الثاني الذي أرسلَتْه "السلطانة مِهْرِمَاهْ" فيُمكِنُ تلخيصُه كالتالى:

"ندعو الله أن يطيل من عمر جلالة الملك وعمر دولته حتى يصبح اليوم الواحد فيها كألف يوم، واعلم يا جلالة الملك أنه عندما بلغنا خطابُكم الذي يفيضُ مودّة وحبًا شعرنا بسعادة وسرور فائتين يصعب التعبير عنهما بالكلمات أو بالأقلام.

إن خطابكم القيّم يبيّن بوضوحٍ ترحيبكم بالعلاقة التي أبديناها إليكم، فلقد أظهرتم بشكلٍ كريمٍ صداقتُكم لنا وقربكم منا، أما أسطرُ الصداقةِ والحبِ التي أبديتموها للسلطان -الذي يُعدِّ القادرُ الوحيدَ على أن يكونَ الملجأ الأمين لأي شخصٍ - فإننا سعِدنا بها إلى حدِّ كبير لا يمكنُ وصفُه بالكلامِ أو الكتابةِ.

أتمنى مـن الله أن يهبَ لكـمُ العمرَ المديدَ والسـعادةَ الدائمةَ وقضاءَ أسعدِ الأوقاتِ...

لقد قبال حضرة السلطان: "لقد كنيت ووالده كالأخوين، وصارت تربِطُنِي مسع ولده صداقة، وقد حان الوقت لنكن من

<sup>(</sup>٢١٩) أُوجْنُومْ، المصدر السابق، ص ٧١٢-٧١٣.

الآن فصاعدًا كالأبِ وابنِه" جلالةَ الملكِ إنني أريدُ أنْ أبلِغَكم بكلِّ إخلاصٍ أنه في حالِ ذِكْرِ أيِّ مسألةٍ متعلّقةٍ بكم عند السلطانِ فإنّني وزوجي "رستم باشا" سنكون إلى جانبكم.

الفقيرة المسكينة "السلطانة مِهْرِمَاهْ"). (٢٢٠٠

\* \* \*

إن كتابة كلّ من "مِهْرِمَاهُ" أو أمّها "خُرَّم" برسالةِ تعزيَةٍ وتهنئةٍ إلى ملكِ دولةٍ غربيّةٍ يُظهِرُ بشكلٍ واضحٍ مدى اهتمام نساءِ القصرِ العثمانيِ ومدى مشاركتِهِنَّ في أمورِ السياسةِ الخارجيَّةِ في عهد "القانونيّ" والتي وصلت إلى درجة ولعِهِنَّ بتلك الأمور، مع أن "السلطانة مِهْرِمَاهُ" عند كتابتها لتلك الخطاباتِ عام (١٥٤٨م) كانت في سنِّ السادسةِ والعشرين.

...

إن العلاقاتِ العثمانيّة البولنديّة لا تنحصرُ في مسألةِ علاقةِ حربٍ أو سلام، فاعتبارًا من بداياتِ القرنِ الخامس عشر واستمرارًا بعد ذلك إلى القرنِ السابع عشر والثامن عشر كانت العلاقاتُ الثقافيّة والتجاريّة قد بلغت ذِرْوَتَها بين الدولتين، حيث اسهَمَتْ تلك العلاقات في رقي البحوانب الفنيّةِ الرفيعةِ لدى كلا المجتمعين، لا سيّما أنّ النخبة في بولندا قد تأثّرت بوضوح بنمطِ الحياةِ والملابسِ والذوق التركيّ إلى جانبِ الولعِ بالسجاجيدِ والأقمشةِ التركيّةِ والغُرَفِ المفروشةِ على النمطِ الشرقيّ والإكسسواراتِ التي تزيّنُ ملابسَ الرجالِ والنساءِ والبُسُطِ والأقمشة النفيسةِ التي أُرْسِلَت كهدايا إلى الكنائسِ، ويتّضح هذا التأثير والتأثّر في وثائقِ الجمركِ والميراثِ في ذلك العصرِ، وهذا كله يدلُ على وجودِ حركةِ تجاريّةِ قويَّةِ وكثيفةٍ بين البلدين.

<sup>(</sup>٢٢٠) أُوجُتُومْ، المصدر السابق، ص ٧١٤.

كانت نتيجة هذا الطلبِ الشديدِ على مظاهرِ الحضارةِ العثمانيةِ أن شُيدت تدريجيًا ورشٌ محلّيةٌ في بولندا، وبدأت تلك الورشُ تتواصلُ مع المشاغلِ والمعاملِ الموجودةِ في مراكزِ صناعةِ النسيجِ المهمّةِ مثل "إسطنبول" و"بورصة"، وراحت تنتجُ منتجاتٍ شبيهةً بما تُنتِجُهُ تلك المراكز في الدولةِ العثمانيّةِ. (٢٠٠)

## تكفي يد واحدة ولا داعيَ أن تمدَّ الأخرى

بناءً على قيام الأمير مصطفى ولي العهد بالتمرُّدِ على والدِهِ السلطان فقد تـمُّ إعدامُهُ خنقًا في (اكتبه) بالقربِ من (قونيه ايرليسي) وذلك أثناء الحملة التي قادَها "سليمان القانوني" على إيران في السادس من تشرين الأول/أكتوبر عام (١٥٥٣م) (٢٢٠)، ولقد كانت هذه الحادثة المشوّومة سببًا لوقوع اضطرابٍ وهياجٍ كبيرٍ في أوساطِ الشعبِ والجيشِ على حدِّ سواء، وعلى أثر هذه الحادثة فقد تمُّ عزلُ الصدرِ الأعظمِ "رستم باشا" في نفسِ اليومِ من وظيفتِهِ حيث إن التاريخ قد صار يحكمُ سلبًا فيما يتعلَّق بتلك الواقعة والتي أصبح يُذكرُ فيها اسمهُ مقترنًا بعبارةِ (مكر رستم)، ومن أجلِ أن تحمي السلطانة "مهرماه" زوجَها من الإعدامِ بعد هذهِ الواقعةِ فقد لجأتُ إلى أمّها "السلطان شيمان" الذي كان يتواجدُ في هذا التوقيتِ في (حلب)، زوجِها "السلطان سليمان" الذي كان يتواجدُ في هذا التوقيتِ في (حلب)، حيث استعطفتُهُ في ذلك الخطابِ وطلبت منه العفوَ عن زوج ابنتِها.

وبعد أن تمَّ عزلُ "رستم باشا" من وظيفةِ الصدرِ الأعظمِ التي شغَلَها لمدة تسبع سنواتٍ تقريبًا فقد عاد إلى القصرِ الصيفيِّ الذي تملِكُهُ زوجتُه

<sup>(</sup>٢٢١) أُولُجَز، المصدر السابق، ص ١٧

<sup>(</sup>٢٢٦) تم إيضاح هذه الحادثة بشكل مفصل في القسم الخاص ب"السلطانة خُرْم".

"السلطانة مِهْرِمَاهْ" والواقع في منطقة "أسكودار"، وعلى الرغم من عزلِهِ من منصبِهِ فإنَّ "رستم باشا" لم يفقِدْ شيتًا من سلطتِهِ نظرًا لكونِهِ صهرَ السلطان "القانوني". (۲۲۳)

...

وفي عام (١٥٥٤م) ألمَّ بـ"السلطانة مِهْرِمَاة" مرضٌ خطيرٌ وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها، وعلى الرغم من كلِّ الجهودِ التي بذلَهَا الأطباءُ إلا أنها لم تتحسَّن، وعندما علِمَ حَمُوها قبطانُ البحر "سنان باشا" بالأمرِ فقد طلبَ المساعدة من عبدِه وطبيبِه "بيدرو"، لكنَّه لم يذكُرُ له أن المريضة هي السلطانة الابنة، وعندما صارحَهُم الطبيب "بيدرو" أنه لا يُمكِنُ أن يعالِجَ المرضَ بدون رؤية المريضِ وقياسِ نبضِه وتحيللِ البولِ رُفِعَ الأمرُ إلى "رستم باشا" (٢٢٠).

لقد كان "رستم باشا" غيورًا للغاية مما جعله يطلب من الطبيب "بيدرو" أن يعالج زوجتَهُ "مِهْرِمَاهُ" بدون أن يراها وذلك من خلالِ الحديثِ معه هوَ دونَ أن يقابِلَها، لكن مع إلحاحِ الطبيبِ فقد رضي "رستم باشا" بأن يُحيلَ المسألة إلى "السلطانة مِهْرِمَاهُ" لكي تقرِّرَ هي ما تراه مناسبًا، وفي النهاية نجحَ "بيدرو" في أن يدخلَ إلى غرفةِ السلطانةِ المريضةِ، إلَّا أنَّ

<sup>(</sup>٣٣٣) يذكر " بوسبيك (Busberg)" السفير الألماني الذي وقد إلى إسطنبول عام (١٥٥٥م) في مذكراته الشهيرة: " على الرغم من المدة التي يقيها "رستم" باشا معزولًا من منصب الصدر الأعظم فقد كنا نقوم يزيارته ونقدم له الهدايا حيث كان لدينا فناعة بأن هناك احتمال أن يعود "رستم" باشا في المستقبل إلى موقعه القديم ". (أَفْيُونُجُو، المصدر السلبق، الجزء الخامس والثلاثون، ص ٢٨٣).

<sup>(</sup>٢٢٤) يحكي الطبيب الأسباني "بيدرو" ثلك الواقعة على النحو التالي:

<sup>&</sup>quot; لقد أخبرني سبدي "سنان باشا" بأن حياته هو وأخيه "رستم باشا" مرتبطة بشفاء هذه المريضة، وأن موتها سبعني هلاكهما، من أجل هذا فإني سأقوم بما يمكن عمله وسأصنع اللازم من أجل شفاء السلطانة وسيقوم بمتقي إذا نجحت في هذا الأمر، وقد أجته بأنني لا أريد أن أعتق لأنني إذا صرت حرًا فإنني سأصبح بلا سند أو كفيل، لكنني من أجل الامتال لأوامره فقد أخبرته بأنني سأبذل قصارى جهدي، وبناء على ما ذكرته فقد أرسلني " سنان باشا " إلى قصر أخبه " رترجمة: فؤاد خارم (Carum)، إسطنبول في عصر القانوني، إسطنبول - ١٩٦١م، ص ٣٥).

الطبيبَ اندهش عندما اقتربَ من فراشِ السلطانةِ، فقد كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" مغطاةً ومستَتِرةً وملتحفةً تمامًا بملاءةٍ ذاتِ خيوطٍ وضفائرَ ما عدا إحدى يديها التي كانت بارزةً.

. . .

وها هو الطبيبُ "بيدرو" يحكي لنا في مذكراتِهِ ما وقع في تلك الحادثة:

"بعد أن غسلت يدي بفوطة كبيرة قمتُ بقياس نبضِها، وعلى الرغيم من شعوري برغبةِ زوجِها في أن أكتفي بهذا القدر إلا أنَّنـي لــم أَبالِ، وقلتُ باللغـةِ التركيَّةِ: "اعطِني يــدَكِ الأخرى يا سلطانتي"، فأدخلتِ السلطانةُ يدَها تحتَ الغطاءِ ثمَّ مدَّتِ الأخرى إليّ، وعَندها وجدتُ "رستم باشا" يُعْرِبُ عن ضيقِهِ وعدمِ ارتياحِهِ -بمجرَّدِ أَن قمتُ بقياسِ النبضِ- قائلًا: "حسنًا، لنذهب الآنَ يكفي يـد واحدةً فقط"، حينها قلتُ للسلطانة متظاهِرًا ببرودةِ الأعصاب التي يقتضيها الموقفُ الذي كنتُ فيه - وباللغة التركية مرَّةُ أخرى: "سلطانتي هل من الممكن أن تُخرجي لسانكِ؟"، فما كان من السلطانة إلا أن أخرجَتْ رأسَها وذراعيها من تحتِ الغِطاء، ثم أخرجت لسانها وهي تنظر بحدّة إلى زوجِها، فلم يستطع "رستم باشا" أن يَنْبِسَ ببنتِ شَفَةٍ أمام تصرُّف زوجته السلطانة، أما أنا فقد قلت من جَانبي "سيكونُ هناكَ تحسُّنّ وتغيُّرٌ للأفضلِ خلالَ خمسة عشرَ يومًا إن شاءَ اللهُ" وقبلت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بتناولِ وأحذِ أيّ نوع من أنواع العلاج باستثناءِ الأدويةِ المسهِّلَةِ وفصدِ الدم وذلكُ لأنهًا قد عانت كثيرًا من هذه العلاجات التي وصَفَهَا لها الأطباء مرّاتٍ عديدة، فقلتُ لها: "إنَّهُ من الضروريّ أن تأخذِي شرابًا حلوَ المذاقي مسأعطيك إياه الآن"، وعندما قالت حسنًا انسحبت منتقلًا إلى جناح "رستم باشا")(٢٢٥).

<sup>(</sup>٢٢٥) خارِم، المصدر السابق، ص ٣٦-٢٧.

وخلالَ فترةٍ وجيزةٍ من التداوي بالعلاجاتِ التي وصَفَها الطبيبُ "بيدرو" كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" قد استردَّت صحَّتَها.

### "بيازيد" لا يأبّهُ بالنصيحة

بعد عزلِ "قره أحمد باشـا" ثم مقتلِهِ في التاسع والعشرين من أيلول/ سبتمبر عـام (١٥٥٥م) تولَّـى "رسـتم باشـا" للمـرَّةِ الثانيةِ مقـامَ الصدارةِ العظمى.

كانت أهم الأحداثِ التي وقعَتْ خلالَ الفترةِ الثانيةِ من تولِي "رستم باشا" لمقام الصدرِ الأعظمِ هو الصرائح الذي نَشَبَ بين الأميرين "بيازيد" و"سليم" على العرش، حيث إنَّ الفرصةَ قد أصبحَتْ متاحةً بشكلٍ أكبر أمام "الأمير بيازيد" بعد موتِ الأميرِ مصطفى، لكن بوفاةِ والدتِهِ "السلطانة نُحرَّم" قد فقد "الأمير بيازيد" أهم سند بالنسبة إليه، ولم يعد هناك الآن من ناصرٍ أو معينٍ له في القصرِ سوى "رستم باشا" زوجُ أختِهِ "السلطانة مِهْرِمَاه"، وذلك لأن "السلطان سليمان" بعد وفاة زوجتِهِ "خُرَّم" أصبح مرتبطًا بشكل كامل بابنتهِ "مِهْرِمَاة".

لكنّ تصرّفاتِ وقراراتِ "بيازيد" الطائشةِ والغيرِ مسؤولة كانت تضعُ أختَه "مِهْرِمَاهُ" في موقفٍ صعبٍ من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى تُعَزقِلُ هذهِ التصرُّفاتُ جهودَ الحفاظِ على حبلِ المودَّةِ مع أخيها "سليم"، ففي الواقعِ كان "سليم" ينتهِزُ بدورهِ كلَّ فرصةٍ من أجلِ إشعارِ أختِهِ الكبيرةِ "مِهْرِمَاهُ" بأنَّها تأخذُ موقفًا مؤيدًا لأخيها "بيازيد".

\*\*\*

وعندما علِمَ السلطان "القانوني" بالخلافات التي كانت بين الأميرين عاقبَهُما بشكلٍ متساوٍ وبدونِ أن ينحازَ إلى أيِّ منهما حيثُ قامَ بإرسالِ "الأمير سليم" ليكونَ واليًا على "قونيه" أمّا "الأمير بيازيد" فقد أرسله ليكونَ واليًا على "أماسيا".

لم يعترضِ "الأمير سليم" على ما قام به والده، لكن "بيازيد" ظلَّ في مدينةِ "كوتاهية" وكان يتصرَّفُ بشكلٍ يعبِّرُ عن عدم رغبتِه في الذَّهابِ إلى "أماسيا" بحجَّةِ أنَّ هذا الأمرَ يهدُفُ إلى إبعادِهِ عن إسطنبولَ وجَعْلِ "سليم" هو القريبُ من العرش، كان "بيازيد" في تلك الأثناء يُرسِلُ بالخطاباتِ إلى أختِهِ الكبيرةِ "السلطانة مِهْرِمَاه" ويريدُ منها أن تبذُلَ جهدَها في صالِحِه عند والدِها.

أما "السلطان القانوني" الذي كان يدرُسُ الشكاوى الواردة من "سليم" فقد طلبَ من ابنته "مِهْرِمَاه" أن تكتبَ لأخيها رسائلَ تنصحه فيها، وأن تقدِم له الخطاباتِ القادمة إليها من "بيازيد"، كما طلبَ منها الردَّ على شكاوي "سليم"، أما "السلطانة مِهْرِمَاه" والتي كانت من جانبها في غاية الضيق بسبب كونها في موقف وضعها بين أبيها وأخيها فقد أرسلت بخطاب سريّ إلى "بيازيد" لم تترك فيه شيئًا لم تذكره فيه، (٢١٠ حيث أوصتُه في هذا الخطابِ بالذهابِ على الفورِ إلى ولاية "أماسيا" التي كلّف بتولّي إدارتها، ونجدُ أنَّ "السلطانة مِهْرِمَاه" بعد أن بدأت خطابَها إلى أخيها "بيازيد" بكلماتٍ فاترةٍ فقدُ أخذت تستخدِمُ معهُ لهجةً قاسيةً ناصحةً إيّاه بالا يتصَرُف على نحوٍ يؤذي بهِ نفسَهُ، وفي النهايةِ قام السلطان "القانوني" بإرسالِ كلّ من "صُوكُولْلُو بَاشَا" إلى "الأمير سليم" و"برتف باشا" إلى "الأمير بيازيد" كناصحين إلى كلّ منهما، لم يُندِ "سليم" اعتراضًا على ما "الأمير بيازيد" كناصحين إلى كلّ منهما، لم يُندِ "سليم" اعتراضًا على ما ذكره الناصحُ كما أعربَ عن تقبّلِه لما جاء به، أمّا "بيازيد" فلم يلقِ بالألل لقدوم "برتف باشا"، قائلًا:

<sup>(</sup>٢٢٦) محمود آق، " السيدة مؤسسة الوقف: "السلطانة مِهْرِمَاة"، مجلة الأوقاف، أنقرة - ٢٠٠٦م. (عدد خاص: عام ثقافة الوقف) ص ٨٣.

"على الرغم من أن إسطنبول مملوءة عن آخرها بالعلماء الكبار والشيوخ المبجلين، إلا أنه من المدهش ألّا يُرسِلَ إليَّ واحدًا من هؤلاء ليُسدِي إلي النصيحة وينيرَ ليَ الطريق، فعلى الأقلِ أمثالُ أولئكَ العلماء يمكنُ أنْ أستهدي بهديهم وأن أسترشِدَ بأفكارهِم".

وعلى هذا النحوِ فقدْ أخذَ يسخرُ من الرجل المخضرمِ الذي أرسلهُ إليه أبوه .

وعلى الرغم من عدم إلقاء "بيازيد" البال إلى نصيحة الناصحين -بمن فيهم أخته الكبرى- فقد ذهب إلى "أماسيا"، ومن هناك أخذ "بيازيد" في التخطيط للوصول إلى العرش من خلال إعداد العدَّة من أجل التحرُّك في التخطيط للوصول إلى العرش من خلال إعداد العدَّة من أجل التحرُّك لملاقاة أخيه "سليم" عسكريًّا متَّخذًا في ذلك من جدِّه السلطان "سليم ياووز" كانت تسحرُه ياووز" مثلًا أعلى أمامه، لكن جدَّه السلطان "سليم ياووز" كانت تسحرُه الشجاعة والكفاءة العسكريّة التي كان يتحلّى بها، وبعد وقت قصير تحرَّك "الأمير بيازيد" إلى "قونيه" على رأس القوَّات التي جمعها في الثلاثين من أيار/مايو عام (٥٩ه ١٥م) وبدأ في قتال القوَّاتِ التي كانت تحتَ إمرة أخيه "سليم"، لكن جيشَهُ-أي بايزيد- هُزم بعد مناوشات بسيطة، فانسحب، واضطرَّ حينَها "بيازيد" إلى العودة إلى "أماسيا"، إلا أنه لم يستطِع أن يستقرً به الحالُ هناك أيضًا.

#### نهاية "بيازيد" الحزينة

عندما وصل "الأمير بيازيـد" -الذي لم يستَطِع التفاهُمَ مـع والدِهِ وأخيهِ "الأمير سليم"- إلى مشارف "أرضروم" أخذَ يبذُلُ قصارى جهدِهِ في العملِ على إقامةِ اتصالٍ مع والدِهِ السلطان، وفي سبيلِ ذلك نجدُهُ قد سمى وحاول الوصولَ إلى كلِّ الأطرافِ المحيطين بواللهِ والذينَ بإمكانهم أن يؤمِّنوا له المساعدة والعونَ في هذا الصدد.

وفي الخطابِ الذي كتَبَه "بيازيد" إلى "السلطانة مِهْرِمَاهْ" نجدُهُ يبدأُ كلامَهُ قائلًا: "أختي العزيزة، أختي السلطانة" ويذكرُ بعد ذلك أنه قد جاءَ إلى هنا لكي يتمكَّنَ من النجاةِ بحياتِهِ، كما نجدُهُ يسعى في التذلُّلِ إلى والدِهِ لكي ينالَ منه العفوَ قائلًا:

"إذا ما نالني عفوُكَ وأمانُك، فواللهِ لن أرحلَ إلى أيِّ مكانٍ".

كذلك نراهُ يرسِلُ السلامَ إلى كلِّ من "رستم باشا" وابنةِ أُختِهِ "عائشة هماشاه"، ويُنْهي "بيازيد" خطابَهُ قائلا:

"صغاري يقبّلون أيدي عمتهم، نشتاق إلى رؤياكم قبل أن يوافينا الأجل"(٢٢٧).

توفي الصدرُ الأعظمُ "رستم باشا" في الثاني عشر من حزيران/يونيو من عام (١٥٦١م) بسبب مرض الاستسقاءِ عن عمرٍ يتراوحُ بين الخامسةِ والخمسينَ والستين، حيث ظلّتْ بعدَ ذلك "السلطانة مِهْرِمَاهُ" أرملةُ بعدَ زواج استمرَّ سبعَ عشرةَ عامًا.

وقد فضلت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" أن تنسحِبَ إلى القصرِ القديمِ بعد وفاةٍ زوجِها متخلّية عن فِكرةِ الزواجِ مرّةٌ ثانيةً، هذا وقد خصصت لها الدولةُ دخُلًا كبيرًا يُقارِبُ الستّمِانة قطعة من الفضة.

. . .

وبعد حوالي العام من حدوثِ ذلك وفي نهايةِ مساوماتٍ طويلةٍ أجراها "الأمير سليم" مع شاهِ إيرانَ تمَّ الاتفاقُ بينهما على إعادةِ "الأمير بيازيد"،

<sup>(</sup>٢٢٧) - آق، المصدر السابق، ص ٨٣.

وفي الخامس والعشرين من أيلول/سبتمبر عام (٦٦٥١م) تمَّ إعدامُ "الأمير بيازيد" خنقًا بوَتَرِ القوسِ في (قزوين).(٢٦٨

### مساعدتها في تجهيز حملة "مالطه"

بدأت "السلطانة مِهْرِمَاة" بعد وفاة "الأمير بيازيد" في تحسينِ العلاقاتِ مع "الأمير سليم" الذي كانَ هو المرشّح الوحيدُ للجلوسِ على العرشِ، في هذه الأثناء كانتُ هناكَ رغبة لدى "سليمان القانوني" والديوانِ السلطاني في فتحِ جزيرة "مالطه"، حيثُ كانت تلك الجزيرة تهدّدُ أمنَ التجارةِ العثمانيّةِ في البحرِ الأبيضِ وكذلك تهدّدُ أمنَ سواحِلِ شمالِ أفريقيا، وأيضًا فقد كانت تأتي التقاريرُ من "تورجوت ريس باشا" سنة (٥٦٥ ١م) والتي تُشيرُ إلى أهمّيّةِ هذا الموقعِ، بالإضافةِ إلى ذلك فقد كانت "السلطانة مِهْرِمَاهُ" الابنة الحبيبة للسلطانِ "سليمان القانوني" تذكرُ أنَّ فتح "مالطه" هو مسألة مهمّة جدًّا بالنسبةِ لها، ومن أجل ذلك نرى أنَّ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" قد ساندت بمالِها وثروتِها في إعدادِ هذهِ الحملةِ العسكريّةِ المجهّزةِ في سبيلِ الفتحِ، فنجد أنّ "مِهْرِمَاهُ" كانت تجهّزُ من مالِها الخاص السفنَ البحريَّة بما تحتاجُهُ من مستلزماتٍ.

# كلُّ شيءٍ خاضعٌ لقدرةٍ إلهيّةٍ

بعد أن مرَّ عامٌ واحدٌ على حملةِ "مالطه" وبينما كانَ "بياله باشا" منشغلًا بفتحِ جزيرة "صاكيز" كان "سليمان القانوني" الذي يبلغ من العمر اثنين وسبعين عامًا يستعدُّ لحملةٍ جديدةٍ على النمسا (زيجتفار)، في هذه الأثناءِ

<sup>(</sup>٢٣٨) إن هذه الحادثة المولمة تظهر لنا أن التأثير المزعم أنه كان واقغا على السلطان "القانوني" من قبل زوجته "السلطانة خُرْم" وابنته "السلطانة بفرّماة" وزوجها "رستم باشا" الذين كان يوصفوا بأنهم عصابة القصر لم يكن كبيرًا بالدرجة التي صورت. كما تعتبر هذه الحادثة دليلًا واضحًا على أن الأمير "بيازيد" قد تعرض لنفس المصير الذي انتهى إليه أخوه الأكبر مصطفى وأن القانوني لم يكن تحت تأثير هؤلاء الثلاثة، حيث إن من يسوقون مثل هذه الإدعامات يذكرون أن هذه العجزء الأول. ص ٣٢٣).

كان السلطانُ يعانبي من مرضِ "النقرس" الذي ورثَهُ من أجدادِهِ، وعلى الرغمِ من إخبارِ الأطبَّاءِ لهُ من أنه لن يتمكَّنَ من تحمُّلِ مشاقِّ الحربِ إلا أنه قرَّرَ أنْ يخرُجَ للغزْوِ وكان يقول:

"إِنَّ كلَّ شيءٍ يتوقَّفُ على القدرةِ الإلهيّةِ". (٢٢١)

وبناءً على المصادرِ التاريخيةِ، فقد كان السلطانُ دائمًا ما يدعو ويتضرَّع إلى الحقِ تعالى أن يقبِضَ روحَهُ وهو يُؤَدِّي مهمَّتُهُ المقدَّسةَ في إعلاء كلمة الله ﷺ وبهذا الشكل فقد كان السلطانُ العادلُ يعلمُ أنهُ يقتربُ من النهاية. (۱۳۰)

وقد استجابَ الله ﷺ لدعاءِ عبدِهِ المخلِصِ، حيث إنَّ السلطانَ قد وافَتْهُ المنيَّةُ في ليلة السادسِ من أيلول/سبتمبر عام (١٥٦٦م) عندَ مشارفِ قلعةِ "زيجتفار".

...

عندما علم "الأمير سليم" بنبأ وفاة والده أتى من "كوتاهية" إلى إسطنبول، وفي قصر "طوب قابي" التقى مع أختِه "السلطانة مِهْرِمَاه" حيث تباحث معها في الموقِف، وكما يذكر في كتاب "تاريخ سلانيكي" فقد تشاور "سليم" مع السيدة السلطانة "مهرماه" باعتبارِها الأكبر والأعلى مكانة في كلّ الأمور. (٢٣٠)

<sup>(</sup>٢٢٩) بناء على هذه الرواية فإن "السلطانة بهرِفاة" قد شجعت مع "صوكوللو محمد باشا " والدها "السلطان سليمان" على الخروج للغزو والجهاد، أما بالنسبة السلطان "القانوني" فإن الاستماع لهذه الكلمات التي تبين درجة تعلقه بالحياة يظهر لنا مدى عظمة هذا الرجل. (قاتِشْمَنْد. المصدر السابق. الجزء الثاني، ص ٣٤٣).

<sup>(</sup>٢٣٠) أَكْشُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٣١.

<sup>(</sup>٣٢١) كانت "السلطانة مِهْرِمَاة" هي أول من بابعت أخيها "الأمير سليم" عند دخوله إلى قصر "طوب قابي"، وقد ملكت قلب أخيها السلطان "سليم" عندما قالت وهي غارقة في دموعها: " إن نار الحسرة والتفكر تصاحب الباكي المستحب الذي قد احترق وانتهى... " ويقال إنها قد أقرضت في الحال أخيها خمسين ألف قطعة ذهبية من أجل الإنفاق على أمور مثل الصدقة والإحسان وذلك حتى لا تعرض خزينة الدولة لأي وضع سيّه. (ذانشتند، المصدر السابق، الحبر، ص ٣٦٢).

وقد أعطت "السلطانة مِهْرِمَاة" خمسينَ ألفَ قطعة ذهبيّة من ثروتِها إلى أخيها السلطان "سليم الثاني" الذي لم يكن راضيًا عن العجز الذي كان موجودًا بخزينة الدولة العثمانيّة (٢٢٢) وبفضل التضحية التي قامت بها السلطانة فقد شعر السلطان الجديد بارتياحٍ شديدٍ في هذا الوقت الضيق والحسّاس، وغطّى بهذا المبلغ نفقاتٍ ضروريّة وهامّة بالنسبة للدولة. (٣٣٠)

### وفاةُ السلطانةِ الخيرة!

لقد كانت "السلطانة مِهْرِمَاهُ" بعد وفاةِ "سليمان القانوني" عام (١٥٦٦م) وفي عهدِ أخوها "سليم الثاني" وحفيدِهِ "مراد الثالث" من أكثرِ السيدات نفوذًا سواء بين نساءِ القصرِ أو عموم الحريم.

إن هذه السيّدة المحبّة للخيرِ والتي أمضت الفترة الأخيرة من حياتِها في القصرِ القديمِ الذي يُطِلُّ على ميدانِ "بيازيد" الذي ارتبطَّت به ارتباطًا وثيقًا قد رحلت عن عالَمِنا إلى دارِ البقاءِ إثرَ مرضٍ مفاجِيْ وهي في سنّ صغيرة نسبيًا عن عمرٍ يناهزُ السادسة والخمسين، حيث جاءت وفاتُها بعدَ عِدّةِ أيَّامٍ من وفاة قائدِ البحريَّةِ الكبير "بياله باشا (Piyale Paşa)" في الحادي والعشرين من كانون الثاني/يناير عام (١٥٧٤م) (١٣٠٠).

<sup>(</sup>٣٣٢) أورَّمَان، المصدر السابق، الجزء الثلاثون، ص ٤٠.

<sup>(</sup>٣٣٣) في الغالب كانت "السلطانة مِهْرِمَاة" صاحبة ثروة كبيرة للغاية امتلكتها عندما ضمت الميراث الكبير الذي انتقل إليها من زوجها "رستم باشا" إلى الممتلكات التي كانت ممنوحة لها من والدها السلطان، وقد فضلت "السلطانة مِهْرِمَاة" أن توجه هذه الثروة التي بلغ عائدها في اليوم ألفي قطعة ذهبية إلى أعمال الخير والإعمار. (صقا أوغلو، المصدر السابق، ص ٣٥٤).

<sup>(</sup>٣٣٤) بناه على ما يذكر الرحالة الألماني "ستيفن جبرلخ" فإن هذا الناريخ كان يوافق الخامس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر سنة (١٩٧٤م).

"كان والدُها يُكِنُّ لها حبًّا جمًّا لكونِها راجحةَ الرأي وصاحبَةَ أعمالِ خيريّةٍ".

وقد دُفِنَتِ السلطانة بجامعِ "السليمانية" في ضريعِ والدها الفخمِ الذي يقعُ جهةَ القِبْلَةِ (°۲۲).

لعبتِ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" دورًا كبيرًا في التاريخِ العثمانيِ كالسلطان "القانوني" و"السلطانة خُرَّم" وزوجِها "رستم باشا" ويرجعُ هذا إلى أنها قد أمضتْ حياتُها في عصرِ عاشت فيهِ شخصيًاتٌ مؤثِّرةٌ.

كذلك فقد لعبب "السلطانة مِهْرِمَاهْ" دورًا مهمًّا من خلالِ علاقاتِها مع إخوتِها، حيث إنها اضطرَّت إلى الانحيازِ إلى أحدِ إخوتِها وذلك بسبب الظروفِ السياسيّةِ التي مرَّتْ بها البلادُ في هذه الفترة، وعلى هذا النحوِ فقد أصبحَتْ "مِهْرِمَاهْ" من الأسماءِ المهمّة التي تركَتْ بصمةً في التاريخِ العثمانيّ، مع ذلك نجدُ أنَّ أكثرَ المعالمِ الموجودةِ اليومَ والتي تُعبِّرُ لنا عن شخصيّةِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" هي الأوقافُ التي أنشأتها والخدماتُ التي قدَّمَتْها تلك الأوقافُ والتي تعكِسُ مشاعرَها الطيّبةَ وحبَّها للمساعدةِ والخير وكرمَها الوافر.

لقد أنشأت "السلطانة مِهْرِمَاهُ" ما لا يُعَدُّ من الأوقافِ في سبيلِ أن تكونَ تلك الأوقافِ معينةً لها على الظفر برضا الله ونيلِ شفاعة النبي تشرق وقد استطاعت أنْ تفوزَ بمكانة متميّزة على صفحاتِ التاريخِ بفضلِ ما خصَصَتْهُ أيضًا من إمكاناتِ ضخمة في سبيلِ أن تكونَ هذه الأوقافُ قادرةً على الاستمرار في العطاء.

وسوف تظل "سلطانة مِهْرِمَاهْ" تحافِظُ على مكانَتِها المرموقةِ في قلوبِ المسلمين كلَّما استمرَّت هذه الخدماتُ الخيريَّةُ التي قدَّمَتُها.

<sup>(</sup>٢٣٥) أَكْشُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٧٤.

### أعمال "السلطانة ممرماه" الخيرية

## "السلطانة مِهْرِمَاهْ" تُنافِسُ الآخرين على نيل الثواب والأجرِ

لقد بذلتِ السلطانة مِهْرِمَاهُ -الابنةُ الحبيبةُ والوحيدةُ للقانوني - جهدًا وافِرًا طيلةَ حياتها في بناءِ المؤسّساتِ الدينيّةِ والاجتماعيّة، وكأنّها كانت في هذا الأمرِ تنافسُ أهلَ البرِّ والخير، وكانت تهدُفُ من خلالِ هذا السعي والجهدِ إلى نَيلِ رضوانِ الله تعالى وإدراكِ شفاعةِ نبيّه ﷺ، وكذلك رغبةً منها في القيامِ بخِدمةِ وطنِها الذي تُكِنُّ له حبًّا لا يوصف، فقد ساهمت "السلطانة مِهْرِمَاه" في عملِ الخيرِ بإنشائِها مجمَّعين خيريّينِ، الأوَّل على ساحل منطقة "أمرزنه قَابِي".

# مجمّع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في "أسكودار"

وفي لائحة الوقف المكتوبة باللغة التركية التي تخصُ المجمَّع الخيريُّ الذي أنشأته "السلطانة مِهْرِمَاهُ" في "أسكودار" والتي سُجِّلَتْ بعد مرورِ ثلاثِ سنوات من انتهاء بنائه، نجدُ في الصفحة الثالثة من تلكَ اللائحة هذه الأشعار:

"لا تاجَ ولا عرشَ ولا ملكَ ولا مالَ، لا جاهَ ولا وجاهةَ ولا فضلَ ولا كمال ينجي الإنسان من الموت. إن الله خلقَ العالمَ وكتبَ عليهِ الفناءَ كل مخلوق لا ريب أنه يفنى وكل متسامح لا يندم في الآخرة





الصفحة الأولى في لائحة وقف "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أرشيف وزارة الأوقاف، رقم-K/۲۸)



سيذهب الجميع ولن يبقى أحد على وجه الأرض لأن الأجل سيأتي لا محالة فلا باقي إلا الله ﷺ"(٢٢٠)

\* \* \*

وقد أُنشِئتِ البناياتُ الموجودةُ في المجمّعِ -المقامِ على سفحِ هضبةِ السلطانِ - على نحوٍ متفرِّقٍ فنجدُها موزَّعَةُ من الشمالِ إلى الجنوبِ، وأما جامعَ المينَاءِ -الواقعِ عند نقطةٍ مشرفةٍ ومطلّةٍ على الميدان - فإننا نجدُه في الكتابات القديمةِ يُذكَرُ بصورةٍ أوسع تحت اسمِ جامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهُ"، (٢٢٠) ويتَّضِحُ لنا من الكتاباتِ القديمةِ أنَّ المسافة التي كانت بين الجامعِ والبحرِ أقلُ مما هي عليهِ الآن، وفي المصادر القديمةِ نجدُ عبارةَ الضفافِ والتي يُفهَمُ منها أن هذا الجامع قد أُنشِئَ على ضفافِ البحرِ، وبناءً على إحدى الروايات التاريخيَّةِ فقد وَطِئتُ قدما السلطان "القانونيّ" الأرضَ في النقطةِ الواقعةِ أمامَ سلالمِ الجامع حين وصلَ شاطئ "أسكودار" بقاربِهِ السلطانيّ لحضورِ مراسمِ افتتاحِ الجامع (٢٢٨).

ويذكرُ لنا كذلك "أوليا شلبي" في كتابه المعروفِ ما يلي:

"كان يتم الدخولُ إلى حَرَم هذا الجامعِ الواقعِ على ضفافِ البحرِ من خلالِ سلالمَ حجريّةِ على الجانبين."

. . .

<sup>(</sup>٢٣٦) إسماعيل حقي قُونْيَالِي (Kannalı)، تاريخ "أسكودار (Cskādar)" مع الآثار والكتابات المدونة، إسطنبول - ١٩٧٦)، الجزء الأول، ص ٢٣١.

<sup>(</sup>۲۳۷) بأتي ذكر جامع "السلطانة مِهْرِمَاة" في حفريات " الوم (Allom) " حث يثميز هذا الأثر بأنه ملاصق للبحر.
(۲۳۸) الآثار التي استخرجت من حفريات جامع الوالدة الجديدة " السلطانة جولنوش (Gülnuy) " والذي شيد عام (۲۷۸) تم إلقائها في البحر جهة ساحل منطقة "أسكودار"، لقد أقيم ميل ميدان المبناه والذي يتمتع بجمال بديع من قبل السلطان " أحمد الثالث" والذي يتمتع بجمال بديع من والذي نجده عليه اليوم قد تم حني العصر العثماني - في عهد السلطان " أحمد الثالث"، وفي عام (۱۷۲۸م) وفي أثناه والذي نجده عليه اليوم قد تم حني العصر العثماني - في عهد السلطان " أحمد الثالث"، وفي عام (۱۹۷۰م) وفي أثناه إقامة قناة إلى جوار سبيل الميدان الذي يوجد اليوم استخرج من الأرض وعلى عمق مترين رمال بحر وأصداف معار بحرية، ( "م. نزيمي خضكان (Wermi Haskan))، أسكودار على مر العصور، إسطنبول - ۲۰۱ م، الجزء الأول، ص ۲۱۵ أما الأقسام ذات المنحدر النازل - والتي كان يوجد معها السقف الذي يظهر في الحفريات الفديمة – التي تفع بين السبيل والجامع فقد تم عملها في عهد السلطان (سليم الثالث).



النص العربي المكتوب على الباب الرئيس لجامع السلطانة مهرماه والواقع في منطقة أسكودار

أسس بنيان هذا المسجد الجامع المشيد الأركان صاحبة الخيرات والحسنات درة تاج السلطنة العظيمة الشأن عصمة الملك والدنيا والدين خانم سلطان خصها الله تعالى بمزيد الإحسان بنت خاقان الخواقين في الخافقين سلطان السلاطين في المشرقين عامر معمورة الأرض بالعدل والإحسان مؤسس بنيان الأمن والأمان لأهل الإيمان السلطان بن السلطان السلطان سليمان خان خلد خلافته خلود الزمان وتم بمنة المنان في شهر ذي الحجة الحرام من شهور سنة أربع وخمسين تسعمائة من هجرة النبي



(») لم يذكر في الكتابة المدونة اسم "السلطانة مهرماة" التي أمرت بتشييد الجامع، وقد ذكر بعض صفاتها فقط حيث إن التقاليد الإسلامية لا تفصح في أغلب الأحيان عن أسماء السيدات سواء في الكتابات المدونة أو في سجلات الأرشيف وذلك كتعبير عن التوقير الكبير والاحترام الموجه نحو المرأة.

إن الكتابة التي كُتِبَتْ باللغةِ العربيّةِ الموجودةِ على البابِ الرئيسِ الواقِعِ في ميدانِ "أسكودار" تُشيرُ إلى أنَّ الأثرَ قد أُنشئ من قِبل "السلطانة مِهْرِمَاهُ" ابنة القانوني في شهر ذي الحجة / يوليو سنة (١٥٤٨ههه ١٥٤٨).

## براعةُ المعماريِّ "سِنَان" في هذا الأثرِ

وقد كانت معاصَرَةُ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" فنانًا كبيرًا بمستوى المعماريِّ "سنان" فرصةً ثمينةً بالنسبةِ للسيِّدةِ السلطانة.

لقد أنشأ المعماري "سنان" مجمّع "السلطانة مِهْرِمَاه" - والذي كان واحدًا من أوائلِ المجموعاتِ المعماريةِ الهامّةِ التي شيَّدها - بالتزامنِ مع إنشاءِ مجمّع "الأميرِ محمد"، حيث بداً بهذه المهامِ المعماريّة بعد أن أصبح كبيرَ المهندسين المعماريّين، وقد ضمَّ مجمّع "السلطانة مِهْرِمَاه" عِدَّةَ أقسامٍ مثل الجامعِ والمدرسةِ الدينيّةِ ومدرسة للأولادِ ودارٍ لإطعامِ المحتاجين، (٢٦٠) إلى جانب المطبخِ وخان، وإلى جوارِ هذه المنشآتِ فقد كانت هناك أيضًا أعمال أخرى ملحَقةٌ بالمجمّع مثل قنواتِ المياهِ والسبيل والمخزنِ والخلاءِ، ونجدُ أنه في الفتراتِ اللاحقةِ قد أضيفَ إلى المجمّعِ قبرينِ إلى جانبِ حمامٍ مزدوجٍ يُرجّعُ أنه كانَ موجودًا قبلَ إنشاءِ المجمّعِ قبرينِ إلى جانبِ حمامٍ مزدوجٍ يُرجّعُ أنه كانَ موجودًا قبلَ إنشاءِ وغرفةٍ صغيرةٍ لتحديدِ أوقاتِ الصلاةِ، لكن تعاقبَ الزمنِ ومرورَ الأيامِ والقصرُ وغرفة تحديد الصلاة ولم يبق منها شيء (٢٠٠٠).

<sup>(</sup>٢٣٩) حيث كانت لاتحة العمل بهذا المكان تقضي بتقديم الطعام لطلاب المدرسة وموظفي الجامع والفقراء والمسافرين ذهابًا وإيابًا والضيوف.

<sup>(</sup>٣٤٠) [سماعيل أوزمَانْ (Orman). " مجمع السلطانة بـفرِمَاة ". الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول – ٢٠٠٥م، الجزء الثلاثون، ص ٤٠.

قام "سِنَان" بوضع حجر الأساسِ من أجل بناء الجامع على ساحل "أسكودار" اللذي يُمَثِّلُ أحدَ المعابِرِ الهامةِ في العاصمةِ، وبذلك يكونُ المعماري "سِنَان" قد حافظ على طابع إسطنبولَ كمدينةٍ نموذجيّةٍ التصميم، أما الدخولُ إلى فناءِ الجامِع فيتمُّ من خلالِ الأبوابِ الأربعةِ التي يُشْرِفُ أحدُها على شارع "سلمان آغا" والثاني على "ميدان الميناء" والثالث على شارع "ميناء الباشا" والرابع على المدرسةِ الدينيّةِ، وفي وسـطِ فناءِ الجامـع الذي يحيطُ به ســور من الحجــر المقطَّـع والمنحوتِ توجـدُ ميضـأةٌ رائعـةٌ ذات عشرين وجـهٍ مصنوعةٌ مـن الرخـام واقعةٌ في مواجهةِ البابِ الرئيسِ الفخم الخاصِّ بالجامع، وتعلو هذه الميضأةَ شبكةٌ من الزخارفِ الهندسيّةِ، وهذه الشبكةُ يلفُّها من الأعلى إطارٌ عريضٌ يصوّرُ زهرةَ السوسنِ، ويعلو ذلك كلُّهُ إطارٌ أسود مستديرٌ حولَ الميضأة مرصّعٌ بالرصاص، ولا يفوتنا أن نذكر أنَّ هذه الميضاة تُعْتَبَرُ واحدة من أكثر الأماكن المخصُّصةِ للوضوءِ راحةً وتجهيزًا في إسطنبول.

...

وفي مكان الصُّقة بجامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" نجد رواقًا ذا خمسِ قِبابٍ تحملُها ستةُ أعمدةٍ من الرخام، وأمامَه نجدُ مظلَّة منكَّسةً إلى الأسفل وواسعة للغاية، وقد صُمّم القسمُ المسقوفُ من هذا الجامِع كي يَقِيَ من سيتعبدون في صُفّةِ الجماعة من الظروفِ الجويةِ القاسيةِ؛ حيث إنَّ الجامع كان قد أنشِئ على مقربةٍ شديدةٍ من البحر، ولم تكن هناك إمكانية لعملِ فناءٍ ذي رواقٍ كلاسيكيّ بسببِ ضيقِ المساحةِ الساحليّةِ التي بُنِيَ عليها الجامعُ.



منظر داخلي لجامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أسكودار/إسطنبول)

٠٠٠ ----- [خُرَم ومِهْرمَاهُ]

وقد كتبَ شخصٌ يدعى "عثمان جلبي" بيتًا من الشعر باللغة العربية وبخط النسخ -عام (١٦٠٩م/١٦٠٩هـ)- على السوار المصنوع من النحاسِ الأصفرِ والموجودِ على العمودِ الرخاميّ الأخير، ذي القبّةِ الواقعِ إلى اليسارِ من مكان الصُّفّة:

### "لا يشعر فؤادك بالحزنِ بسببِ ضيقِ الرزقِ إن الرزق فقط عند الله الكريم"

أما على العمود المجاور لهذا العمود الرخاميّ الأخير فقد كُتِبَتْ المجملة التالية "في الثاني من محرم عام (١٠٧٠هـ) ذهب السفراء إلى الشاه" ويوافق هذا التاريخ بالتقويم الميلادي عام (١٦٥٩م). (٢٤٠)

وهذا التاريخُ الذي يشيرُ إلى إرسالِ سفراءَ في عهد "السلطان محمد الرابع" إلى شاه إيرانَ في الثاني من محرّم سنة (١٠٧٠هـ) نجده كذلك مدونًا ومثبتًا في المصادر التاريخيةِ(٢٤٢٠).

...

جامع "السلطانة مِهْرِمَاهُ" من الجوامع ذاتِ المنارتين، كلا المنارتينِ بهذا الجامع لها شُرْفَةٌ واحدةٌ متوجِّهةٌ إلى الأطرافِ الشماليَّةِ من جسم البناء، كذلك نجد أن الأقسام التى تمثل قلب المثذنة بما فيها ما تحت الشُرْفةِ وما فوقها هي أقسامٌ متعدّدة الزوايا تقترِبُ من الشكلِ الدائريِّ، أما الجُدُر الخارجيّةُ الخاصَّة بشرفةِ كلِّ مثذنَةٍ فذاتُ حليِّ متدلِّيةٍ من السقفِ، في حين أن الأسوارَ الخاصَّة بهذه المآذن تأخذُ شكل الشبكةِ أو الغربالِ

<sup>(</sup>٢٤١) - قُونْيَالِي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٣.

<sup>(</sup>٢٤٦) إن "أوليا شلمي " فيما يخص الأوقاف يتحدّث عن وجود موظّفين مختصين بالحفر على الأساور المصنوعة من النحاس الأصفر والتي توجد على الآثار الهاقة مثل الجامع والضريع، كما نجد على الأساور البرونزية كتابات تصوّر لنا الأحداث الهامة مثل زواج السلاطين والأمراء ووقاتهم وذلك في جوامع " السليمانية " و" شاهزاد، باشي " وغيرها من الجوامع.

الحجريّ، أما الجزء الأعلى الذي يأخذ صورةَ المخروطِ فنجـدُهُ حادً الشكلِ متناهي الدقَّةِ، ونجِدُ لكلِّ من المثذَنتَينِ بابٌ ينفتحُ على الصُّفّة.

أما بابُ القِبلةِ المصنوعِ من حجرِ الكوفَكِي (٢٠٠٠) المُقَطَّعِ والمغطَّى من أعلاه بطبقةٍ من الرصاصِ فتوجدُ في قمَّتِهِ لوحةٌ منقوشةٌ من الرخامِ الأبيض (٢٠٠٠).

# الساعةُ الشمسيَّةُ الموضوعةُ في القسم الجنوبيِّ

وعلى الحائطِ الذي في الطرفِ الأيمنِ من بابِ الفناءِ المقوَّسِ والمفتوحِ على شارع "سلمان آغا" توجدُ ساعةٌ شمسيَّةٌ كُسِرَ عقربُها تعودُ إلى عام (١٧٦٩م/١٨٣ه)، وهذه الساعةُ -التي تُغتَبَرُ من أفضلِ الساعاتِ التي استطاعت أن تبقى حتى وقتنا هذا- تُمثِلُ واحدًا من أكثر النماذجِ إبداعًا ضمنَ مجموعةِ الساعاتِ الشمسيَّةِ الرأسيّةِ المركبةِ، وفي الزاويةِ السُفليّةِ على اليمينِ في القسم العلويِّ للوحةِ الرخاميّةِ المثبَّتةِ على الحائط بسبعة مساميرَ معدنيّة توجدُ كتاباتٌ قصيرةُ مكتوبةٌ بخطِّ النُلثِ، أما القسم العلويُ فنجدُ مكتوبةٌ بخطِّ النُلثِ، أما القسم العلويُ فنجدُ مكتوبةً محتوبًا عليه:

"أثر "ساعات زاده (Saatzâde)" محمد عارف المكلف بضبط الوقت"

أما في الزاوية الجنوبية فنجد مكتوبًا عندها:

"رسمه الدرويش "يحيى محيي الدين" المؤقَّت بالجامع الجديد."

<sup>(</sup>٣٤٣) أحد أنواع الحجارة التي تستخدم في البناه، يشتد صلابةً مع الزمن، وتوجد به قراغاتٌ صغيرةً، يسهل تشكيله، خفيف وذو لون قاتح.

<sup>(</sup>٢٤٤) عبد الله كُورَانْ (Kurun)، " مجمع السلطانة مِهْرِمَاهُ في أسكوتار "، مجلة جامعة " بُوغَازْإِيجِي (Bokazıçı) "، إسطنبول- ١٩٧٥م، الجزء الثالث، ص ٤٤.



الساعة الشمسية في جامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أُسكودار/إسطنبول)

وفي السطر الأخير نجدُ عبارة السنّة السلطانيّة (١٨٣هـ/١٧٦٩م)(١٠٠٠.

\* \* \*

وأمام الباب الذي يُفضي إلى هذه النقطة من فناء الجامع يلفت الانتباه وجود منصة حجرية، كانت في السابق موجودة بجانب "مرفأ أسكودار الكبير"، ثم نقلت إلى هذا الموضع لاحقًا، فكان السلطان بعد أن يصل إلى "أسكودار" ينزل من قارب السلطنة، ثم يصعد درجات هذه المنصة الحجرية الرائعة كي يرتقى إلى سيارته.

\* \* \*

أما بابُ الفِناءِ الذي يُفْضِي إلى شارع "سلمان آضا" فنجدُ إلى يمينِهِ ضريحًا صغيرًا، حيث يوجدُ بهذا الضريحِ العديدُ من المقابِرِ التي تعودُ إلى عائلةِ "جاغالا زاده (Cagalazade)"، ومن بينِ الذين دُفِنُوا في تلكَ المقابِرِ قبطانُ البحر "سنان باشا" -أخو زوجِ "السلطانة مِهْرِمَاه" وهو نفسهُ الذي شيّد جامعًا باسمه في منطقة "بشيكتاش" بإسطنبول أسماهُ جامع "سنان باشا" - كذلك نجدُ قبرَ "زهدي أفندي" الذي كان من أشهر الخطاطين البارعين في عهد العثمانيين، كما يوجد هنا أيضًا قبرُ الشيخ "عبد الرحيم البارعين في عهد العثمانيين، كما يوجد هنا أيضًا قبرُ الشيخ "عبد الرحيم

<sup>(14)</sup> الساعات الشمسية هي ساعات بسيطة ذات مؤشر معدني يأخذ شكلًا يرتبط بحركة الشمس، وهذه الساعات تظهر الوقت عن طريق نغير مكان هذا الموشر فوق القاعدة الرخامية أو الحجرية أو المعدنية والتي تصنع بطريقة خاصة. وكانت هذه الساعات توضع على حواتط الجامع المواجهة للشمس من أجل تحديد أوقات الصلاة بشكل أكثر دقة. واعتبارا من أول صلاة بعد شروق الشمس وهي صلاة الظهر فقد كانت في الغالب هذه الساعات الشمسية التي توضع في انجوامع تضبط من أجل العمل. وتوجد إلى جوار الخطوط الموجودة بهذه الساعة الموجودة في جامع "السلطانة بهرناة" كتابة باللغة التركية العثمانية الأسماء الأبراج الفلكية مثل: العقرب والأحد والميزان والسنيلة والقوس والجدي. وأمام خط الظهر في هذه الساعة الشمسية يمكن أن نقرأ بوضوح العبارة التالية "خط الزوال" أما خط العصر فنقرأ أمامه عبارة "خط العصر الأول" و"خط العصر الثاني". ("نُضَرَتْ جَامُ (المساعات الشمسية العثمانية، العثمانية، من عام عراء)،



ميضأة جامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أُسكودار/إسطنبول)

أفندي" -والذي كان معروفًا بشيخِ الأباظِيَّةِ أو شيخِ الأصفرِ- والذي يعودُ أصلُهُ إلى مدينةِ "قيصري (Kayseri)"(٢١٦).

### بساطة تليق ببنت السلطان

كذلك نجد من مزايا جامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" أنه لم يخصَّصُ فيه مكانً لقبّةٍ نصفيَّةٍ عند مدخلِهِ وذلك على عكسِ التصميمِ الذي نجدُ عليه جامعَ "شَهْزَادَه" -الذي أنشئ في العصر نفسه-.

ويُعتبَرُ هذا الجامعُ أوّلَ الأعمالِ التي ميَّزتُ المعماري "سِنَان" من حيثُ تصميمه للمكانِ بناءً على أسلوبهِ الشخصيّ، فقد أبدعَ وابتدع في عمارةِ المساجدِ العثمانيّةِ فِكرةً جديدةً، وهي ألا تنحصر مساحةُ المسجدِ على قدرِ مساحةٍ وشموليّةِ القُبَّةِ، بل كانت فكرتُهُ أن يزيدَ من مساحةِ المسجدِ أكثرَ من إطارِ القبّةِ، فلا يتقيَّد حجمُ المسجدِ بحجمٍ قبّتِه وإنما يتوسَّعُ فيه عرضًا كما يريدُ ويضعُ القبّةَ في الوسطِ دونَ أن يتكلَّف شمولَها للمسجدِ كلِّه، وفعلًا طبَّق "سنان" هذه الفكرةَ على هذا المسجدِ المسجدِ كلِّه، وفعلًا طبَّق "سنان" هذه الفكرة على هذا المسجدِ على المسجدِ على هذا المسجدِ على المسجدِ على على المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ على المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ على المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسجدِ المسج

ونجد القبابَ النصفيّة والقبّة المركزيَّة التي تعلو الساحة الداخليَّة المربع الشكل محمولة على أقواس حادَّة مستندة إلى حوائط ودعاماتٍ صُمِّمَتُ على شكلِ زهرة النفلِ، نلاحظُ أنَّ الساحة الداخليَّة للجامع

<sup>(</sup>٢٤٦) كان الشيخ "عبد الرحيم أفندي" الذي يقع بيته في منطقة "أسكودار" يأتى أحيانًا إلى حضرة السلطان من أجل أن يفسر له الأحلام، وفي إحدى المرات فسر له هذا الشيخ إحدى الرقى على النحو التالي: "سيلحق الضرر بجسدكم من قبل جماعة الإنكشارية، وحيث إنه لبس من الممكن أن يتم قتلهم جميعًا فعلى الأقل من الممكن أن يتم تغيير زيهم الخاص وإزالة كلمتي "اللباد" و"عمامة الإنكشارية" من الوجود، إن هناك إشارة وتنبيهًا بخصوص هذا الأمر من المالم المنبئ، بعد ذلك أمر السلطان بإعدام الشيخ قائلا: "لقد اختل عقله وأصبح كلائمه مصدرًا للفتنة".

حيث كان هذا في عام (١٦٣٧م). إن الأمر اللافت للنظر هو أن الشيخ "عبد الرحيم أفندي" قد تنبأ قبل ماتتي عام من القضاء على طائفة الإنكشارية كيف إن هذه الطائفة ستكون في المستقبل منبقا للخيانة والفساد اللذان سيهدمان الدولة العثمانية؛ (هاسكان، المصدر السابق، ص ٢٦٥).

<sup>(</sup>٢٤٧) " دُوغَانُ كُوبَانُ (Doğun Kubun) "، " مجمع مهرماه سلطان "، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، [سطنبول - ١٩٩٤م، الجزء الخامس، ص ٤٥٦.



منظر داخلي لجامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أُسكودار/إسطنبول)

COO

يغلِبُ عليها الضوءُ الخافتُ إلى أقصى درجة لعدم وجودِ عدد كافٍ من النوافذ.

\* \* \*

إن الزخرفة الأساسية التي في جامع "السلطانة مِهْرِمَاه "عبارة عن أعمالٍ فنيّة قد رُسِمت بالقلم، وقد نُجَحت هذه الزخارفُ بأن منحتِ الجامع جمالَ وروعة رسوم شرائطِ الزينةِ، ففي وسطِ قبةِ الجامع نجدُ أمامنا كتابة تأخذُ شكلَ إطارٍ حيث تبدو تلكَ الكتابة ذاتَ لونٍ أصفر -ربما تكون مكسيّة بطبقة من الذهب- على خلفية سوداء -بخطِ الثلثِ الجليّ المستدير- على نَمَطِ القرنِ السادسَ عشر (١١٨).

وفي قلبِ المساحةِ التي تقعُ بين الإطارِ المحيطِ بالقبّةِ والأقواس التي تربُطُ القبة الرئيسة بالقبابِ الجانبيّة؛ توجدُ بكلِّ ركنٍ من الأركان الأربعة لوحات كبيرة مكتوبٌ عليها أسماء "أبو بكر" و"عمر" و"عثمان" و"علي" (رضي الله عنهم أجمعين) كما نجد الزجاجَ الملَوَّنَ والأعمالَ الفنيَّة الزجاجيَّة موزَّعةً في أماكنَ متعدِّدةٍ من المبنى بحيث تُوَمِّنُ إضاءةً خاصةً للقسم الداخليّ من الجامع.

. . .

إن الخاصِّيَة التي تلاحظُ في جامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" هي البساطة المطلقة، فخارج نطاق مبنى الجامع يندرُ وجودُ أعمالِ الزينةِ والنقشِ، وأما الحوائط الحجرية المبنيّة بحجرِ (الكوفكى) -المقطع بدقة عالية وإتقانٍ محكم- فإننا لا نجدُ عليها أيَّ نوعٍ من أنواعِ الزينةِ على الإطلاق، أمّا منبرُ الجامع فيُعتبرُ واحدًا من أكثرِ النماذجِ المعبِّرةِ عن فنِ نحتِ

<sup>(</sup>٣٤٨) - إِلْخَانُ أُوزُكِجْجِي (Ilhan Özkeçecı)، نظرة على شكل الزينة في الأضرحة الموجودة بمجمع وجامع "السلطانة مِهْرِمَاة" بمنطقة (أسكودار). الندوة الدولية عن "أسكودار". إسطنبول - ٢٠٠٨ م، الجزء الثاني، ص ٢٠١ – ٢٠٠٠



منظر داخلي لجامع "السلطانة مهْرِمَاهْ" (أُسكودار/إسطنبول)

الحجرِ، حيث استطاعت الأشكالُ الرخاميّةُ الهندسيَّةُ ذاتُ الشباكِ أن تقدِّمَ لنا منظرًا بديعًا في غايةِ الروعةِ والجمالِ.

...

كذلكَ يلفِتُ انتباهنا غيابُ أحدِ أشهرِ أشكالِ الزخرفةِ في ذلك العصرِ عن جامع "السلطانة مِهْرِمَاهُ" ألا وهو استعمالُ الخزفِ، فقد بُنِيَ هذا المسجدُ في منتصفِ القرنِ السادسَ عشر وهذه هي ذاتُ الفترةِ التي كان بها فنُّ الخزفِ التركيِ في قمَّةِ تألُّقِهِ وازدهارِهِ، لذلك فإن غيابَ الأعمالِ المخزفيَّةِ تمامًا عن جامع "السلطانة مِهْرِمَاهُ" يُعتبَرُ دليلًا على الرغبةِ القويَّةِ التي كانت موجودةً عند بناءِ هذا الجامعِ في التركيزِ على البساطةِ المطلقةِ وعدم الخروج عن إطارها.

وعلى العكس من الميلِ إلى الزخرفةِ والزينةِ -والذي نجِدُه في كثيرٍ من الجوامعِ التي بنيت في تلك الفترة - فإن ما نلاحظُهُ هو خلوُ كافَة أرجاءِ جامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" من أيِّ شكلٍ من أشكالِ هذه الزخرفة، وقد كانت هذه البساطةُ هي ما أعطى الساحة الداخليَّة لهذا الجامعِ طابعًا خاصًا، لكنَّنا على الرغمِ من هذا البعدِ عن الزخرفةِ الذي نجدُه في جامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" فإنّنا نجدُ أنّ الأعمالَ الفنيَّة الزجاجيَّة الملوّنة الموجودة بالأجزاءِ الأماميّة السفليّة لنوافذِ الطابقِ العلويِ لهذا الجامع تُعْتَبرُ من الأعمالِ والنماذِجِ الفريدةِ التي بقيت لنا من تراثِ القرن السادس عشر.

حيث إن هذه الزخارف التي رُسمت على النمط "الروميلي (rumili)" والنمط "خطائيلي (hatâîli)" (rumili) والنمط "خطائيلي

<sup>(</sup>٣٤٩) نمط شاتع في الزخرفة يعتمد على أشكال الحيوانات والنباتات.

<sup>·</sup> ٣٥٠) نمط من الزينة يظهر في صورة خطوط متقاطعة على سيقان الزهور المتنوعة.

على تلك الأعمالِ الزجاجيّة سواء أكانت شفافةً أو خضراء أو حمراء أو حمراء أو صفراء أو حمراء أو صفراء أو صفراء أو ضفراء أو يضاء فإنها تمثِّلُ لنا صورةً لشخصيّةٍ فنيّةٍ مميّزةٍ وتعبّر لنا كذلك في نفسِ الوقت عن العصرِ العثمانيّ الكلاسيكي (١٥٠٠).

## بابّ منقطعُ النظيرِ في الزخرفة

إننا في القرنِ السادسَ عشر وما سبقَهُ لا نجدُ في الفنِ العثمانيِ أعمالًا فنَيّة خشبيّة على أبواب الجوامع الرئيسة لكننا نجد ذلك النوع من الزخرفة كان شائعًا جدًّا على أجنحةِ النوافذِ في نفسِ ذلك القرنِ حيث كان يُصنَعُ هذا النوعُ في صورةِ أعمالٍ هندسيّةٍ نجميّةٍ مزخرفةٍ على نمطِ الفنّ "الكُونْدَكَارِي (kāndekāri) "(٢٥٠) ومع ذلك فإنك ترى في جامع "السلطانة مِهْرِمَاهُ" نموذجًا منقطعَ النظيرِ من أعمالِ الزخرفةِ الخشبيَّةِ على الباب الرئيس للجامع، حيث تمثِّلُ لنا هذه الزخارفُ النموذجَ الأوحدَ للفنِّ العثمانيّ من هذا النوع وعلى هذا الشكلِ.

إن الباب الرئيس في جامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" نجده يحمِلُ ثلاث زخارفَ على الشكلِ التقليديِّ، وتعلو هذه الزخارفَ كتاباتٌ متنوِّعةٌ، أما في الأقسام الوُسطى والسفْلى من هذا البابِ فتوجدُ زخارفُ هندسيّةٌ على طريقةِ الفنّ "الكُونْدَكَارِي"، ويلاحَظُ أنَّ البعضَ من هذهِ الزخارفِ الهندسيّةِ الصغيرةِ يأخُذُ أشكالًا نجميّةٌ، أما الحليّ الهندسيّةُ الأخرى التي توجدُ على البابِ -والتي كانت غالبًا ما تُصنَعُ من المعدنِ - فنراها هنا مصنوعةً من عاجِ الفيل، وإلى جانب الأجزاءِ ذات الأصالةِ المعدنيةِ الموجودةِ على البابِ فإننا نجد أن مقبض الباب الجميل يُظْهِرُ بوضوحِ فنَّ "الباروك"،

<sup>(</sup>٢٥١) يِلْدِيزْ دَمِيزْإِيزْ (Yilda: Demuris)، جامع "السلطانة مِهْرِهَاة" في أسكودار، دار نشر " صنعت دنياماظ (Sanat Dünyums: "، إسطنبول، ١٩٨٥م، الجزء الرابع، العدد ٢٠، ص ٢٠.

<sup>(</sup>٢٥٢) أحد الفنون الجميلة التي تختص بالمشغولات الخشبيّة حيث يتمّ تعشيق قطع خشبيّةٍ صغيرةٍ ودقيقةٍ مصنوعةٍ من أخشاب أشجارٍ صلبةٍ ونفيسةٍ ومقاومةٍ للرطوية والحرارة مثمّا يجعلها تعطي في النهاية تصميمًا هندسيًا.

كما نجدُ في الأقسامِ العليا والسفلى من القوائمِ الخشبيةِ للباب زخرفة خشبية مختلفة مطعَمة على النمطِ الروميلي، حيث يعتبرُ هذا الشكلُ من الزينةِ والزخرفة من الأنماطِ التي لا نصادِفُها كثيرًا في أعمالِ الزينةِ التي تعودُ إلى القرنِ السادسَ عشر، وهكذا نرى أن هذا البابَ البديعَ الخاصَّ بجامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" يُعتبَرُ أثرًا فنيًّا عظيمًا يتميّزُ عن غيره من الأبواب التي تعودُ إلى ذلك العصرِ بما فيهِ من فنِّ وإبداعٍ يجعله لافتًا للنظر. """

بالإضافة إلى ما سبق فإنَّ هناكَ ملحوظة أخرى تثيرُ الاهتمام فيما يتعلَّقُ بموضوع الزينةِ، فعند المدخَلِ الذي يُفْضِي إلى مكانِ الصُّفة نجدُ على باب المنارةِ الواقع إلى اليسارِ كتابة مزخرفة بخطٍ كبيرٍ بارزٍ مكتوبٌ بها "لا إله إلا الله"، حيثُ لا تنزال تمثل هذه الكتابة إلى اليوم عملًا فتيًا منقطع النظيرِ من ناحيةِ فنِّ التطعيمِ والزخرفةِ، كما نجد أنه قد وُضِعَ بمنتهى البراعة أحجارٌ متنوعةٌ ومختلفةٌ حمراءُ وملوّنةٌ في الفراغات التي حول الكلماتِ وبين الحروف(١٠٠٠).

وباختصارٍ فإنَّ جامعَ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" يُعتبرُ من الآثارِ القيِّمة التي تركتُ طابَعَها على منطقة "أسكودار" وذلك بفضلِ بساطتِها وروعتِها وجلالِها الذي يليق ببنت السلطان.

# ضريحانِ بلا تاريخِ أو كتابةٍ عليهما

بالإضافة إلى المبنى الخاصِ بجامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" نجدُ أنَّ هناك أيضًا ضريحانِ إلى جانبِ ما تبقَّى لنا من آثارٍ، أحدُ هذين الضريحين

<sup>(</sup>٢٥٣) فبيز إيز، المصدر السابق، ص ٢١.

<sup>(</sup>٣٥٤) " دُوغَانُ كُوبَانُ (Doğun Kuhan) "، " مجمع مهرماه سلطان "، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - ١٩٩٤م، الجزء الخامس، ص ١٤٥٧ قُرنُيالي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢١٦.

-والذي يقع في مواجهة البحر- يُعرَفُ بأنّه ضريحُ "سنان الدين يوسف باشا"، وبناءً على ما يذكرهُ المورِّخُ الفنيّ المرحوم "إسماعيل حقي قونيالي" فإنّ هذا الضريحَ قد دُفِن فيه أربعةُ أشخاص، بنتٌ واحدةٌ وثلاثةُ رجال، ومن بين أولئك الرجالِ الثلاثة ابني السلطانةِ "مهرماه" من زوجها "رستم باشا" لكننا مع الأسفِ لا نصادفُ أيَّ تاريخٍ أو كتابةٍ تؤكِّد لنا هذه المعلومات لا على باب الضريح ولا على النعوشِ. ("")

أما الضريح الثاني والموجود في فِناء الجامع فهو ضريح الصدرِ الأعظم "إبراهيم أدهم صاكيزلي باشا"، وعلى باب هذا الضريح توجدُ الآيةُ الكريمةُ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وقد كتبت بزخرفةٍ بديعةٍ على طراز (جلي) مع تاريخ (١٣١هـ/١٨٩٢م)(٢٠١٠.

وفي هذا الضريح نجد قبر "إبراهيم أدهم باشا" وابنه "غالب بك" إلى جانب ثلاثةِ أشخاصِ من نفسِ العائلةِ.

. . .

وفي الزاوية الشمالية الغربية من جامع "السلطانة مِهْرِمَاه" وإلى اليمين من مكان الصُّفّة نجدُ نعشًا يعتبرُ هو الآخر واحدًا من أكثرِ الأعمالِ الفنّية المبهرةِ فيما يتعلَّقُ بالزخرفةِ الخشبيّةِ على القبرِ، وفي الجهةِ الجنوبيّةِ من هذا النعشِ المُحاطِ بالسورِ المقضّبِ توجدُ كتابةٌ بخطٍ كبيرٍ وواضح على شكلِ خنجرٍ يقفُ في وضعيّةٍ مائلة بين حِلْيَتَينِ مزخرفتَينِ"إن هذا القبرَ يعودُ إلى "عثمان بك" ابن "رستم باشا" من زوجةٍ أخرى غير "السلطانة مِهْرِمَاه" والذي توفي عام (١٥٧٦م)"(٢٥٧٠).

<sup>(</sup>٢٥٥) أُوزُكُجُجِي، المصدر السابق، ص ١٠٦.

<sup>(</sup>٢٥٦) - أُوزُكَجُمِي، المصدر السابق، ص ١٠٦.

<sup>(</sup>٢٥٧) - أُوزُكْجُمِي، المصدر السابق، ص ١٠٧.

# خمسُ قِطَعِ من النقودِ الفضّيَّةِ للطالبِ المجتهد

إلى الشمالِ من جامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" تقعُ مدرسةٌ ذاتُ ستَ عشرة غرفة، وفي كتاب "تذكرة الأنبياء" يُذكرُ أنَّ هذه المدرسةَ قد بناها المعماريّ "سِنَان"، وإذا كان من غير الممكن تحديدُ التاريخِ الذي أُنْشِئتْ فيه هذه المدرسةُ بِدِقَة فإن ذلك يرجِعُ إلى عدم وجودِ كتابةٍ على المدرسةِ، إلا أنَّ الشكلَ العامَّ للمبنى وخصائصَ تخطيطِهِ الهندسيّ -التي تشبه كثيرًا مدرسة "خَاصَكِي" - تُظْهِرُ لنا أنّ المدرسةَ والجامعَ اللذين يعودان إلى "السلطانة مِهْرِمَاهُ" قد تمَّ إنشاؤُهُمَا في وقتٍ واحدٍ وعلى التوالي فيما بين عامين (٠٤٥ - ١٥٤ م)، إن هذه المدرسةَ -التي توجدُ على ارتفاعٍ يبلغُ عامَيْ (٠٤٤) متر بالنسبة لمستوى سطحِ المنطقةِ الموجودِ بها "ميدان ميناءِ أسكودار" ولها أبعادٌ تقاربُ (٣٠ × ٣٠) متر - تتميّزُ ببناءِ هندسيّ متجانسٍ ممتذُ بشكلِ دقيقِ للغايةِ على المحورِ الشرقي الغربي (٢٠٠٠.

إن البابَ العاليَ والعظيم لهذه المدرسةِ -والذي ينفتخ على فِناءِ الجامع- لا نجدُ عليه أيَّ كتابةٍ، أما قناطرُ وأقواسُ هذه المدرسةِ فقد صُنِعَت من الرخامِ الأحمرِ والأبيضِ، وعند العبور من الباب الرئيس لمدرسة "السلطانة مِهْرِمَاهُ" نجد فِناءً على شكلِ مستطيلٍ تَتَوَسَّطه ميضاةً من الرخام، وفي مواجهةِ هذا الباب توجدُ قاعةُ التدريس، وهذه المدرسة التي بنتها "السلطانة مِهْرِمَاهُ" -والتي تُعْرَفُ باسمِ "المدرسةِ الرصاصيَّةِ" بسبب وجود تسع عشرةَ قبّةٍ بها، مغطاةٍ كلّها بالرصاص- تتميّز كذلك بأنُ بالأحجارِ المستخدمةِ في بنائها من حجرِ (الكُوفَكِي)(10%.

- -

<sup>(</sup>٢٥٨) گُورَانْ، المصدر السابق، ص ٤٨.

<sup>(</sup>٢٥٩) خَصْكَانُ، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ١٣٤١.

لقد كان هناك نظامًا بالمدرسة يقضي -باستثناء الظروف ذات العذر الشرعيّ - بأن يحصل المدرِّسُ الذي لا يخل بواجبات وظيفته على خمسين قطعة نقود فضّية، كذلك فقد كان يتم صرف مبلغ خمس قِطَع فضّية لأكثر الطلاب اجتهادًا بين زملائهم، كما كان يتم منح قطعتين من النقود الفضّية إلى كلِّ طالب من الطلاب الأربعة عشر الذين يواظبون على الدراسة في المدرسة ولا ينقطعون عنها إلا لعذر، وفي أوقات تناوُلِ الطعام كان الطلاب ينزلون من سلالم باب المدرسة حيث يتجهون إلى مكان تقديم الطعام، لتناول الشوربة هناك، وقد اندثرَ هذا المكانُ ولم يبق منه شيءٌ في عصرنا الآن الآن الله الآن عصرنا الآن القرام.

لقد تحوّلت هذه المدرسة من مركز للعلم والخير إلى مأوّى للمُدمِنين، وذلك بعد الإهمالِ الشديدِ الذي تعرّضَتْ له إشر تطبيقِ القانونِ القاضي بإغلاقِ الأضرحةِ والتكايا والمدارِسِ الدينيّةِ، حتى إن قِبابَها بدأت تنهارُ مع مرورِ الوقت، وحتى إن الدارَ التي كان يتمّ فيها تقديمُ الطعامِ مجّانًا والتي كان يتمّ فيها تقديمُ الطعامِ مجّانًا والتي كانيتم فيها من قِبَلِ رئيسِ حيّ والتي كانت تقعُ إلى يسارِ المدرسة - تمّ هدمُها من قِبَلِ رئيسِ حيّ أسكودار "عزت تشفّعُ إلى يسارِ المدرسة بعد أن تمّ ترميمُه ليصبِعَ تابعًا لوزارة الصحة بقرارٍ من المديريّةِ العامّةِ للأوقافِ، حيث صارَ مبنى المدرسةِ بعد أن تمّ ترميمُه ليصبِعَ تابعًا لوزارة بعدها وحدةً صحيّةً اجتماعيّةً بحي "أسكودار" لخدمةِ الأطفالِ الرضّعِ بعدها وحدةً صحيّةً اجتماعيّةً بحي "أسكودار" لخدمةِ الأطفالِ الرضّعِ وأطفال المدارس، أما فِناءُ المدرسةِ فقد تمّ تغطيتُهُ بالزجاجِ، في حينِ وأطفال المدرسِ قد تحوّلتْ إلى مكانٍ للكشفِ على المرضى، وفي عام أنّ قاعة الدرسِ قد تحوّلتْ إلى مكانٍ للكشفِ على المرضى، وفي عام (١٩٧٥م) تحوّلت المدرسة إلى مصعّةٍ لعلاج الأمراضِ النفسيّةِ، ويلاخظُ

<sup>(</sup>٢٦٠) أَضَكَانْ، المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ١٧٤٢.

على هذه المدرسةِ أنّها تعرّضَتْ لتغييراتٍ كثيرةٍ من الداخلِ لكنَّها حافظت على شكلِها ورونقِها المعماريّ من الخارج. ('''')

وإلى اليوم لا تـزال مدرسـة "السلطانة مِهْرِمَاهْ" مستمرَّة في القيام بنشاطِها في صورة مركزٍ صحّيّ يحملُ اسمَ السلطانة "مهرماه" التي أنشأته قبلَ أكثر من أربعة قرون.

#### السبيل العام الذي تم تأجيره

وعند جهةِ القبلةِ بجامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" حيث يلتقي المنحدرُ الكبير مع شارع "سبيل سلمان أغا" نجِدُ مدرسة الصِّبْيَان (أي: الكُتَّاب)، وهذه المدرسةُ -التي تُعتَبَرُ هي الأخرى من أعمال المعماريّ "سِنَان"-قد شُيِّدَتْ بالكامل من الحجرِ المُقَطِّع، إنَّ مدرسةَ الصِّبْيَان هذه التي أنشأها "سِنَان" جعلها منقسِمةً إلى قسمين متجاورينٍ، قسمٌ صيفيّ وقسمٌ شتوي وتعلوهما قبَّة، أما القسم الصيفي فيتميَّزُ بشكلِ مربّع ولا نجد أيّ كتابةٍ على بابهِ المقوَّسِ الذي ينفتِخ على فِناءٍ صغيرِ وله نافذةٌ تتألُّفُ من جـزءِ واحــدِ وتطلُّ على المنحدَرِ وتأخذُ شــكلَ صالونٍ كبيرٍ، وأمَّا القســمُ الشتويّ من مدرسةِ الصبيان فتوجدُ في الجزءِ السفليّ منه نافذتان تطلّانِ على كلا الشارعين، في حين أن الجزء العلويُّ من هذا القسم توجدُ به نافذةٌ واحدةٌ، ويلاحَظ أنَّ تلك النوافذَ الموجودةَ سواء في القسم العلويّ أو السفلي قد صنعت من الجِبْس، (٢٦٢) كما تتميّزُ النوافذُ السفليّةُ بأنها محاطة بسور ذي قضبان حديدية ذات شكلِ مكوّر، وأيضًا يتميَّزُ القسمُ

<sup>(</sup>٢٦١) قُونْيَالِي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٩٠٠

<sup>(</sup>٢٦٢) حيث كان هذا القسم مفتوحًا من جهته الأمامية فقط ويوجد في الجهة الداخلية أو الخارجية من البناء، كما كان يتميز بصفة عامة بوجود قوس أو قنطرة معمارية.

٢١٦ ----- [خُرَم ومِهْرمَاهُ]

الشتويّ من هذه المدرسة بشكلِه الخارجيّ الذي يختلفُ تمامًا عن الشكلِ الخارجيّ الخاصِّ بالقسمِ الصيفيّ الموجودِ بنفسِ المدرسةِ. (٦٣)

وإلى اليوم لا تزالُ مدرسـةُ الصبيان تلك تقومُ بنشــاطِها وإن كان في صورةِ مكتبةِ عامّةِ للأطفال.

\* \* \*

أمّا السبيل العامّ الذي أنشأتُهُ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" في نفسِ العامِ الذي تسمّ فيه بناءُ الجامعِ الذي يحمِلُ اسمَها فنجدُهُ في داخلِ الصالونِ الكبيرِ الموجودِ تحتَ القسمِ الشتويّ من مدرسةِ الصبيان، حيث يقعُ هذا السبيل في مكانِ التقاءِ الشارعين عند جهةِ القِبْلَةِ الموجودةِ بالجامعِ، لقد تعرّضَ هذا السبيل للتدميرِ على مرّ الزمانِ إلى أنْ تمّ ترميمهُ من قِبَلِ السلطان "محمود الثاني" سنة (١٩٨١م) لكنّ هذا السبيل الذي تمّ إنشاقهُ بالكاملِ من الحجرِ المقطّعِ لم يبقَ لنا منه الآنَ أيّ شيءٍ أو أثرٍ أو علامةٍ أو كتابةٍ توضِحُ لنا تاريخ إنشائهِ أو تاريخ ترميمه، وفي مكانِ الكتابةِ القديمةِ نجدُ أنه قد وُضِعَتْ بعدَ ذلك كتابةٌ جديدةٌ بعنوانِ "سبيل السيّدةِ الثالثةِ" وذلك بتاريخ عام (١٧٢٨م) المنان وقد كان للسبيل الذي أنشأتُهُ "السلطانة وذلك بتاريخ عام (١٧٢٨م) المنان وقد كان للسبيل الذي أنشأتُهُ "السلطانة ونحُثُ من حجرينِ متلاصقينِ، كما تمّ عملُ ونحُدتُ ثلاثةِ تجاويفَ أحدُها داخلَ قوسِ الصالونِ واثنانِ في الجدارينِ الجانبينِ. (١٠٠٠)

<sup>(</sup>٢٦٣) خَصْكَانْ، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٩١٨.

<sup>(</sup>٢٦٤) إن سبيل "السيدة الثالثة" والذي شيد من قبل "شرمي رابعة قادن (germi Rabia Kadhi) "الزوجة الثالثة السلطان أحمد الثالث" يقع في الزاوية التي يتلاقى فيها شارع جامع "الشيخ" بشارع "سلمان أغا بسنان" وذلك في منطقة "أسكودار"، وقد تهدم هذا السبيل بشكل كامل في عشرينيات القرن العشرين وذلك بعد أن كانت حالته قد تدهورت بغمل الزمن، وفي عام (١٩٣٥م) تم وضع الكتابة المدونة التي كانت تخص هذا السبيل والتي كانت ملقاة على الأرض على سبيل "السلطانة مِهْرِمَاة" الذي تمة تغيير مكانه فيما بعد. (أورمان، المصدر السابق، الجزء الثلاثون، ص ٤٢).

إن الصالـونَ الموجودَ به هذا السبيل التاريخيّ قد تمَّ تأجيرُهُ من قِبَلِ مديريّةِ الأوقافِ سنة (١٩٦٧م)، ومع الأسـفِ فإنَّ مكانَ هذا السبيل قد تحوَّلَ اليومَ إلى مكانٍ يُستخدَمُ كمحلٍ لبيعِ العسلِ!

وتحتَ الحائطِ الرئيسِ لمجمّعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" والذي يُطِلُ على ساحة "مِيناءِ أسكودار" نجدُ هناكَ سبيلًا آخرًا، حيث يبدو أمامَنا قوسُ هذا البناءِ الأشريّ البديعِ الذي يمثِلُهُ لنا هذا السبيل مزخرفًا بالرخامِ الأبيضِ والورديّ، كذلك يتميّزُ هذا الأثرُ بما عليهِ من كتابةٍ بديعةٍ مزيّنةٍ برسوماتٍ بارزةٍ تصوّرُ ورقَ الشجر والورودِ وأزهارِ (التوليب)، وهذه الكتابةُ التي نراها على السبيل عبارةٌ عن ثلاثةٍ أسطرٍ مكتوبةٍ بأكثرِ نماذجِ خطِّ الثلُثِ روعةً وجمالًا في ذلك العصر:

#### ما أجملَ نبعَ ماءِ الحياةِ هذا

فمن كانت قلوبُهم عطشى ليشربوا على الدوام من هذاالماءِ الجاري من هذا السبيل الذي بنتهُ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" والتي تُشبهُ الملكة "بلقيس" لقد أراد الله أنْ يجري ماءَ الحياةِ هذا على يديها في هذا التوقيت.

إن تلك الكتابة الموضوعة على هذا السبيل التاريخي والموجودة مباشرة أمام الميضأة وإن كانت تُشيرُ إلى أن السبيل قد أنشِئ عام (١٦٨ م/١٩ م)، إلا أنَّ هذا السبيل قد أُنشِئ في الحقيقة مع الجامع في نفسِ الوقتِ، حيث إنَّ هذه الكتابة قد وُضِعَتْ بعد عملية الترميم التي أجريت للسبيل عام (١٦٨١م)(٢٦٠).

<sup>(</sup>٢٦٦) على الرغم من أن "ميدان الميناء" لم يكن قد تشت توسعه في القرن السابع عشر فإن الحائط الشمالي لفناء المجامع عند بناته لم يكن يطلّ مباشرة على مضيق البسفور، أي إن رصيف الميناء كان يقمع بين الجامع والبحر، ونجد أن رواية الرحالة "أوليا شلي" عن وجود سلّم في شرق فناء الجامع يستخدم من أجل أن يوصل بالميدان تعتمد على هذا النفسير، بالإضافة إلى ذلك فإن الحاقة المزيّة التي توجد أسفل إفريز السبيل المزخرف برسم لزهرة الزئبق قد شُقت إلى نصفين بسبب الكتابة المدونة التي تم وضعها، إن هذا الأفريز الذي يعود إلى القرن السادس عشر لا نراه يحقق السجامًا شكليًا بين الملوحة المكتوبة وبين الحواف المزينة. (كوران، المصدر السابق، ص ٤٩).

## القصرُ العظيمُ المُشَيَّد على هضبةِ السلطانِ

قامتِ "السلطانة مِهْرِمَاة" بتكليفِ المعماري "سِنَان" ببناء قصرِ عظيم على الهضبةِ المطلَّةِ على مضيقِ "البوسفور" خلف المجمَّعِ الخيري، حيث احتلَّ هذا القصرُ بملحقاتِهِ مساحةً واسعةً للغايةِ، ولقد تعرَّضَ هذا القصرُ مع الوقتِ إلى التدميرِ والخرابِ لدرجةِ أنَّهُ قد صارَ في الأزمنةِ الأخيرةِ يُستخدَمُ كساحةٍ للعبِ كرةِ القدم، ولم يتبَق لنا من هذا القصرِ في السنواتِ الأخيرةِ سوى المكان الذي كانَ مخصَّصًا كمطبخ بالإضافةِ إلى المدخنةِ والحمام، حيث بإمكاننا اليوم أن نرى بقايا هذا القصرِ في المانبِ الأيمنِ من قطعةِ الأرضِ التي كانَ مقامًا عليها، وبعدَ أن أخذَ في الجانبِ الأيمنِ من قطعةِ الأرضِ التي كانَ مقامًا عليها، وبعدَ أن أخذَ هذا القصرُ العظيمُ اسمَ بنتِ السلطانِ فقدُ أصبحَ يطلق على تلك الهضبة والمنطقة كلها اسم "هضبة السلطان" ولقد كان "رستم باشا" من بعد عام والمنطقة كلها اسم "هضبة السلطان" ولقد كان "رستم باشا" من بعد عام عام (٥٥٥ م) عندما تولّى منصبَ الصدرِ الأعظمِ للمرَّةِ الثانيةِ وحتى وفاتِهِ عام (٥٥ م) يُقيمُ في هذا القصرِ الصيفيّ الذي يعودُ إلى "السلطانة مهْرِمَاهُ" ويَقبعُ فوقَ هضبةِ السلطان.

## النزلُ الكبيرُ الذي تمَّ تفجيرُه بالديناميت

في ساحةِ الميناءِ وفي مواجهةِ سلالمِ مدرسةِ "السلطانة مِهْرِمَاة" المفضية إلى الساحةِ يوجدُ نزلٌ كبيرٌ للمسافرين قام ببنائِهِ المعماريّ "سِنَان" مع الجامع، حيث نجدُ أنَّ هذا النزلَ كان يُعْرَفُ في المصادرِ التاريخيّةِ باسمِ "الخان الرصاصِيّ"، أما لدى الشعب فقد كانَ هذا النزلُ يسمَّى باسم (خان الفاتح)، وقد تميَّزَ بناءُ هذا النزلِ بالشكلِ الرباعيّ كما نَجِدُ أنه قد شيّدَ كذلكَ من الحجرِ المقطَّع المتساوي.

وفي كتابه الشهير "سياحت نامه (Seyahatnāme)" يذكر لنا الرحّالة "أوليا شلبي" أنَّ منطقة "أسكودار" كان بها أحد عشر نزلًا للمسافرين أمّا أحدُها فيقعُ على ساحلِ البحرِ الذي يُطِلّ عليه الجامعُ الواقعُ على رأسِ الميناءِ، حيث يشبِهُ هذا النزلُ الكبيرُ القلعة المتينة، فيتَّسِعُ لإيواء المسافرين مع جيادهم كما يضمُّ كذلك مائة موقدٍ ومائة طاولةٍ، وهذا النزلُ عبارةٌ عن مسكنٍ مغطى بالكامل بالرصاصِ وهو مفتوحٌ للقادمينَ والعابرينَ ليقدِّمَ لهم المأوى دونَ مقابلِ (٢١٧).

ويُعتَقَدُ أن هذا النزلَ الكبيرَ قد أُعيدَ تخطيطُهُ من جديدٍ في عهدِ السلطان "سليم الثالث" ليستخدَمَ كمخزنِ للقمحِ، وفي حين كان يبدو لنا هذا النزلُ -في الصورِ الفوتوغرافيّة التي تعودُ إلى النصفِ الثاني من القرنِ الثامنِ عشر- بنافذةٍ تطلُّ على الهضبةِ وسطحٍ ماثِلٍ مزدوجٍ، فإننا نجدُهُ قد تحوّل في عشرينيَّاتِ القرنِ العشرين إلى خرابٍ، أمّا ما تبقَّى من مبنى هذا النزلِ فقد تمَّ تدميرُه على يدِ "عزّ الدين تشغبار" الذي كان يعملُ كرئيسٍ لحيّ "أسكودار" عام (١٩٣٠م).

## دارُ إعدادِ الطعامِ التي هُدِمَتْ بحجَّةِ شق الطريقِ

من بينِ مبانِ مجمع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" يوجد أيضًا مبنى تمّ تكليف المعماري "سِنَان" بإنشائه وهو المبنى الذي يضمّ دار السلطانة مِهْرِمَاهُ المعماري "سِنَان" بإنشائه وهو المبنى الذي يضمّ دار السلطانة مِهْرِمَاهُ الإطعام الفقراء وغرفة إعداد الطعام (بالتركية: "طَبْخَانَه (Tabhane)")(٢١٨) وعلى الرغم من أن هذا الأثر الذي لم يتبقّ لنا منه شيء إلى الآن لا يمكن كذلك تحديد مكانه بشكلٍ دقيقٍ، إلا أنه يُعتقَدُ أن مكانَه كان في الزاوية

<sup>(</sup>٢٦٧) خَضْكَانْ، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٩٧٩.

<sup>(</sup>٢٦٨) كلمة "طُبِّ (٢٤٥)" تعنى بالفارسية الحركة والقدرة، أما كلمة "طبخانه" فهي تشير إلى مشافى العصر القديم. وخلال العصر العثماني كان يوجد في إسطنيول وحدها حوالى عشرين " طبخانه " أنشنت تقريبًا إلى جانب كل جامع كبير بحيث كانت هذه المؤتسة توفّر الملجأ والحماية للمحرومين.

اليمنى من البقعة التي يلتقى عندها شارع "المدرسة الرصاصية" بشارع "ميناء الباشا"، وبناءً على الرسم الهندسي للمبنى فقد كان يوجد سبيلً في الطرف الأيمن لباب المدخل، وقبل هذا الباب كان يوجد مدخل إلى مكان تناولِ الطعام وهو مغطّى بقبّة كبيرة، أما الجانب الأيمن من المبنى فقد كان ينقسم إلى قسمين، أحدهما فيه المطبخ، والقسم الآخر فيه فرنٌ من أجلِ إعدادِ أحدِ أنواعِ الخبزِ المسمَّاةِ "فودلا (Fodla)"(١٦١٠)، ولقد كان هذا القسمُ من المجمّع الخبريّ مغطّى بقبتينِ صغيرتين بكلّ معلني بالسقفِ، وإلى الخلفِ من دارِ إطعامِ المحتاجينَ منهما مصباحٌ معلّق بالسقفِ، وإلى الخلفِ من دارِ إطعامِ المحتاجينَ وعلى الشارع كانتْ تقعُ مخازنُ للذخيرة تتكوّنُ من ثلاثةِ أقسام. (٢٧٠)

وقد خصَّصَ "السلطانُ القانونيُّ" و"السلطانة مِهْرِمَاهُ" العائداتِ القادمةَ من بعضِ القرى الموجودةِ في الجانبِ الأوروبيِّ والتي تعودُ ملكيتُها إليهِ لتكونَ أموالُها مخصّصَةً من أجلِ الإنفاق على هذه الدارِ المخصَّصَةِ لإطعام المحتاجين.

ويقولُ لنا الرحالةُ "أوليا شلبي" في كتابِه الشهيرِ "سياحت نامه" وهو يحدِّثُنا عن دورِ إطعامِ المحتاجين الموجودةِ في منطقةِ "أسكودار" موضِّحًا أن هذه الدور تبدأُ بدارِ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" لإطعام المحتاجين والتي يحكي لنا عنها ما يلى:

"في دارِ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" لإطعامِ المحتاجين والتي توجَدُ عند مقدمةِ الميناءِ كان يُقدَّمُ الطعامُ لكلِّ شخصٍ مرَّتَين كلَّ يومٍ، وفي كلِّ مرَّةٍ كانت تقدَّمُ للفردِ صينيَّةُ نحاسيَةٌ فيها شوربةُ القمحِ وخبرٌ مع شمعةٍ لكلِّ ليلةٍ، كما كان يُقدَّمُ لكلِّ جوادٍ علفٌ كصدقةٍ

<sup>(</sup>٢٦٩) - نوع من الخبز يصنع من الدقيق فى النخالة، وكان هذا الخبز يأخذ شكل فطيرةٍ مقلطحةٍ وكان يُقدّم في الدور القديمة المخضصة لإطعام المحتاجين حيث كان يُقدّم بها هذا الخبز للطلبة والموظفين والفقراه.

<sup>(</sup>٢٧٠) خَصْكَانْ، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٩٨٦.

بـلا مقابـل، وإذا ما بقي الضيفُ لأكثرَ من ثلاثة أيـامٍ فلا يقدُّمُ له شيءٌ، حيث كانَ هذا هو شرطُ الوقفِ."(٢٧١)

وهذا يعني أنَّهُ لا يجوزُ للفردِ أن يظلَّ أكثرَ من ثلاثة أيَّام في دارِ إطعامِ المحتاجين، فالمرُّءُ لا يمكنُ أن يُعتَبَرَ ضيفًا لأكثرَ من ثلاثة أيام.

...

وفي يوم العشرين من تشرين الأول/أكتوبر من عام (١٧٢٢م) اندلعت النيرانُ من أحدِ الدكاكينِ المجاوِرةِ لجامع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في "أسكودار"، ولم تقتصرِ النيرانُ على المنازلِ والحوانيتِ التي كانت بجوارِ الجامِعِ بل امتدّتْ أيضًا إلى دارِ إعدادِ الطعامِ التي أُنشِئتْ من قِبَلِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ"، (٢٧٦) كذلكَ فقد امتدّتْ النيرانُ إلى السوقِ وإلى ورشةٍ لتصنيع الأحذيةِ بالإضافةِ إلى حمّامٍ صغيرٍ حيث احترقت كلُّ هذه الأماكن نتيجةً لهذا الحريقِ. (٢٧٢)

وقد شُيدت أبنية جديدة على أرضِ دارِ إطعامِ المحتاجين التي صارت خرابًا، ومن المحتملِ أنَّ الأنقاض التي هُدمت عام (١٩٣٦م) أثناء توسعة الطريقِ، (٢٧١٠ والتي ربَّما كانت تشكّل مبنى دار إطعامِ الفقراءِ بالنظرِ إلى رسمِها الهندسيِّ – ربّما كانتُ هي – مطبخ دارِ الإطعام بالوقف الذي أنشأته "السلطانة مِهْرمَاة". (٢٧٥)

أمّا الحمّام المزدوجُ الذي أنشاتُهُ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" فلم يتسنَّ لأحدٍ أن يتأكّد من ارتباطِهِ بالوقفِ بشكلٍ واضحٍ، ولكنَّه يُذْكَرُ في بعضِ المصادرِ

<sup>(</sup>٢٧١) - قُونْيَالِي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٤٥.

<sup>(</sup>٢٧٢) كان هذا الجزء من السوق مخضصًا لبائعي الأحلية والنعال.

٣٧٣) - مصطفى جَزَارْ، الكوارث الطبيعية والحرائق التي دمرت العباني في مدينة إسطنبول في العصر العثماني، حوث ودراسات تاريخية عن الفن التركي العبزء الأول، إسطنبول – ١٩٦٣م، ص ٣٥٠.

<sup>(</sup>٢٧٤) كُونْيَالَى، يذكر أن بقايا المبنى مع بقايا خان القوافل قد هدمت عام (١٩٣٠م).

<sup>(</sup>٣٧٥) أورْمَانْ، المصدر السابق، الجزء الثلاثون، ص ٤١.

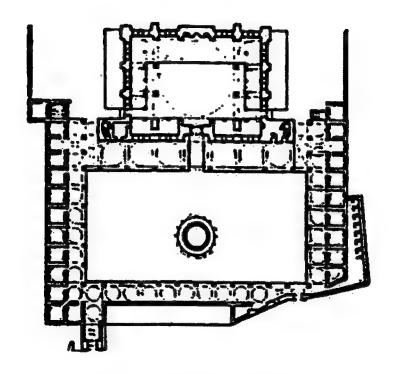
التاريخيّةِ ويوصَفُ بأنَّهُ كان حمَّامًا صغيرًا، وهذا الحمامُ قد تمَّ هدمُهُ عام (١٩٩٤م) وأقيمَ مكانُهُ مبنى يُستخدَمُ اليوم كدكّان ولم تعدْ تربُطُهُ -باستثناءِ شكلهِ الخارجيّ- أيّ علاقةٍ بأصلِ المكان. (٢٧١)

علاوةً على ذلك نجدُ أن الأبنية الخشبيّة التي كانت أوّلًا في إحدى نواحي الفِناء المطلّةِ على شارعِ "سلمان آغا" قد احترقت في عصر السلطانِ "عبد المجيد" (١٨٣٩-١٨٦١م)، أما مبنى الساعة (تعيين الوقت) فقد أُمِرَ بإزالتِهِ عام (١٩٥٦م) بدعوى إعادةٍ تخطيطِ المكان!

# مجمّع "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في "أَدِرْنَه قَابِي"

بعد فترة تتراوحُ ما بينَ العشرةِ والعشرينَ عامًا من بناءِ المجمّعِ الخيريّ الذي أمرت "السلطانة مِهْرِمَاه" بإنشائهِ في منطقة "أسكودار" قامت "السلطانة مِهْرِمَاه" كذلك بتكليفِ المعماريّ والفنانِ الشهيرِ "سِنَان" بإنشاءِ مجمّعِ آخرَ يحمِل أيضًا اسمَها، حيث نجدُ أنَّ هذا المجمّع الثاني قد شُيِد في "أَدِرْنَه قَابِي" في الجهةِ الداخليّةِ لأسوارِ (تيودوسيوس الثاني) وذلكَ بالقربِ تمامًا من بابِ القلعةِ المعروفةِ باسم "باب أديرنة"، وبالإضافة إلى الجامعِ الذي يتضمّنُهُ هذا المجمّعُ الخيريُّ والذي استمرُ بناؤه ثلاث المجامعِ الذي يتضمّنُهُ هذا المجمّعُ الخيريُّ والذي استمرُ بناؤه ثلاث سنواتٍ فقد كانَ يوجدُ كذلك ضمنَ ذلك المجمّعِ الخيريّ مدرسةٌ دينيّة وحمّامٌ مزدوجٌ ومدرسةٌ للصبيانِ وسوقٌ تضمُ عددًا كبيرًا من الحوانيتِ، هذا إلى جوارِ ضريح وسبيلِ عامً.

وكما يُفْهَمُ من الأمرِ المُرْسَلِ إلى قاضي إسطنبول "برفيز أفندي" فإنّ المسؤولَ عن الأوقافِ الصدرَ الأعظمَ السابقَ "قره أحمد باشا" كانَ قد أخذَ في إعدادِ وتجهيزِ ما يلزمُ من أجلِ بناءِ جامعٍ بالقربِ من "أَدِرْنَه (٢٧٦) أوزنان المصدر السابق الجزء الثلاثون ص ١١.



مخطط جامع ومدرسة "أُدِرْنُه قَابِي" (إسطنبول)



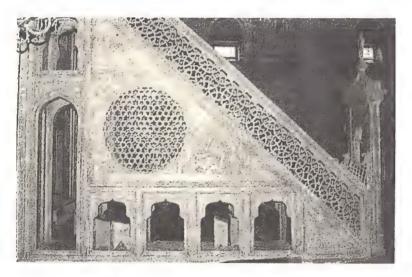
قَابِي"، إلا أنّه لم يتمَّ السماحُ ببناءِ هذا الجامِعِ لأنّه كان قد تقرّرَ في نفسِ هذا المكانِ أن يتمَّ إنشاءُ جامعٍ آخر يحمِلُ اسمَ ابنةِ السلطان، وقد تمَّ الانتهاءُ في عام (١٥٦٦م) من بناءِ هذا الجامعِ الذي ابتدأ إنشاؤه عام (١٥٥٣م)، أما لائحةُ البنودِ التي بمقتضاها يتمُّ العملُ في هذا الوقفِ فقد نُظِّمَتْ وتمَّ إقرارُها بين عامي (١٥٧٠-١٥٧١م). (٢٧٧)

...

إِنَّ جامــعَ "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" الموجودَ في "أَدِرْنَـه قَابِي" يحتلُّ مكانةً خاصّةً في فنِّ المعماريّ "سِنَان"، فتصميمُ البناءِ الخاصِّ بهذا الجامع يمثِّلُ مع "السليميّة" -بـل ربَّما حتى يمثِّلُ أكثرَ من السليميّة- العبقريّةَ الفريدةَ الموجودةَ في تصاميم المعماري "سِنَان"، إنَّ الفنَّانَ الكبيرَ "سِنَان" قد تمكَّنَ من رفع القبَّةِ الكبيَرةِ التي يبلغُ قطرُها عشرين مترًا والتي تستنِدُ إلى نظام مربّع حَاملِ للبناءِ بحيثُ جعلَهَا محمولةً على كلِّ المبنى وليسَ فقطُ على طَارَةٍ معدنيَّةٍ أو خشبيَّةٍ بل جاءَ رفعُها بالاشتراكِ مع كلِّ نظام القوسِ المعماريِّ الحاملِ للبناءِ، لقد استطاعٌ "سِنَان" أن يجعلُ بناءَ المجامعُ يبدو سواءً من الداخلِ أو من الخارج وكأنَّهُ على شكلِ قفص معماريّ في غايةِ الروعةِ، كذلك فقد نجحَ "سِـنَان" في الوقتِ نفسِـهِ في أن يخلُقَ من القبّةِ -التي تأخذُ شكلًا شبيهًا بالمربّع ومن داخلِ مجموعةِ الأقواس-صورةً تبدو وكأنَّها سـتارةً مضيئةً، حيثُ اسـتخدمُ "سِـنَان" في ذلك عددًا كبيرًا للغايةِ من النوافذِ، وهكذا فإنَّ ما أنجزَهُ المعماريُّ "سِنَان" وما أحدثُهُ من تأثير -بواسطة هذا القفص المعماريّ الذي يجسِّدُهُ أمامنا هذا المبنى المصنوع من الحجر والقرميدِ والمغطَّى بقبَّةٍ- يُعتبَرُ قمَّةً ما يمكنُ الوصولُ إليه وغايَّةً ما يمكنُ إبداعُه في فنِّ العمارة. (٢٧٨)

<sup>(</sup>٧٧٧) - تستاوي أيِجه (Semart Eyice)، " مجمع وجامع أَدْزَنَه قَابِي (Edirnekaps) "، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٤م، الجزء العاشر، ص ٤٤٦.

<sup>(</sup>٢٧٨) كُوبَانْ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٤٥٤.



منبر جامع "أُدِرْنَه قَابِي" (إسطنبول)



جامع ومدرسة "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أَدِرْنَه قَابِي/إسطنبول)

٢٢٦ ----- [خُرَم ومِهْرمَاهُ]

### جامعٌ مضيئٌ وواسعٌ

يمكن الدخول إلى فناء جامع "السلطانة مِهْرِمَاهُ" الواقع في منطقة "أُدِرْنَه قَابِي" من خلالِ السلّم الموجودِ أسفل البناءِ العالي الذي يقعُ إلى جوارِ غُرَفِ المدرسةِ الدينيّةِ بسببِ كونِهِ مرتفعًا عن مستوى الشارعِ، وهذا الفِناءُ الذي يُشبِهُ فناءَ جامعِ "صوكوللو محمد باشا" الواقعُ في منطقةِ "كديرجا" نجدُهُ محاطًا من ثلاثِ جوانبَ بالأروقةِ، أما الطرقُ القادمةُ من الأبوابِ الموجودةِ في الزوايا الثلاثِ الأخرى من الفِناءِ فنجدُها تلتقي عند الميضأةِ الموجودةِ في الوسط، حيث تقعُ هذه الميضأة في وسطِ الفِناءِ ولها حوضٌ واسعٌ وجميلٌ من الرخامِ وقد غطّاهُ سقفٌ رخاميٌ مستندٌ إلى ستة عشرَ عمود رخاميٌ مستندٌ إلى

إن مكانَ الصُّفَةِ بجامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" ينقسمُ إلى سبعةِ أقسامِ نجدُها مغطاةً بقبّةٍ، أمّا أقواسُ الأروقةِ فتستندُ إلى أعمدةٍ، حيث نلاحِظُ أنَّ اثنينِ من هذه الأعمدةِ مصنوعٌ من الجرانيت أمّا بقيّة الأعمدةِ فمنَ الرخامِ.

\* \* \*

تتميّزُ شرفةُ المئذنةِ الوحيدةُ بجامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" الموجودِ في منطقةِ "أَدرنه قابي" بأنَّها قد بُنِيَتْ من الحَجَرِ المُقَطَّعِ،(٢٨٠) كما نجدُ أنَّ مئذنةَ الجامِعِ تأخُذُ شكلَ مخروطٍ مصنوعٍ من الرصاص، وكما يلاحَظُ

<sup>(</sup>٣٧٩) أَزْدُمْ يُوجُلُ (Erdem Yücel)، " جامع أَيْرُنُه قَابِي "، موسوعة إسطنبول، إسطنبول - ١٩٦٨م، الجزء التاسع، ص ٤٩٢٦.

<sup>(</sup>٢٨٠) كانت الجوامع التي تؤسسها والدات وأبناء السلاطين في العصر الكلاسيكي ذات منارتين، لكن جامع "السلطانة مفهرماة" الموجود في منطقة "أوزنَه قابي " شلّ عن هذه القاعدة، وإذا كان المعماري "سِنَان" قد أراد أن يضع جائبًا القواعد المتعارف عليها عند بناء جوامع السلاطين -وذلك من خلال الاكتفاء بمنارةٍ مرتفعةٍ للغاية مع قبّةٍ ضخعةٍ ذات خطوط جانبيةٍ رائمةٍ وفريدةٍ في طرازها- فإنه بالتأكيد قد أراد أن يبعث لنا برسالة يفهم منها روعة ما يشير إليه. (كوبان، المصدر السابق، المجلد الخامس، ص ٥٥٠).

بوضوح في القسم البارز من قاعدة المئذنة فإنها رُققت لاحقًا بعدَ أن كانتُ سميكةً في أوَّلِ الأمرِ، وعلى حينِ كان من اللازم إعادةُ إنشائها بشكلٍ يتّفِقُ مع المقياسِ الأساسيِ لها بعدَ انهيارِها في زلزالِ عام (١٨٩٤م) إلا أنها بُنيَتْ دقيقَةً أيضًا مثلَ مآذنِ القرنِ التاسعَ عشر، أما البراويزُ التي في أسفل الشرفةِ فقد زُخرفتْ في نمطِ القرنِ السادسَ عشر "١٨٠٠).

...

وتأخذُ الساحةُ الداخليّةُ لجامعِ "السلطانة مِهْرِمَاة" الموجودِ في منطقةِ "أدرنه قابي" شكلًا مستطيلًا، وبها محفلٌ للسلطانِ وزخارفُ يدويّةٌ كما تتميّزُ تلك الساحةُ الداخليّةُ بمنظرٍ واسعٍ ومضيء نظرًا لوجودِ ماثتين وأربع نوافذَ إضاءةٍ -جبسيّةٍ وعاديّةٍ - أمّا محرابُ الجامعِ المصنوعُ من الرخامِ الأبيضِ فتوجدُ عليه كتاباتٌ وتزيّنُهُ نجمةٌ ذهبيّةٌ ومسنّناتٌ رخاميّةٌ سلّميّةُ الشكلِ إلى جانبِ ثمانيةٍ صفوفٍ من الرخام على شكلِ الجليد المتدلّي من السقف، كذلك نجدُ أنَّ منبرَ الجامعِ قد صُنعَ هو الآخرُ من الرخامِ الأبيض، وأمّا أسوارُ الجامعِ فتأخذُ شكلَ شبكةٍ تتوسَّطُها عقدةٌ الرخامِ الأبيض، وأمّا أسوارُ الجامعِ فتأخذُ شكلَ شبكةٍ تتوسَّطُها عقدةٌ مزيّنةٌ برسوماتٍ هندسيّةٍ ونجميّةٍ، وأما قمّةُ المِنْبَرِ فذاتُ رأسٍ شبيهٍ بقطعةِ البقلاوةِ وتستند إلى أربعةِ أعمدةٍ من الرخامِ الملوّنِ بالأخضرِ والأبيضِ، نجدُ كذلكَ أنَّ الكرسيّ الخشبيّ في الجامعِ مزخرفٌ بأشكالٍ هندسيّةٍ ومزيّنٌ بزخارفَ مطعّمةٍ بالصّدَفِ. (١٨٠)

# ترميمُ الجامعِ بدأً في عهدِ "مَنْدَرَس"(٢٨٣)

في كتابٍ "تاريخ رشيد" يذكرُ أنَّ قبابَ جامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ"

<sup>(</sup>٢٨١) - أَبِجُه، المصدر السابق، الجزء العاشر، ص ٤٤٧.

<sup>(</sup>٢٨٢) لجنة، جوامع " فاتح " والأثار التاريخية الأخرى، إسطنبول – ١٩٩١م، ص ١٦٦.

<sup>(</sup>۲۸۲) - هو عدنان مندرس (بالتركية: Adman Memderes) (۱۸۹۹م- ۱۷ سبتمبر ۱۹۹۱م) كان رئيسًا للوزراء بين عامي (۱۹۵۰ و ۱۹۹۰م). أعدمه العسكريون شنقًا بعد انقلاب سنة (۱۹۹۰م) مع اثنين من أعضاء مجلس وزرائه. (المترجم)

قد انهارت في الزلزالِ الكبيرِ الذي وقع عام (١٧١٩م)، كما انهارت كذلك قبابُ المدرسةِ الدينيةِ، أما "إحتفالجي (İhtifalci) ضيا باشا" فيذكر أنّ قسمًا كبيرًا من الجامع والمدرسةِ الدينيةِ والضريحِ ومدرسةِ الصبيان قد تهدَّم مرَّة أخرى في زلزالِ عام (١٨٩٤م) وتهدَّمت وتساقطت نصفُ المنارةِ أيضًا، ومع سقوط هذه الأجزاء المنهارةِ على القباب التي تعلو مكان الصُّفة بالجامع فقد تسبَّبَ ذلك السقوطُ في انهيارِ قسمٍ من هذه القباب إلى جانبِ تصدُّع قسم آخرَ من الجامع (١٨٩٠م).

يقول "قونيالي" أنه قد تمّ البدء في ترميم الجامع عام (١٩٠٧م) وتمّ تخصيصُ مبلغ عشرين ألف ليرة ذهبيّة مبدئيًا، ولكن مع إعلانِ المشروطيّة (٢٠٠٠ فقد أُغلِنَ عن توقُّفِ عمليّة الترميم حيثُ وصلَ الأمرُ بعد ذلكَ إلى أنَّ المدرسةَ الدينيّة والحمام والضريح ومدرسةَ الصبيان قد تحوَّلتُ في الأربعينيّاتِ من القرنِ العشرين إلى أنقاض.

واعتبارًا من عام (١٩٥٦م) فقد بدأت عمليّة ترميم هذا الجامع التاريخيّ أثناءَ شيّ طريقِ "أَدِرْنَه قَابِي" وذلك في إطارِ "برنامج ترميم الجوامع القديمةِ" الذي تبنَّاهُ رئيسُ الوزراءِ "عدنان مندرس (Adnan) المجوامع الا أنّ عملياتِ الإصلاحِ والترميم قد امتدَّت لسنواتٍ طويلةٍ.

...

الفِناء الكبيرُ لجامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" يأخذُ شكلًا مستطيلًا حيث تبلغُ أبعادُهُ ٥٧ ٢١ متر، كذلك نجدُ أنَّ الأطراف الثلاثةَ لهذا الفِناءِ محاطةٌ من الأمامِ بحُجُراتِ المدرسةِ الدينيَّةِ ذاتِ الأروِقَةِ، حيث نجدُ في أحدِ الطرفين اثنتي عشَرَة غرفة أمّا في الطرف الآخرِ فتوجد عشرُ غُرَفٍ

<sup>(</sup>٢٨٤) - أَيِجُه، المصدر السابق، الجزء العاشر، ص ٤٤٧.

<sup>(</sup>٢٨٥) المشروطية: اصطلاح عثماني أطلق على فترة التحوّل من الحكم الملكي الوراثي إلى الحكم بالدستور.

على الترتيب، ويُعْتَبَرُ القِسْمُ الذي بهِ قاعةُ الدروسِ أهمّ علامات المدرسة الدينيّةِ، ويُفْهَمُ من ذلك أنَّ الدروسَ كانت تُدَرَّسُ في الجامعِ، وإذا نظرنا إلى اللائحةِ التي تُنظِّمُ العمل في الوقفِ نجدُ بها أنّ المدرسة الدينية تحتوي على سبع عشرة غرفة، وبهذا الشكلِ يتَّضِحُ أنَّ بقيَّة الغُرَفِ لم تكنُ مستخدَمة، واللوائحُ التي تعودُ إلى أيلول/سبتمبر من عام (١٩١٤م) نَجِدُ بها إشارةً إلى أنّهُ كانَ من المتاحِ أن يسكُنَ ويقيمَ طالبانِ بكلِّ غرفة من غُرَفِ المدرسةِ التي ذُكِرَ أنها تبلُغُ العشرين غرفة، وفي عام (١٩١٨م) خصصتِ المدرسةِ التي ذُكِرَ أنها تبلُغُ العشرين عرفة، وفي عام (١٩١٨م) خصصتِ المدرسةُ الدينيَّةُ لتُصْبِحَ مأوى لضحايا حوادثِ الحريقِ، كما تمُ استخدامُها لفترةٍ وجيزةٍ أيضًا كمشفى. (٢٨١٠)

### ضريحُ "سميز أحمد باشا"

في الجنوب الغربي من جامع "السلطانة مِهْرِمَاة" وفي منتصف بَهْوِ الجامع توجد مدرسة للصبيان أُنشئتْ إلى جوارِ الضريحِ، حيث نجدُ أنَّ تلك المدرسة قد صمِّمَتْ بحيثُ تكونُ على هيئة مساحتين، إحدى هاتينِ المساحتينِ ذاتُ قُبّةٍ، والأخرى ذاتُ قَبْوٍ، وعندما ننتقلُ من خلالِ الممرِّ الذي يَقَعُ بينَ غُرَفِ المدرسةِ الدينيّةِ والقِسْمِ الذي توجَدُ به المنارةُ الأخرى نجدُ في الواجهةِ مباشرة بابَ المدرسةِ المزيّنِ بالأحجارِ الحمراءِ والبيضاءِ والذي يتميّرُ بقوسٍ مستديرٍ، ونجدُ أن هذه المساحاتِ مرتبطة مع بعضِها البعضِ من خلالِ بابٍ له عتبة من الرخام ومصنوعٌ من خشبِ الجَوزِ عليه رسوماتٌ هندسيَّةٌ متداخلةٌ.

ويُظهرُ تصميمُ المدرسةِ والضريحِ سويًّا أنهما أُنشِثا بأمرٍ من "السلطانة مِهْرِمَاهْ"؛ وأن الضريحَ كانَ لأجلِ عائلتِها، أمّا مدرسةُ الصبيان فقد أُنشِئَتْ كعمل خيريّ.

<sup>(</sup>٢٨٦) أَيِجُه، المصدر السابق، الجزء العاشر، ص ٤٤٨.

لقد أمكنَ إنقاذُ مدرسةِ الصبيان هذهِ من الانهيارِ من خلالِ عمليةِ الترميمِ التي أُجريَتُ لها في ستينيّاتِ القرنِ العشرين وذلك بعد أن كانت قد تحوّلتُ إلى حالةٍ مزريةٍ لسنواتٍ طويلةٍ، ويخبرنا "إبراهيم حقي قونيالي" أن الكتابة التالية كانتُ موجودةً في وقتٍ سابقٍ حيث دُوِّنتُ بخطٍ بديع على الحائطِ الذي يقعُ في مواجهة الشارع:

"قامت بإنشائها السلطانة مِهْرِمَاهُ، مدرسة الأولاد الابتدائية."

إلا أن هذه الكتابة لا بدّ وأنها تعود إلى تاريخ حديث. (٢٨٠٠

وفي الضريح المجاور لمدرسة الصبيان والذي نجدُه يَاخُذُ شكلًا مستطيلًا وكان مغطى في البداية بسقف خشبيّ يوجد قبرُ "سميز أحمد باشا" الذي كان زوج السلطانة "عائشة هماشاه (Hümâşah)" ابنة "السلطانة مهرِمَاة"، حيث نجدُ ذلكَ القبرَ إلى جوارِ قبورِ أخرى لشخصيّاتٍ من العائلة، وقد انتهى الحال بالضريح -الذي يُعتبر من أعمال المعماري "سِنَان" - في السنواتِ الأخيرةِ إلى حالةٍ مزريّةٍ جعلتُهُ يبدو وكأنَّهُ قد صار خرابةً، حيث نجد أن أسقُفَ الضريح قد صارت مهدَّمةً، أما ما به من توابيتَ حجريةٍ فأصبحت مبعثرةً، وقد ظلَّ الحال كذلك إلى أن تمَّ ترميمُ هذا الضريح مع مدرسة الصبيان في ستينيّاتِ القرنِ العشرين، لكنَّ الضريحَ ما زالَ إلى يومِنا هذا على هيئةٍ أربعةٍ جدران وذلك بسبب عدم بناءِ سقفٍ له حتى الآن.

وفي فِناءِ الضريح يوجد كذلك قبرُ "خاقاني (Hakânî) محمد بك" الذي ألّف كتاب "حلية النبي" الله حيث يُعتبر هذا الكتاب من أشهرِ الأعمال الأدبيّة الدينيّة التي خُطّت باللغة التركية في القرن السادس عشر الميلادي (١٢٨٠٠.

<sup>(</sup>٢٨٧) - أَبِجُه، المصدر السابق، الجزء العاشر، ص ٤٤٨.

<sup>(</sup>٢٨٨) - أَرْدُمْ، المصدر السابق، الجزء التاسم، ص ٢٩٣٢.

## الحمامُ المزدوجُ الذي تحوَّلَ إلى ورشةٍ لتصنيع الخيوطِ

بناءً على ما يُمْهَمُ من الأمرِ الصادرِ بتاريخ سنة (١٥٦٥م) والذي تم الرسالُهُ إلى قاضي إسطنبول فقد أُنشِئ كذلك حمامٌ مزدوجٌ قربَ مبنى جامعِ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" وذلك من جهةِ القِبلةِ، والحمامُ الذي يُعتبَرُ من الأبنيةِ التابعةِ للمجمَّع الخيريّ نجده يقعُ في الطرفِ الأيسرِ من شارع "فوزي باشا" الذي يربط اليوم منطقة "فاتح" بمنطقة "أدِرْنَه قَابِي"، أما القسمُ الخاصُ بالرجالِ في الحمامِ فيقعُ في الجهةِ المطلَّةِ على الشارع، في حينِ أنَّ القسمَ الخاصُ بالنساءِ يمكنُ الدخولُ إليه من بابِ جانبيّ يقلعُ في الجهةِ المعلقةِ والمحمولةُ على المدوريُ على المدوريُ على أعمدةٍ خشبيةٍ فقد شُيِدتُ لتحلَّ محلَّ القبابِ التي تعلوهُ والمحمولةُ الزلزال، وقد تمَّ بيعُ هذا الحمامِ المزدوجِ في فترةِ العصرِ الجمهوريِ وأصبحَ غيرَ تابع لمديريّةِ الأوقافِ، حيثُ صارَ قسمٌ من هذا الحمامِ وأصبحَ غيرَ تابع لمديريّةِ الأوقافِ، حيثُ صارَ قسمٌ من هذا الحمام في أواسطِ السيناتِ من القرن العشرين إلى أن تحوَّلَ إلى خرابة.

لقد تم تحويل قسم -كان يُستعملُ في الأصلِ لخلعِ الملابسِ بالحمامِ- إلى ورشة لتصنيع الخيوط، وذلك بعد أن ظلّ مدّةً طويلةً على هيئةِ حطام، إلا أنه وفي نهايةِ الستينات من القرنِ العشرينِ عادَ العملُ به من جديدٍ بعد أن تمّ ترميمُه من قِبَلِ مالكِ المكان.

\* \* \*

وفي الكتابة المدونة بتاريخ (١١٤٢هـ/١٧٢٩م) على السبيل العام الذي أنشأه "جاغالزاده (Cağalazâde) إبراهيم بك"، والذي نجدُه قد بُنِيَ



حمام "السلطانة مِهْرِمَاهْ" (أَدِرْنَه قَابِي/إسطنبول)

إلى جِوارِ حمَّامِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" يذكر أن هذا السبيل قد بُنِيَ من قِبل "السلطانة مِهْرِمَاهْ" -لكن وبعد فترةٍ من الزمن تعرَّضَ هذا السبيل للحريقِ والتخريبِ والدمار إلى أن توقَّفَ عن العمل تمامًا، فقامَ بعد ذلك أحدُ أولادِ الواقفينَ وهو "إبراهيم بك" ببناءِ هذا السبيل من جديد ليُكَمِّلَ الخيرَ الذي بدأته السلطانة، وليَحِلَّ هذا السبيل الجديدُ محلَّ ذلك القديم (١٨٠).

...

لقد أمَرَتُ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" بجلبِ الماءِ خصِيصًا من منطقة "كوتشوك كوي" من أجلِ تزويدِ هذا المجمّعِ الخيريّ والحمامِ بالمياهِ اللازمة، وقد استُخدِمَ هذا الماءُ بعد ذلك أيضًا في إمدادِ وتزويدِ جامِعَي "آتيك علي باشا" و"نيشانجي" إلى جانبِ تزويدِ كثيرٍ من الصنابيرِ والمواضئ بالماءِ، وقد ظلّت قناة الماءِ تلك التي جُلِبَتْ من منطقة "أدِرْنَه قَابِي" مستخدَمة حتى ثلاثيناتِ القرن التاسع عشر (۲۰۰).

وفي اللائحة التي تُنَظِّمُ عملَ الوقفِ نجد أن هناك اثنين وستين دكانًا من في سوق المجمّع الخيريّ، حيث نجدُ أنَّ هناك ثلاثةً وعشرين دكانًا من هذه الدكاكين قد أُنشِئت تحتّ مستوى سطح فِناءِ الجامع بحيثُ كانت تُجاوِرُ الحوائطَ الشماليّة الشرقيّة والشماليّة الغربيّة من الفِناء، ومعنى هذا أن تلك الدكاكين لم يتمّ بناؤها أثناءَ عمليّةِ التجديدِ والترميمِ للجامعِ وإنما هي مبنيّة مع الجامعِ أساسًا، أما الدكاكينُ الأخرى فقد بُنِيَتْ جهة الحمام تحت سطحِ الفِناءِ الخارجيّ، ولقد خُصِّصَت عائدات هذه الدكاكين من المال من أجل الإنفاقِ على المجمّع الخيريّ.

<sup>(</sup>٢٨٩) - كُويَانَ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٤٥٤.

<sup>(</sup>٢٩٠) - كُوبَانْ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٤٥٦.

## قناةٌ للمياهِ تحتَ الأرضِ بتكلفةِ خمسين مليون في مكة

في العصرِ العثماني كان من الشائعِ أن تكونَ سيداتُ القصرِ في المقدِّمةِ وإلى جانبِهِنَّ زوجات الوزراءِ والولاةِ والأغنياءِ وميسوري الحال وكل شرائح المجتمع بما في ذلك زوجات الفقراء وذلك في مسألةِ التبرُّع بما لديهنَّ من عقاراتٍ وممتلكاتٍ ومبالغ نقديّةٍ لخدمةِ المشروعاتِ الخيريَّةِ، ومن بين هذهِ المشروعاتِ الخيريّةِ كانت تلك الأوقافُ الكبيرةُ التي خُصِّصَتْ من أجلِ خدمةِ الحرمينِ الشريفينِ وتلك الأماكن المقدَّسةِ التي عاش فيها سيدنا الرسول وقد استغلت "السلطانة مِهْرِمَاة" ببراعةٍ ونشاطِ الفرصة التاريخيَّة التي سنحَتْ لها من أجلِ مساعدةِ الناس اللذين يعيشون في تلك البلاد، حيث تمكَّنتْ من أن تنجِزَ خدماتٍ عظيمةً في عيشون في المقدسة. (٢١٠)

\* \* 4

وفي السنوات التي تلت ستينات القرن السادس عشر تعرَّضَت قناةُ المياه التي تسمى "عَيْن زُبَيْدَة" (٢٩٢٠) - والتي كان قد تم تجهيزُها في مكة المكرمةِ من قِبَلِ السيدة "زبيدة" زوجةِ "هارون الرشيد" الخليفةِ العباسي - إلى الفيضاناتِ والعواصفِ الرمليّةِ ممّا أدّى إلى عدمِ استعمالِها، وقد بادر (٢٩١٠) كانت السيدة الأميرة ابنة السلطان "مراد الثاني "مي أولى السيدات من بين ناه النصر العثماني التي نشيد وتفصى ونفا من أجل عدم العربين الشريفين.

<sup>(</sup>٣٩٧) لقد تمكنت "السيدة زييدة" التي عرفت أعمالها الخبرية المتعقدة من أن تجلب المياه من الفرات إلى مكة المكرمة وذلك بعد أن أنفقت ما يوازى مليونًا وسيعمائة ألف قطعة ذهبية في عامي (٨٢٨ - ٨٢٩) ويذلك تكون "السيدة زبيدة" قد استطاعت أن تجد إلى حد ما حل لمشكلة المياه التي كانت تقع سواه في عرفات وقت موسم الحج أو في مكة طوال العام. (مصطفى يبلجه (عيالة)" عبن زييدة"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الدياتة التركية، إسطنبول - ١٩٩٢م، المجلد الرابع، ص ٢٧٩).

شريفُ مكّة عام (٩٧٠هـ/١٥٦٢م) إلى إرسالِ خطابِ إلى عاصمة الدولة العليّة، حيث عرض في هذا الخطابِ تقريرًا حول ذلك الموضوع وأكّد على ضرورة إصلاحِ مثلِ هذه القنوات، وبناءً على هذا الطلبِ من شريفِ مكّة فقد أمرَ "سليمان القانوني" بما يلزمُ من أجلِ القيامِ بعمليّة الإصلاحِ التي تحتاجُها تلك القنوات، كما أمرَ السلطانُ كذلكَ بحسابِ التكلفةِ الماليّةِ اللازمةِ من أجلِ القيامِ بهذهِ المسألةِ، كما شكّلَ السلطانُ من أجلِ الماليّةِ اللازمةِ من أجلِ القيامِ بهذهِ القادر ابن علي مغربي" ومعه أيضًا "خير ذلك لجنةً تضُمُّ قاضي مكة "عبد القادر ابن علي مغربي" ومعه أيضًا "خير الدين بك" القائمُ بأعمالِ جدّة.

وقد قامَ قاضي مكة بعملِ تقريرٍ عرضَهُ على "السلطان سليمان" ذكر فيه أنَّه يلزمُ مبلغ ثلاثين ألف قطعة ذهبيّة من أجل إصلاحِ قنواتِ المياه وإزالةِ العوائِقِ التي تحولُ دونَ ذلك وأيضًا من أجلِ عملِ قنواتٍ جديدةٍ للمياهِ يتمُ الإعداد لها(١٦٠).

وعندما وصلَ هذا التقريرُ إلى إسطنبول قرَّرت "السلطانة مِهْرِمَاهُ" أن تتكفَّلَ بالأمرِ ولا تحمّل ميزانيةَ الدولة أيّةَ أعباءٍ، فتبرَّعت في سبيل هذا الأمرِ بمبلغِ خمسين ألف قطعة ذهبيّة (٢٠٠٠) وهو ما يزيدُ عن المبلغِ اللازمِ من أجلِ إجراءِ الإصلاحاتِ المطلوبةِ، كما دفعت "السلطانة مِهْرِمَاهُ" مبالغَ من النقودِ الفضّيّةِ إلى دفتردار مصرَ القديم "إبراهيم بك" والذي تمَّ تعيينُهُ ليكونَ مسؤولًا عن تنفيذِ الإصلاحاتِ المُرْمَع إجراؤها.

وقد أسرع "إبراهيم بك" ببناء فناء مسوَّرٍ من أجلِ إجراء التعديلاتِ، ( ٢٩٣) مصطفى بحواز ( Geler)، أوقاف الحرمين في عهد الدولة العثمانية - الفرنين السادس عشر والسابع عشر، الطنبول - ٢٠٠٦، ص ٢٦.

<sup>(</sup>٢٩٤) - هذا العمل الذي قدر في البداية أنه سيكلِّف ثلاثين ألف قطعة ذهبيّة قد تجاوز هذا العبلىغ بكثير، ويناه على بعض المصادر فقد تجاوز العبلىغ الذي أنفق أكثر حتى من مانة ألف قطعة ذهبية (وهو ما يوازي اليوم حوالي خمسة وعشرين مليون ذولاز.

حيث بلغَ عددُ المهندسين العاملينَ في هذا المشروع أربعمائة مهندس، كما اتسَع نطاقُ العملِ باشتراكِ العُمّالِ والخبراءِ ليصلَ عددُ العاملين في مدَّةٍ وجيزةٍ إلى ما يزيد عن ألفِ شخص، واستمرَّت هذه العمليّة التي بدأتُ من عام (١٥٢٣م) وحتى عام (١٥٧٣م) مدَّةَ عشرِ سنواتٍ بلا انقطاع، وعندما لم يكفِ الحديدُ والصلبُ الخامُ الذي جُلبَ من مصرَ سابقًا لأجلِ البناءِ، فقد طُلِبَتْ كميّةٌ من إسطنبولَ عام (١٥٦٨م) لإتمامِ البناءِ، كما نُقلت باقي المواد المطلوبةِ إلى مكة عن طريقِ مصرَ، ومع انتهاءِ عمليَّةِ الإصلاحِ عام (١٥٧٣م) نظَّمَ المفتى "الحسيني" حفلَ افتتاحٍ، وعي فيه للدولة العثمانية (١٥٧٣م)

وبعد هذه الجهود التي بُذِلَتْ فإنَّ كميّة المياه الذي يتم إيصالُها إلى مكّة المكرمة قد زادت بشكلٍ واضح، وذلك بفضلِ الآبارِ الأخرى التي تم توصيلُها بقناة المياه، كما تم عملُ سبل عامَّة متنوِّعة في كلِّ مكانٍ من المدينة، حيث كانَ يتم توزيعُ المياه على الأحياء العديدة وبشكلٍ مختلفٍ عمّا كان سابقًا، وعلى هذا النحوِ فإن هذا الإنجاز لم يكنُ مجرَّد عمليّة تجديدٍ ولكنَّهُ كانَ في نفسِ الوقتِ عمليّة إحياء وتطويرٍ لقناة المياهِ التي سُمِيّت "عَيْن زُينُدَة"(٢٩١).

<sup>(</sup>٢٩٥) مصطفى ل. بِيلْجَه (Bilge)، "عين زيدة " الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٢م، الجزء الرابع، ص ٢٧٩-٢٨٠.

<sup>(</sup>٢٩٦) لقد حمل السلاطين الضمانيون بعد فتح مصر عام (١٥٩٧) لقب " الخليفة " وكذلك لقب حامي الحجازه وكان مشروع إحياء قناة المياه "عين زبيدة" في زمن السلطان "القانوني" هو أول الأعمال الكبيرة التي قامت بها الدولة المشمانية من أجل توفير المياه في الحرمين الشريفين، وبحلول عام (١٥٢٥م) بلغ الأمر أن قنوات المياه التي توصل مياه الآبار إلى مكة المكرمة قد أصبحت غير مستخدمة على الإطلاق، وقد أبلغ هذا الأمر إلى السلطان "القانوني" الذي كان هو ولي الأمر في ذلك الوقت، وقد أمر السلطان -الذي تدارك المسألة بسرعة- بإصلاح قنوات المياه وكذلك أمر بترفير المختصات النقدية والميتية الملازمة، وقد عادت قنوات المياه إلى العمل من جديد عام (١٩٥١م) بعد أن تم الانتهاء من عملية الإصلاح والتي امتدت طوال ست سنوات. (مصطفى جولر، أوقاف الحرمين وأهميتها في الدولة المشانية في الذولة المشانية في الذولة المشانية

إن مجرى الماء الذي أنشاته السيدة "زبيدة" كان بمقدورِه أن يأتي بالماء حتى "عرفات" فقط، لكنَّ هذا المَجرى لم يكنُ بمقدورِه أن يوصل هذا الماء إلى الأحياء الداخليَّة بمدينة مكة، أمَّا في عهد "سليمان القانوني" فقد أمكن إيصالُ الماء إلى مركزِ مدينة مكة مخترقًا الهضابَ الصخريَّة التي بين مكة وعرفات، وبهذه الصورة الجديدة تكون قناة "عين زبيدة" قد أخذت شكلًا جديدًا ومختلفًا تمامًا عمًا سبق (١٩٧٠).

## وقفُ قراءةِ القرآنِ على روح الرسول ﷺ

إلى جانبِ الأعمالِ الخيريّةِ الأخرى التي تركتها "السلطانة مِهْرِمَاة" توجَدُ سبعةُ أمورٍ مرتبطةٍ بخدمةِ الحرمينِ الشريفين، أحدُ هذهِ الأعمالِ الخيريّةِ كان إرسالُها كلَّ عام لما يُقدَّرُ بحوالي ألفين وخمسمائة قطعةٍ من الذهبِ إلى مكةَ المكرَّمةِ وألفين وخمسمائة قطعةٍ أخرى إلى المدينةِ المنوّرةِ أي ما يَصِلُ مجموعُهُ إلى خمسةِ آلاف قطعةٍ من الذهب وذلك بشرطِ أن يتمَّ إرسالُها إلى الحرمين بواسطةِ "أمين المحمل الشريف" (١٩٨٠) وكان يتمُّ توزيعُ هذه الأموالِ على أشدِّ الناسِ فقرًا من خلالِ القضاةِ وعلماءِ من المذاهب الأربعةِ (١٩٨٠).

كذلك نجد في لائحة أخرى للوقف أن "السلطانة مِهْرِمَاهْ" كانت ترسل كذلك بواسطة "أمين المحمل الشريف" ثلاثمائة عملة معدنيّة من عائد

<sup>(</sup>٢٩٧) - جُولُز، المصدر السابق، ص ٦٦.

<sup>(</sup>٢٩٨) كان هناك شخص بشغل وظيفة إحضار الهدايا والنقود التي يرسلها السلاطين العثمانيون كل عام في وقت الحج من أجل التوزيع على أهالي الحرمين حبث كان يتم جلبها في صورة أفواج مرتبة تأتي من إسطنيول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة حيث توزع هذه الهدايا والأموال كأمانات من قبل ذلك الشخص.

<sup>(</sup>٣٩٩) ف. جَانْجُوزُلُ (Cangüzel) ذو الفقار، " دراسة عن الأوقاف الخاصة ب"السلطانة مِهْرِمَاة"، بحث ماجستير، أنقرة – ١٩٨٩م، ص ٤٩.

بالإضافة إلى ذلك فقد خَصَصَتْ السلطانةُ مبلغَ مائة وتسعة وثمانين عملة فضية لتُوزَّع على ثلاثة وتسعين شخصًا يُوظَّفُ في مكة والمدينة وخليلِ الرحمن حيثُ كان منهم تسعة وثمانين قارئًا للقرآن وثلاثة بدرجة رئيسِ القرآءِ وثلاثة يعملونَ في ضبطِ النصِ القرآنيِ وتشكيلِهِ وثلاثة يعملون كمشرفين، وقد جعلت السلطانةُ هذا المبلغ يُوزَّعُ عليهم في شكلِ قطعتينِ من النقودِ الفضية لكلِّ منهم """.

\* \* \*

كذلك فقد رغِبَتْ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في أن يُمنحَ عشرُ قِطَعِ ذهبيّةٍ للثلاثين قاريٌ من خيرة القرّاء العلماء المطبّقين لقواعد التجويد والترتيل وذلك مقابل أن يقرأ كلَّ منهم عند مقام نبيّ الله إبراهيم الظنين جزءًا من القرآنِ عقِبَ صلاةِ الظهرِ يوميًّا، ويهبَ ثوابَ قراءَتِهِ إلى روحِ "السلطانة مِهْرمَاه" صاحبةِ هذا الوقف.

كذلك فقد كان هناك ثلاثون شخصًا يختمون قراءة القرآن في المسجد النبوي بالمدينة المنورة والذين رغبت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في أن يتم إعطاؤهم عشر قِطَعٍ ذهبيَّةٍ نظيرَ أن يتم وهبُ ثوابِ عشرةِ أجزاءٍ من التي يقرأونَها من القرآن إلى روحِ سيدنا النبيّ محمد مَن وَوَهْبُ أيضًا

<sup>(</sup>٣٠٠) - جُولُز، المصدر السابق، ص ١٠٣.

<sup>(</sup>٣٠١) ذو الفقار، المصدر السابق، ص ٧١.

شواب عشرة أجزاء أخرى إلى روحٍ أصحابِهِ، أمَّا ثوابُ العشرةِ أجزاءٍ الأخيرةِ من القرآن فيتمُّ وهبُها إلى روحٍ صاحبةِ الوقف -أي "السلطانة مِهْرِمَاهُ"-.(٢٠٢)

...

لقـد كانَ ســلاطينُ الدولةِ العثمانيَّةِ والســلطاناتُ كذلكَ يُرسِــلُون في الغالبِ من ينوبُ عنهم من أجلِ أداءِ فريضةِ الحجّ، وبسببِ ما كانت تقتضيهِ رحلةُ الحجّ من وقتٍ يتـراوحُ بين الثلاثةِ والأربعةِ شــهورِ كانت تستغرقُها المسافةُ من إسطنبولَ إلى مكةَ المكرمة نظرًا لظروفِ وإمكاناتِ السفر في ذلك العصر، فقد كان من الصعب بقاء السلاطين بعيدينَ عن مركز الدولة لمدَّة طويلة بهذا الشكل، وقد أفتى لهم العلماء بأنَّ في إمكانِهِم أن يُـؤَدُّوا فريضة الحـج عن طريقِ توكيلِ شـخصِ آخـرَ للقيام بتلك الفريضةِ نيابةً عنهم، وهكذا فقد تمكَّنَ السلاطين وزوجاتُهم من أداءٍ الحجّ عن طريقِ الوكالةِ مستندين إلى تلك الفتوى، بالإضافة إلى ذلكَ فقد قامَ السلاطينُ والسلطاناتُ بإقامةِ الأوقافِ من أجل أن يتمَّ الحجُّ بالنيابةِ عنهم كلَّ سنةٍ، فنجدُ أنَّ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" قد وظَّفَتْ ثلاثةَ أشخاص لكي يقوموا بالحجّ نيابةً عنها، وقد خَصَّصَتْ لكلِّ واحدٍ منهم مبلغَ ستَّةٍ آلافِ قطعةٍ فضَّيّةٍ سنويًا، وبذلك يكونُ مجموعُ المبلخ الذي خصَّصَتْهُ "السلطانة مِهْرِمَاهُ" لذلك الغَرَضِ ثمانية عشر ألف قطعةٍ فَضَيّة في السنة (٢٠٠٠).

<sup>(</sup>٢٠٢) ﴿ ذُو الْفَقَارِ، الْمُصَدِّرِ السَّابِقِ، ص ٤٨.

<sup>(</sup>٢٠٣) - جُولُز، المصدر السابق، ص ١٤١.

#### المصادر

Ak, Mahmud, "Vakıf Kurucusu Bir Hanım: Mihrimah Sultan ", Vakıflar Dergisi, Ankara, 2006, (Özel sayı: Vakıf Medeniyeti Yılı).

محمود آق، "السيدة مؤسسة الوقف: "السلطانة مِهْرِمَاة"، مجلة الأوقاف، أنقره – (٢٠٠٦م)، (عدد خاص: عام ثقافة الوقف).

Akçay, İlhan, Ayasofya Camii, Ankara, 1968.

إِلْحَانْ آقْجَايْ، "جامع أياصوفيا"، أنقره - (١٩٦٨م).

Akgündüz, Ahmed-Öztürk, Said, Kiliseden müzeye Ayasofya Camii, İstanbul, 2006.

أحمد آڤكُونْدُوز - سعيد أوزتورك، "جامع أياصوفيا من الكنيسة إلى المتحف"، إسطنبول، (٢٠٠٦م).

Aksun, Ziya Nur, Osmanlı Tarihi, İstanbul, 1994, C.I.

ضيانور أُكْسُونْ، التاريخ العثماني، إسطنبول – (١٩٩٤م)، المجلد الأول.

Aktaş, Ali, Türk Dünyası Tarih Dergisi, İstanbul, 1987.

على آفتاش، مجلة العالم التركى التاريخية، إسطنبول - (١٩٨٧م).

Baltacı, Cahit, 'Hürrem Sultan ", DİA, İstanbul, 1998, C.XVIII.

جاهد بَلطَجِي، "السلطانة خُرُم"، الموسوعة الإسلامية، هيشة الديانة التركية، إسسطنبول، (١٩٩٨م)، الجزء الثامن عشر.

Bayat, Ali Haydar, "Hafsa Sultan ", DİA., İstanbul, 1997, C.XV.

علي حَيْدُز بَيَاتْ، السلطانة حَفْضة، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة النركية، إسطنبول -(١٩٩٧م)، الجزء التاسم.

Baykal, A. Nur, "Hürrem Sultan", Popüler Tarih, 2001, C.II.

أ. نور بيقال، "السلطانة خُرُم"، مجلة "التاريخ الشعبي"، (٢٠٠١م)، الجزء الثاني، العدد ١٦.

Baykal, A.Nur, "Hürrem Sultan'ı Kanunî mi öldürttü? ". Popüler Tarih, 2004, C.IV.

أ. نـور بيقـال، "هـل جعلت "السـلطانة خُـرُم" زوجهـا القانوني قاتـلا؟"، التاريخ الشـعبى،
 ٢٠٠٤م)، الجزء الرابـم، العدد ٤٤.

Baysun, Cavit, "Mihr ü mâh Sultan ", MEB İslâm Ansiklopedisi, İstanbul, 1960. C.VIII.

جَاوِيتُ بَايْسُونْ، "السلطانة مهرماه"، وزارة التربية والتعليم، الموسوعة الاسلامية، إسطنبول - (١٩٦٠م) الجزء الثامن.

Bilge, Mustafa L., "Aynızübeyde ", DİA, İstanbul, 1992, C.IV.

مصطفى ل. بِيلْجَه، "عين زبيدة" الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٢م)، الجزء الرابع.

Bozdağ, Fahrettin, "Sıbyan Mektepleri", VIII. Eyüp Sultan Sempozyumu Tebliğler, İstanbul, 2004.

فخر الدين بُوزُدَاغ، مدارس الصبيان، الجزء الثامن من اصدارات ندوة السلطان " أيوب "، إسطنبول. (٢٠٠٤).

Busbecq, Ogler G. de, Kanunî Devrinde bir Sefirin Hatıraları, Ankara, 1953.

أولجر ج.دي بوسبيك، " ذكريات سفير في عهد "القانوني"، أنقره، (١٩٥٣م).

Carım, Fuad, Kanunî Devrinde İstanbul, İstanbul, 1964.

ترجمة: فؤاد جَارم، إسطنبول في عصر القانوني، إسطنبول - (١٩٦٤م).

Cezar, Mustafa, "Osmanlı Devrinde İstanbul Yapılarında Tahribat Yapan Yangınlar ve Tâbîî Âfetler", Türk Sanatı Tarihi Araştırmalar ve İncelemeleri I, İstanbul, 1963.

مصطفى جَزَاز، الكوارث الطبيعية والحرائق التي دمرت العبانى في مدينة إسطنبول قى العصر العثماني، بحوث ودراسات تاريخية عن الفن التركى الجزء الأول، إسطنبول – (١٩٦٣م).

Çam, Nusret, Osmanlı Güneş Saatleri, Ankara 1990.

نُصْرَتْ جَامْ، الساعات الشمسية العثمانية، أنقره، (١٩٩٠م).

Danişmend, İ.Hami, İzahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi, İstanbul, 1961, C.II.

إسماعيل حامى دَانِشْمَنْد، التسلسل الزمني المشروح للتاريخ العثماني، إسطنبول، (١٩٦١م). الجزء الثاني.

Demiriz, Yıldız, "Üsküdar'da Mihrimah Sultan Camii", Sanat Dünyamız, İstanbul, 1980, C.IV.

بِلْدِيرْ دَبِيرْإِيرْ، جامع "السلطانة بِهْرِمَاهْ" في أسكودار، دار نشر " صنعت دنياماظ "، إسطنبول، (١٩٨٠م)، الجزء الرابع، العدد ٢٠.

Doğan, Sema, "Haseki Külliyesi", DİA, İstanbul, 1997, C.XVI.

سَمًا دُوغَانُ، "مجمع خَاصَكِي"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - (٢٠٠٣م)، الجزء السادس عشر.

Eyice, Semavi, "Edirnekapı Camii ve Külliyesi", İstanbul, 1994, DİA, C.X.

سَمَادِي أَبِجَه، "مجمع وجامع أَذْرْنَه قَابِي"، الموسىوعة الإسلامية، هيشة الديانة التركية، إسطنبول - (١٩٩٤م)، الجزء العاشر.

Eyice, Semavi, 'Haseki Hamamı', İstanbul, 1991, C.IV.

سَمَارِي أَيِجَه، "حمام خَاصَكِي"، إسطنبول، (١٩٩١م)، الجزء الرابع.

Güler, Mustafa, Osmanlı Devleti'nde Haremeyn Vakıfları (XVI. ve XVII. Yüzyıllar), İstanbul, 2002.

مصطفى جُولَرْ، أوقاف الحرمين في عهد الدولة العثمانية – القرنين السادس عشر والسابع عشر، إسطنبول -(٢٠٠٢م).

Gökbilgin, Tayyib, "Hurrem Sultan", MEB. İslâm Ansiklopedisi, İstanbul, 1964, C.V-I.

طُيّب جُوكْبِيلْجِينْ، "السلطانة خرم"، وزارة التربية والتعليم، الموسوعة الاسلامية، إسطنبول – (١٩٦٤م)، المجزء الخامس.

Haskan, M. Nermi, Yüzyıllar Boyunca Üsküdar, İstanbul, 2001, C.I.

م. نَزمِي حَصْكَانُ، أسكودار على مر العصور، إسطنبول- (٢٠٠١م). الجزء الأول.

Hasırcıoğlu, Talat, "Osmanlı sarayında saltanat süren kadınlardan Hürrem Sultan", Resimli Tarih Mecmuası, İstanbul, 1956.

طَلْمَت حَصِرْجِي أُوغْلُو، "السلطانة خُرُم" بين سيدات القصر العثماني اللاتي حكمن السلطنة، المجموعة التاريخية المصورة، إسطنبول، (١٩٥٦م)، الجزء السابم، العدد، ٧٣.

Kangal, Selmin, Savaş ve Barış, 15-19 yüzyıl Osmanlı-Lehistan Münasebetleri, Vakıflar Dergisi, Ankara, 2006, Özel Sayı.

سَـلْمِينُ كَنْجَالُ، الحرب والسلام، العلاقات البولنديةالعثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسيع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، أنقره -(٢٠٠٦م).

Kanunî Sultan Süleyman, "Hürrem Sultan'a Gazel ", COGÎTO, Îstanbul, 1995.

سلطان سليمان القانوني، " أشعار غزلية للسلطانة "نُحُرُم"، منشورات COGITO، إسطنبول، (١٩٩٥م)، العدد: ٤.

Komisyon, Fatih Camileri ve Diğer Tarihî Eserler, İstanbul, 1991.

لجنة، جوامع "فاتح" والآثار التاريخية الأخرى، إسطنبول – (١٩٩١م).

إسسماعيل حقى قُونْيَالِي، تاريخ "أسكودار" مع الآثـار والكتابات المدونة، إسطنبول - (١٩٧٦م)، الجزء الأول.

Kuban, Doğan, 'Haseki Külliyesi ", Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 2003, C.IV.

دُوغَـانْ كُوبَـانْ، "مجمع خَاصَكِي" موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - ( ٢٠٠٣م)، الجزء الرابع.

Kuban, Doğan, "Mihrimah Sultan Külliyesi", Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 1994, C.V.

دُوغَانُ كُوبَان، "مجمع مهرماه سلطان"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - (١٩٩٤م)، الجزء الخامس.

Kuran, Abdullah, "Üsküdar'da Mihrimah Sultan Külliyesi ", Boğaziçi Üniversitesi Dergisi, İstanbul, 1975, C.III.

عبد الله كُورَانْ، "مجمع السلطانة مِهْرِمَاهُ في أسكودار"، مجلة جامعة " بُوغَازْ إِيجِي "، إسطنبول، (١٩٧٥م)، الجزء الثالث.

Kütükoğlu, Mübahat S., XX. Asra Erişen İstanbul Medreseleri, Ankara, 2000.

مُوبَاحَاتْ كُوتُوكْ أُوغْلُو، "مدارس إسطنبول التي بقيت حتى القرن العشرين"، أنقره - (٢٠٠٠)م.

Mehmed Hemdemî Çelebi, Solakzâde Tarihi, Ankara, 1989, C.II.

محمد هَمْدَمِي شَلِّمِي، تاريخ صُولَاكُ زَادَه، أنقره - (١٩٨٩م)، المجلد الثاني.

Natshe, Yusuf Said, 'My Memories of Khassaki Sultan or The The Flourishing Edifice", (Muhteşem Âbide, Haseki Sultan İmareti ile ilgili Hatıralarım) Kudüs, 2000.

يوسف أفندى ناتشي، " الأثر العظيم، ذكرياتي مع دار السلطانة خَاصَكِي لإطعام المحتاجين (My Memories of Khassaki Sultan or The The Flourishing Edificey."، القدس، (۲۰۰۰م).

Orman, İsmail, "Mihrimah Sultan Külliyesi", DİA, İstanbul, 2005, C.XXX.

إسماعيل أُورْمَانْ، "مجمع السلطانة مِهْرِمَاهْ"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول -(٢٠٠٥م)، الجزء الثلاثون.

Ölçer, Nazan, 'Bir Savaşın ve Barışın Sergisi ", Savaş ve Barış, 15-19 yüzyıl Osmanlı-Lehistan Münasebetleri, Vakıflar Dergisi Özel Sayı, Ankara, 2006.

نَازَانُ أُولَجُرْ، معرض حرب وسلام، الحرب والسلام، العلاقات البولندية العثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، أنقره، ٢٠٠٦م).

Özer, Deniz, "Hürrem Sultan'ın gazabına uğrayan bir sadrazam ", Türk Dünyası Tarih Dergisi, İstanbul, 1988.

دنيز أوزر، الصدر الأعظم الذي غضبت عليه السلاطنة "خُرُم"، مجلة العالم التركى التاريخية، إسطنبول – (١٩٨٨م)، العدد رقم ٢٤.

Özdemir, Mehmed Niyazi, Türk Tarih Felsefesi, İstanbul, 2008.

Özkeçeci, İlhan, "Üsküdar Mihrimah Sultan Camii ve Külliye İçindeki Türbelerin Süsleme Programı Üzerine Bir Değerlendirme ", Uluslar arası Üsküdar Sempozyumu, İstanbul, 2008, C.II.

إِلْخَانُ أُوزُكَجَجِي، نظرة على شكل الزينة في الأضرحة الموجودة بمجمع وجامع "السلطانة مِهْرِمَاة" بمنطقة "أسكودار"، الندوة الدولية عن "أسكودار". إسطنبول - (٢٠٠٨) م. الجزء الثاني.

Öztuna, Yılmaz, Osmanlı Devleti Tarihi, Ankara, 1998, C.I.

بِلْمَازْ أُوزْتُونَا، تاريخ الدولة العثمانية، أنقرة - (١٩٩٨م)، المجلد الأول.

Öztuna, Yılmaz, Türkiye Tarihi, C.VI.

بِلْمَازْ أُوزْتُونَا، تاريخ تركيا، الجزء السادس.

Sakaoğlu, Necdet, 'Mihrimah Sultan'', Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 1994, C.V.

نَجُدَتْ صَقَا أُوغْلُو، "السلطانة مِهْرِمَاه"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - (١٩٩٤م)، الجزء الخامس.

Singer, Amy, Osmanlı'da Hayırseverlik, İstanbul 2004.

أمي سنجر، الأعمال الخيرية في العصر العثماني، إسطنبول، (٢٠٠٤م).

Şehsuvaroğlu, Haluk, Asırlar Boyunca İstanbul, Cumhuriyet Gazetesi'nin Tarih İlavesi.

هَالُوكُ شَاهْسُوفًازْ أُوغُلُو، إسطنبول على مر العصور، الملحق التاريخي لجريدة الجمهورية.

Tanışık, İbrahim Hilmi, İstanbul Çeşmeleri, İstanbul 1943, C. I.

إبرهيم حلمي طَانِيشِيكْ، سُبل إسطنبول، إسطنبول- (١٩٤٣م)، الجزء الأول.

Tanman, M. Baha, 'Haseki Hamamı',' Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 2003, C.IV.

م. بَاهَا طَانْمَانْ، "حمام خَاصَكِي"، موسوعة إسطنيول من الأمس إلى اليوم، (٢٠٠٣م).
 الجزء الرابع.

Taşkıran, Nimet, Hasekinin Kitabı, İstanbul, 1972.

نِعْمَة طَاشْكِيرَانْ، كتاب "حصاكي"، إسطنبول - (١٩٧٢م).

Togan, A. Zeki Velidi, Tarihte Usul, İstanbul, 1985.

أ.دأحمد ذكي وليدي تُوجَانُ، "الأساس في التاريخ"، إسطنبول - (١٩٨٥م).

Uçtum, Nejat R., "Hürrem ve Mihrimah Sultanların Polonya Kralı II. 'a yazdıkları mektuplar ", Belleten, 1980, C.XLIV.

نَجَاة ر. أُوجْتُومْ، الرسـائل المكتوبة من قبل الــــلطانتين "خُوْم" و"مِهْرِمَاه" إلى ملك بولندا زيجموند الثاني، دورية علمية، (١٩٨٠م)، الجزء الرابح والأربعون، العدد، ١٧٥.

Uluçay, Çağatay, Osmanlı Sultanlarına Aşk Mektupları, İstanbul, 2001.

جَاغَاتَايُ أُولُوجَايُ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول - (٢٠٠١م).

Uluçay, Çağatay, Padişahların Kadınları ve Kızları, Ankara, 1980.

جَغَطَايْأُولُوجَايْ، نساء وبنات السلاطين، أَنْقَرَه، (١٩٨٠م).

Uzunçarşılı, İ.Hakkı, Osmanlı Tarihi, Ankara, 1975, C.II.

إسماعيل حقي أُوزُونْ جَارْشِيلِي، التاريخ العثماني، أنقره، (١٩٧٥م)، المجلد الثاني.

Yıldırım, Nuran, "Haseki Dârüşşifası ve Hastanesi ", Dünden Bugüne İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 2003, C.IV.

نُورَانْ يِلْدِيرِمْ، "مستشفى ومستوصف خَاصَكِي"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - (٢٠٠٣م)، الجزء الرابع.

Yücel Erdem, 'Edirnekapısı Camii', İstanbul Ansiklopedisi, İstanbul, 1968, C.IX.

أَرْدَمْ يُوجُلُ، "جامع أَدِرْنَه قَابِي"، موسوعة إسطنبول، إسطنبول - (١٩٦٨م)، الجزء التاسع.

Zülfikâr, F. Cangüzel Mihrimah Sultan'ın VGMA'da bulunan Vakfiyelerinin Değerlendirilmesi, Yüksek Lisans Tezi, Ankara, 1989.

 ف. جَانَّجُوزَلُ ذو الفقار، "دراسة عن الأوقاف الخاصة بـ"السلطانة مِهْرِمَاة"، بحث ماجستير، أنقره – (١٩٨٩م).